

كتاب

تاريخ مصر الحديث

من الفتح الاسلامي الى هذا العصر

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الاول

من الفتح الاسلامي الى آخر دولة المماليك الثانية

وفي أوله فذلكة التاريخ القديم

« الطبعة الثالثة »

مطبعة الهلال

مصر ١٩٢٥

فاتحة الكتاب

للطبعة الاولى

حمداً لمن جعل أقاصيص الاولين عبرة للآخرين . أما بعد فلا أزيد القارىء علماً بمجد التاريخ ولا بما له من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال عليه من اصلاح الشؤون . وانما اكتفي بكونه اكثر ارتباطاً بمصالح خاصة الناس منه بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين أحوج الى معرفته من سائر أفراد الامة . ولذلك رأينا ولاة الامور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون العناية في مطالعته وتفهم خفاياه ويبذلون النفيس في استطلاع مكنوناته وجمع شظاياه فتكاد لا ترى مؤرخاً من القدماء الا وقد أوعز اليه ولي الامر أو من جرى مجراه أن يضع في التاريخ كتاباً . بل كثيراً ما رأينا من ولاة الامور أنفسهم من ألف فيه كتباً غير مبال بما يقتضيه ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من أن يقول الناس انه اعتنى بما هو دون مقامه

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسر لضعيف مثلي ان يطرق بابه أو يخوض عبابه لقصر باعه عما يحتاج اليه في ذلك من المادة التي تمتنع الا على الملوك أو المقربين منهم

أما الآن فما يتباحث فيه الملوك صباحاً في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي عليه الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في أقاصي المشرق . والفضل في ذلك لاسلاك البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجاباً . فلا غرو والحالة هذه اذا تجرأ من كان عاجزاً مثلي على أن يضع في مثل ذلك كتاباً

ولما كانت المملكة المصرية من أقدم الممالك تمدناً واكثرها حوادث وطوارىء

ومحناً لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعة ولغة ووطناً كانت أجدرها بتدوين تاريخها عبرة الذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطاً بحالتها الحاضرة من تاريخها قبله كان اكثر فائدة وأحوج الى التدوين وهذا ما ندعوه بتاريخ مصر الحديث

وقد قام من كتبة العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث . وأحدث هذه المؤلفات « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك ناظر عموم المعارف جعله عشرين جزءاً كبيراً وهو من التآليف التي لا يقدم على كتابتها الا أصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليه معتمدي واليه مرجعي في كثير من المواضيع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم أرَ بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوفٍ على أسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة . وأغرب من ذلك اني لم أر بين مدارس القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسة تعتني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في ذلك عدم وجود الكتب الموضوعة على أسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فأخذت على نفسي مع علمي بعجزي أن أبذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على أصح الروايات وأصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزماً في كل ذلك صحة النقل وانتقاء أصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عنيت اتماما لمعدات التأليف بتفقد الآثار العربية بنفسي باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديماً

كجامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها. وزرت ماهنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ماصعب مسلكه منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وأبوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت اخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع أو دير النصارى في مصر القديمة ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئاً من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وأنس الوجود وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فاتريب فغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً اتماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لديّ المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذا العصر . ثم رأيت ان الفائدة لا تتم الا اذا جعلت في مقدمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسوم والخارطات وايضاحات أخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهاك ملخص ما تضمنه :

١ فذلكة في تاريخ مصر القديم من اول عهدها الى الفتح الاسلامي

٢ تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذا العصر وهو مقسوم الى دول تحتها خلافات أو سلطنات او امارات مرتبة حسب أزمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبني امية فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

٣ وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناب العالي والمغفور له محمد علي

باشا والخديو السابق وبونابرت ورعمسيس الثاني وتحوتمس الثالث وامنوفيس الثالث وغيرهم . وبين هذه الرسوم أيضاً معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد وآلهة المصريين وخرائب المطرية وأنس الوجود وادفو وغيرها

٤ وفي ذيل الكتاب جدول عام لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفاء والسلاطين والباشوات من الفتح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم وبجانب ذلك عدد الصفحة التي ذكرت فيها تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء او ولاة يذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء أو السلاطين الذين تولوا البلاد باسمهم

٥ في خاتمة الكتاب فهرس أبجدي عام لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمة كالفتوحات والمحاربات والبنايات والتقلبات وأسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلا عن فهرس خاص لكل من جزئي الكتاب

٦ قد جعلت للكتاب فضلا عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي: اولا — خارطة مدينة القاهرة كما هي الآن . ثانياً خارطة مصر السفلى . ثالثاً خارطة مصر العليا . رابعاً خارطة القطر المصري قبل الفتح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثه جهد الطاقة مغفلا كثيراً من الروايات التي ترجح فسادها بعد النظر والتروي متحاشياً الالفاظ المستهجنة والتعبيرات المعقدة ما امكن متخذاً أفضل اسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة بغير اخلال ولا املال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليه بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانه وتعالى

يقال في الامثال « من الف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف » أما أنا فان أحسنت فان الفضل لافاضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آت بشيء من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدر لي ان أكون فيها شاهد عين وما تفقدته بنفسي من الآثار العربية والمصرية . وان أسأت فذلك

دأب العاجز . ولكني أرغب الى من يعثر لي على خطأ ان ينبهني عليه فأشكر سعيه وأثني عليه لاني استحي من الحق اذا عرفته ان لا ارجع اليه . أو يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا أقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما أعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم

هـذا وأرجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني أبناء هذا القطر السعيد قبولا واقبالا واتقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نفثات اقلامهم بما هو أوفر مادة وأجزل نفعاً . لاني أعلم ان بين ظهرانيهم رجالا لهم من العلم وسعة المعرفة ما يؤهلهم لما هو افضل من ذلك كثيراً . فتتم سعادة البلاد ونكون قد قمنا ببعض الواجب علينا نحوها

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ فلاقت اقبالا حسناً نشطنا على المثابرة في خدمة العلم . وما زلنا من ذلك الحين ونحن نزداد معرفة في احوال مصر وتتبع تاريخها . فلما عزمنا على اعادة الطبع اضفنا الى الطبعة الاولى زيادات هامة في مواده ورسومه فضلا عن زيادة التدقيق والتحري. وهاك مزيات هذه الطبعة

١ انها أقرب الى الدقة والتحقيق

٢ تحتوي على تاريخ بضع وعشرين سنة لم تدركها الطبعة الاولى

٣ قد توسعنا في أكثر المواد وخصوصاً في القسم الاخير وعلى الاخص في تاريخ الاسرة الخديوية وما جرى في أيامها من الحوادث العظام . كالتقلبات السياسية التي جرت في زمن محمد علي . وما أدخله هذا الرجل العظيم من الاصلاحات العلمية والاقتصادية والسياسية والتجارية . وفعلنا مثل ذلك في أزمنة خلفائه الى اليوم . ويدخل فيه علاقات مصر مع الدول على زمن اسماعيل باشا والحوادث العرابية والسودانية في زمن الخديو السابق وما كان من النهضة العلمية والمالية والسياسية في

زمن الخديو عباس الثاني . ويصح ان يقال أننا كتبنا تاريخ الدولة الخديوية ثانية ونظرنا فيه من الوجهة السياسية والعلمية والاقتصادية مع التوسع والتدقيق . فأصبح الكتاب أكبر حجما وأوسع مادة

٤ زيناه بنيف ومئتين من الرسوم والخرائط وبينها رسوم مشاهير مصر وغيرها في السياسة والعلم والاصلاح وصور أهم المواقع التي جرت فيها الحوادث بمصر والشام . وآلات الحرب والحصار وأشهر الآثار البنائية فضلاً عن النقود الاسلامية والآثار المصرية القديمة . ومن الخرائط خريطة مصر في زمن الفراعنة والوجه البحري اليوم ورسم القاهرة على اختلاف اعصرها وخرائط بغداد والخرطوم وام درمان وغيرها

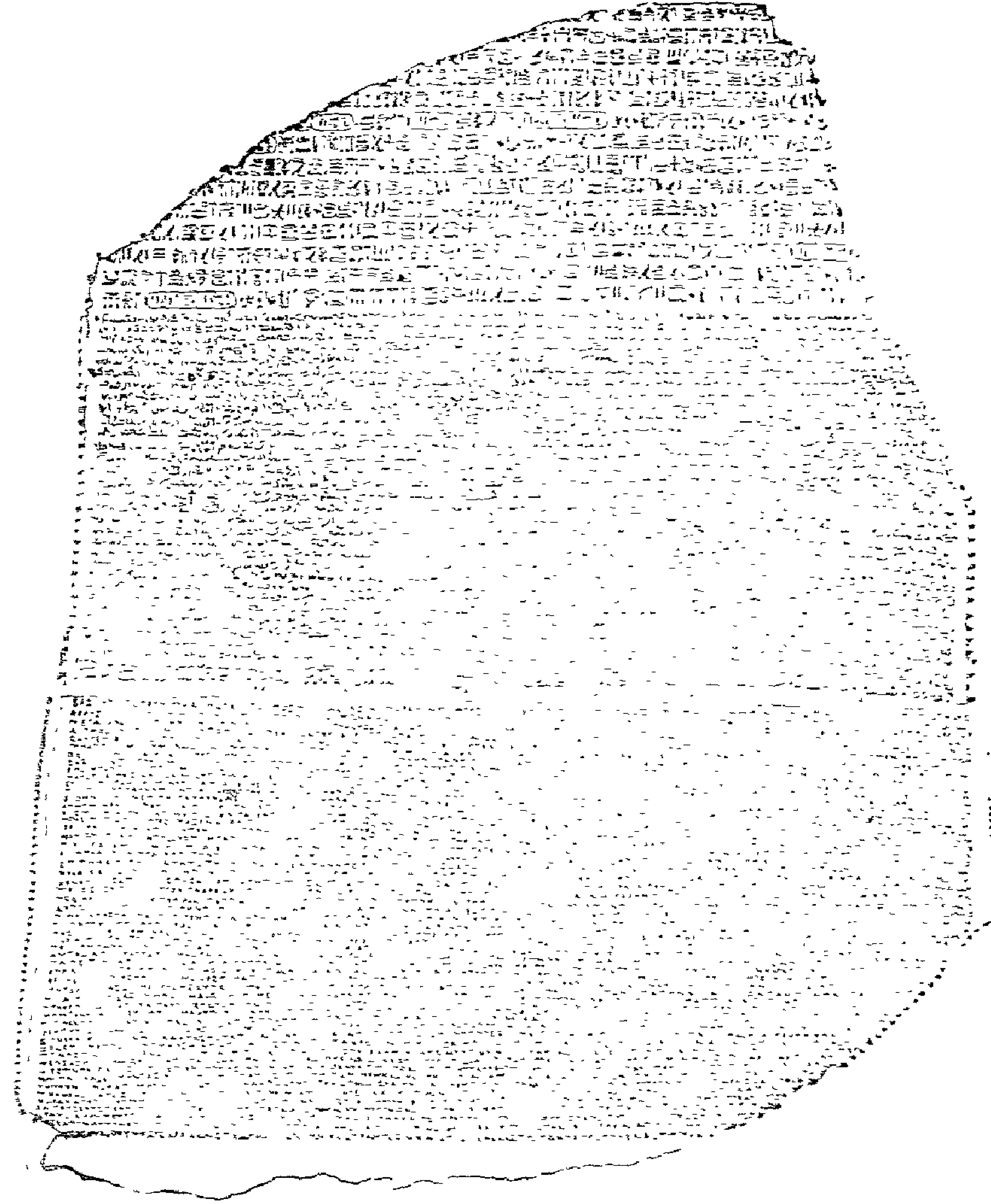
فنرجو أن تصادف خدمتنا قبولا والله حسبنا ونعم الوكيل

سنة ١٩١١

طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة سنة ١٩٢٥



كاتب مصري قديم



حجر رشيد

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد علم من مصادر مختلفة سيأتي ذكرها . ان اول حكومة اقيمت من هـذا النوع كانت في اول القرن الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة آلاف سنة على وجه التقريب

اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم بلغة مصر القديمة « حورشسو » وهم آخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها « مِنا » وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنه يبتدئ تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى تمدنهـا الى ثلاثة ادوار كبرى وهي :

١ الدور الجاهلي : يبتدئ عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق ﻫ او ٥٠٠٤ ق م . وينتهي سـنة ٢٤١ ق ﻫ او ٣٨١ ب م . وذلك عند ما نهى الامبراطور ثيودوسيوس عن عبادة النصب والتماثيل وامر باتباع الدين المسيحي

٢ الدور المسيحي : يبتدئ عند شيوع سنة ثيودوسيوس وينتهي عـند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب ﻫ او ٦٤٠ ب م

الدور الاسلامي : يبتدىء عند فتوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلط في اثنائها على مصر ٣٤ عائلة وهي :

١ الدولة الملكية القديمة : تبتدئ بتسلط العائلة الاولى وتنتهي بانتهاء العائلة العاشرة اي من (٥٦٢٦ ـ ٣٦٨٦ ق ﻫ) او (من ٥٠٠٤ ـ ٣٠٦٤ ق م) ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة

٢ الدولة الملكية الوسطى : تبتدئ بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة من (٣٦٨٦ ـ ٢٣٢٥ ق ﻫ) او (من ٣٣٢ ـ ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة

٣ الدولة الملكية الاخـيرة : تبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاء

العائلة الحادية والثلاثين (من ٢٣٢٥ ـ ٩٥٤ ق ﻫ) او (من ١٧٠٣ـ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

٤ الدولة اليونانية : تبتدئ بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ ـ ٦٥٢ ق ﻫ) او (من ٣٣٢ ـ ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

٥ الدولة الرومانية : ويسميها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ ـ ٢٤١ ق ﻫ) او (من ٣٠ ق م ـ ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق ﻫ ـ ١٨ ب ﻫ) او (من ٣٨١ ـ ٦٤٠ ب م) ومدته ٢٦٠ سنة

أقسام الدور الاسلامي

يقسم الدور الاسلامي الى اثنتي عشرة دولة وهي :

١ دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ ـ ٤١ ب ﻫ) او (من ٦٤٠ ـ ٦٦١ ب م)

٢ الدولة الاموية (من ٤١ ـ ١٣٢ ب ﻫ) او (من ٦٦١ ـ ٧٥٠ ب م)

٣ الدولة العباسية المرة الاولى (من ١٣٢ ـ ٢٥٧ ب ﻫ) او (من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ ب م)

٤ الدولة الطولونية (من ٢٥٧ ـ ٢٩٢ ب ﻫ) او (من ٨٧٠ ـ ٩٠٥ ب م)

٥ الدولة العباسية المرة الثانية (من ٢٩٢ ـ ٣٢٣ ب ﻫ) او (من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ ب م)

٦ الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ ـ ٣٥٨ ب ﻫ) او (من ٩٣٤ ـ ٩٦٩ ب م)

٧ الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ ـ ٥٦٧ ب ﻫ) او (من ٩٦٩ ـ ١١٧١ ب م)

٨ الدولة الايوبية (من ٥٦٧ ـ ٦٤٨ ب ﻫ) او (من ١١٧١ ـ ١٢٥٠ ب م)

٩ دولة المماليك الاولى (من ٦٤٨ ـ ٧٨٤ ب ﻫ) او (من ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ ب م)

١٠ دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ ـ ٩٢٣ ب ﻫ) او (١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ب م)

١١ الدولة العثمانية (من ٩٢٣ ـ ١٢١٦ ب ﻫ) او (من ١٥١٧ ـ ١٨٠١ ب م)
١٢ الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ ب ﻫ ـ او ١٨٠١ ب م) ولا تزال

ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث . اما القديم فمن اول تاريخها الى الفتح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي . والحديث منذ الفتح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوباً عنا حتى اتيح لابناء القرن الماضي حل رموز الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخلُ من بعض التلميح الى ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضده وما زال ذلك شأن تاريخ مصر القديم الى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر تاريخ مصر القديم :

١ نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحالة المؤرخ اليوناني هو اقدم من كتب عن مصر ما يصحّ ان يسمى نصاً تاريخياً وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل الميلاد

وبعد هيرودوتس ظهر سبانيتوس احد كهنة المصريين العظماء في القرن الثالث قبل المسيح وكتب تاريخاً نفيساً عن مصر لكنه فقد ولم يصلنا منه الا بعض ما ذكره يوسيفوس في آثار الاسرائليين وما كتبه سنسلوس احد كتبة القرن الثامن . ثم جاء ثيودوروس من صقلية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي . واما قائمة اسماء الملوك لمانيثون فقد وجدت بين ما كتبه بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انه لم يكتب عن مصر شيء جدير ان يدعى نصاً تاريخياً الا منذ القرن الخامس قبل المسيح

٢ الآثار

واعلم ان ما كتبه اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئاً صريحاً عما وراء القرن السابع قبل المسيح . اما الآثار ـ تلك الاطلال البالية التي نراها ميتة لا حراك بها وقد

بقيت رغم تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها فتخبرنا عن تاريخهم وتوضح امامنا ايضاً عاداتهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلو الهمة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها كتاباً مزيناً بالرسوم والاشكال لا تحرقه النار ولا يخرقه الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلات الشامخة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صماء وقد افهم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلقت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القوية العماد تبقى معها في عالم الخلود تقص على القادمين اقاصيص الاقدمين . وجميع هذه تعدّ من وثيق المصادر التاريخية

الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكترثوا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المفتتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنساوية في اوائل القرن الماضي اذ أتيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده جماعة اعتنوا بحلها فأتوا على فهمها جيداً بحيث امكنهم قراءة ما كتب بها على البردي (البابيروس) والاحجار فخدموا التاريخ خدمة تستحق الاعتبار . وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم نابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجاله سنة ١٧٩٩ بالقرب من ثغر رشيد حجراً اسود غير منتظم الشكل الا سطحاً منه كان مستوياً املس في اعلاه كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة اخرى بالقلم العامي او الديموطيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية القديمة فأهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنساوي في القاهرة ولما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر ثم اهدي الى المتحف البريطاني في لندرا ولا يزال هناك . وقد شاهدناه في ذلك المتحف سنة ١٨٨٧ في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاؤه من زجاج اما طول ذلك الحجر فثلاث اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخمسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورته وفرقتها في جمهور العلماء لينظروا في قراءتها فقرأوا أولا الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها

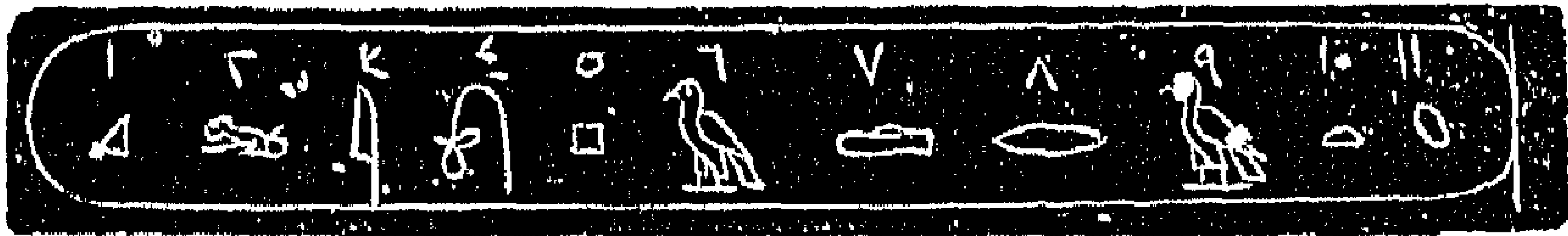
الملك بطليموس ابيفانيس سنة ١٩٤ ق م . يشكرونه لما أسبغه عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هيا كل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنساوي ده ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموطيقية وغاية ما وصلوا اليها انهم عينوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية . ثم عين العلامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي . أما الهيروغليف فلم يطمع أحد منهم في حله الى ذلك الحين

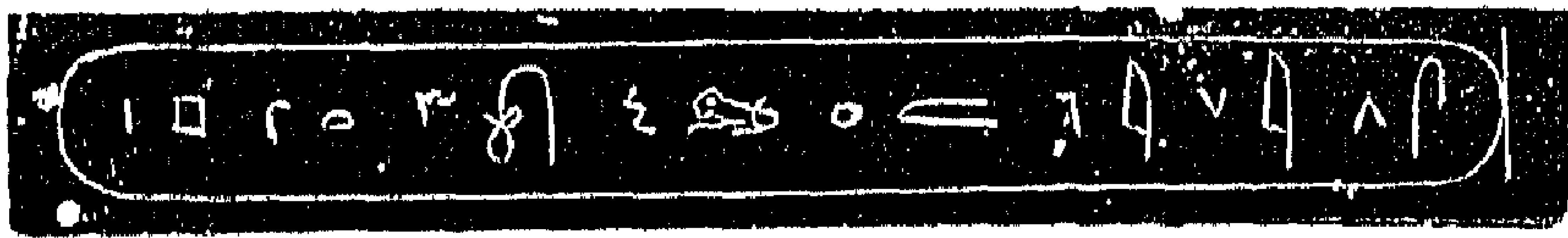
وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبيليون الفرنساوي في حل هذه الكتابة بعد أن درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبه المتقدمون عن مصر والمصريين . وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلة مصرية عليها كتابة يونانية وأرسل صورة الكتابة الى أوربا. فلما رآها شمبيليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . ثم رأى في الكتابة اليونانية أعلاماً واسماء الاعلام لا تترجم فتوسم في ذلك سبيلاً الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية . ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليلجي وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً كثيرة فاستنتج من ذلك ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيداً عندما رأى ذلك الاسم وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تماماً وبناءً على ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي تقابل الحرف الاول من بطليموس أي الباء والثانية تقابل الحرف الثاني أي الطاء وهلم جرّا . ووجد أيضاً في الكتابة اليونانية اسم كليوبيطرا ويقابله في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليلجي . فقال شمبيليون بنفسه اذا كانت الاولى بطليموس فتكون هذه كليوبيطرا وأخذ بالمقابلة مستعيناً باللغة القبطية لانها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامه الشكلين اللذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبيطرا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرهما فاذا بها متماثلة تماماً في الشكلين بمواقعها في الاسمين وترى في الشكل الاول والثاني صورتي اسم كليوبيطرا وبطليموس في القلم الهيروغليفي

فالحرف الاول من اسم كليوبيطرا صورة ركبة . واسم الركبة في اللغة القبطية

يبتدئ بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة أسد . واسم الاسدة يبتدئ في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوبيطرا صورة قصبة . وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف أو الياء . واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدئ بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة نسر . واسم النسر في القبطية يبتدئ بالالف فهو حرف الالف. والسابع صورة يدواسم اليد في القبطية يبتدئ بحرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يبتدىء بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكره. والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء .



ش ١ — كليوبيطرا



ش ٢ — بطليموس

والحادي عشر لا حرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبيطرا . فالاول هو الميم والثاني هو السين. وعلى هذه الصورة تمكن شمبيليون من معرفة كثير من حروف الهجاء وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في تسع سنوات كلها بحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنه ما هو مقاطع او كلمات

هذا من قبيل حل الالفاظ. اما المعاني فعرفت بالمقابلة باللغة القبطية نحو الالف وببعض ماكان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فذلكة تاريخ مصر القديم كتاب العقد الثمين لاحمد بك كمال ومصر لمري وعادات المصريين لويلكنس وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في ايام الدول المصرية القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او « ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحام ونسله . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصرايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فنظنه مشتقاً من قولهم « صرّ » في العبرانيـة ومعناها الشدة والضيق « ومِصَر » اسم مكان من صرّ اي مكان الشدة . ولعلها اشارة الى ما قاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم اولا احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات اوربا الحديثة « ايجبت »

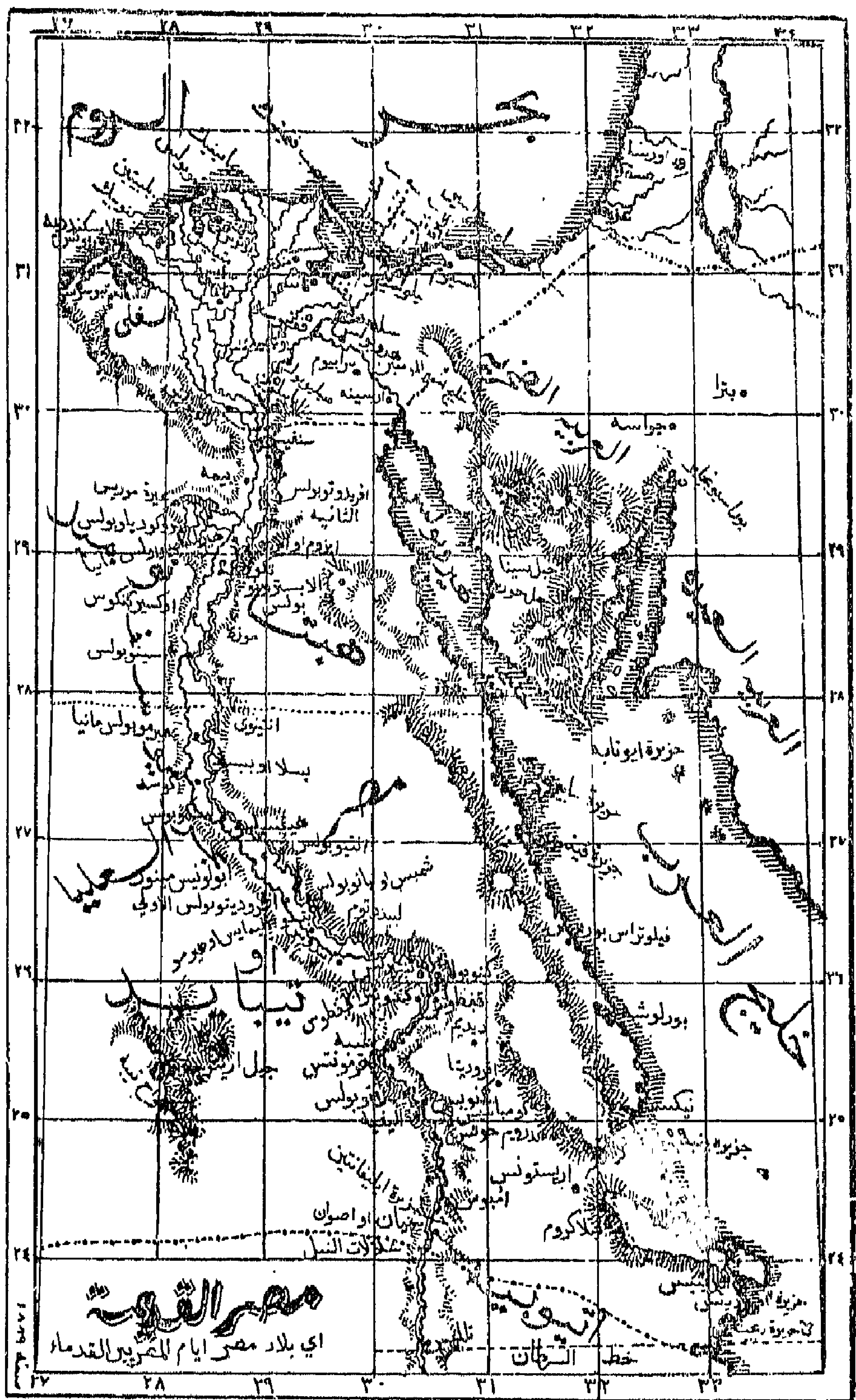
ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى ارض الشمال او الوجه البحري والاخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتداً من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الذلتا » لمشابهته بحرف الذال △ عندهم . اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوه اليوم بأرض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرين » اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم الى اقسام دعاها اليونان « نومس » اي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عداً باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودورس انها ٣٦ والمعول عليه انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و ٢٢ في القبلي ولكل منها عاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدولا يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

مقاطعات الوجـــــه القبلي

عواصمهـــــا

اسماء المقاطعات باليونانية	بالمصرية القديمة	باليونانية	بالعربية
١ اوبيتس	ابو	امبوس	كوم امبو
٢ ابولينوبوليتس	تب	ابولينوبولس مانيا	ادفو
٣ لانوبوليتس	نخب	لانوبولس (ايليثيا)	اسنا « السكب »
٤ هرمونثيتس	هرمونت	هرمونتس	ارمنت
٥ باثيريتس			القرنة
٦ ديوسبولتس	نوامن	ديوسبولس مانيا	الكرنك والاقصر
٧ كوبتيتس	كوبتي	كوبتوس	قفط
٨ تنتيريتس	تنتير	تنتيرا	دندره
٩ ديوسبوليتس	ها	ديوسبولس بارفا	هو
١٠ ثينيتس	ابدو	ثيس · ابيدوس	البرية . العرابة المدفونة
١١ بانوبوليتس	ابو	بانوبولس	اخميم
١٢ افروديتوبوليتس	تبو	افروديتوبولس	العطف
١٣ انتوبوليتس	نيانتباك	انتيوبولس	قاو الكبير
١٤ هبسيليتس	شاسحوتب	هيبسليس	شدب
١٥ ليكوبوليتس	سوت	ميكوبولس	اسيوط
١٦ انتينويتس		انتينوبولس	الشيخ عباده
١٧ هرموبوليتس	خمونو	هرموبولس مانيا	اشمونين
١٨ سينوبوليتس	كوسا	سينو بولس	القيس
١٩ اوكسيرينخيتس	بياسا	اوكسيرنخيس	بهنسا
٢٠ هيراكليو بوليتس	خيننسو	هيراكليو بولس	اهناس المدينة
٢١ ارسينويتس		كروكوديلوبولس	مدينة الفيوم
٢٢ افروديتوبوليتس	تيباه	افروديتوبولس	عطفية



خريطة مصر في ايام الفراعنة

مقاطعات الوجـــــــــــــــه البحري

عواصمهـــــــــــــــا

اسماء المقاطعات باليونانية	بالمصرية القديمة	باليونانية	بالعربية
١ ممفيتس	منوفر	ممفيس	ميت رهينة
٢ ليتوبوليتس	سوخم	ليتوبولس	
٣ ليبيا	نيانهابي	ابيس	
٤ سايتس	زوكا	كانوبوس	
٥ سايتشس	صا	سايس	صا الحجر
٦ خويتس	خسون	خويس	سخا
٧ متليتس	سونتينوفر	متليس	فوه
٨ سيترويتس	ثوكوت	سيتروي	
٩ بوسيريتس	بيوسير	بوسيرس	بوصير
١٠ أتريبيتس	حاتا حيراب	اتريبس	تل اتريب . بنها العسل
١١ كاباسيتس	كاهبيس	كاباسا	كوم شباس
١٢ سبنيتس	ثينوتر	سبنيتوس	سمنود
١٣ هيليوبوليتس	انو	اون . هيليوبولس	المطرية
١٥ تانيتس	زوان	تانس	صان
١٥ هرموبوليتس	بيثوت	هرموبولس بارفا	دمنهور
١٦ منديسيوس	بيبينبداد	مندس	اشمون
١٧ ديوسوليتس	بيخون ان امن	ديوسبولس	
١٨ بوباستيتس	بيباست	بوباستس	تل بسطة (زقازيق)
١٩ بثينستس	بيوتو	بوتو	
٢٠ فاربثيتس	كوسم	فاربيثوس	هربت

ويظهر أن هذين القسمين الكبيرين جعلا بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى أيضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبلية الى ديروط . والوسطى يدعوها اليونان « هبتانومس » أي ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط الى رأس الدلتا . والسفلى تمتد من رأس الدلتا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان الى اربعة أقاليم كبيرة تحت كل منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في أيام اركاديوس بن ثيودوسيوس الاعظم « اوكاديا » نسبة اليه . وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين أو اقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم أو ما يجاورها . وتكاثر عدد المقاطعات في آخر أيام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعة منها ٣٤ في الدلتا فقط

ثم أن بين ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . أما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين أن المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي أقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع أسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وأن هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات اله حقيقي غير منظور ولكن الزمان أرخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فأصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على أن الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

أما آلهتهم فعديدة وأسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى إلهين أصل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظيم و « رع » في طيبة (الاقصر) وهو الشمس . وهذان الإلهان هما أقدم آلهة المصريين ويرجعان الى أولهما لانهم يعتبرون الشمس تمثالا للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم

انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم فأقاموا في كل مدينة تمثالا لأحد هذين الالهين أو لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتعددت الاشباه ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر ومن جملة دواعي تعدد الالهة أنهم كانوا يجعلون للشمس مثلا اسماء تختلف باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هرمخيس » عند شروقها وأقاموا لها أبا الهول تمثالا . و « رع » عندما تكون في خط الهاجرة . و « توم » عند الغروب . و « اوزيريس » عند الظلام أي عندما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه الحالات تمثالا مخصوصاً . وقس على ذلك ما بقي من الالهة الكثيرة التي أقاموا منها محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

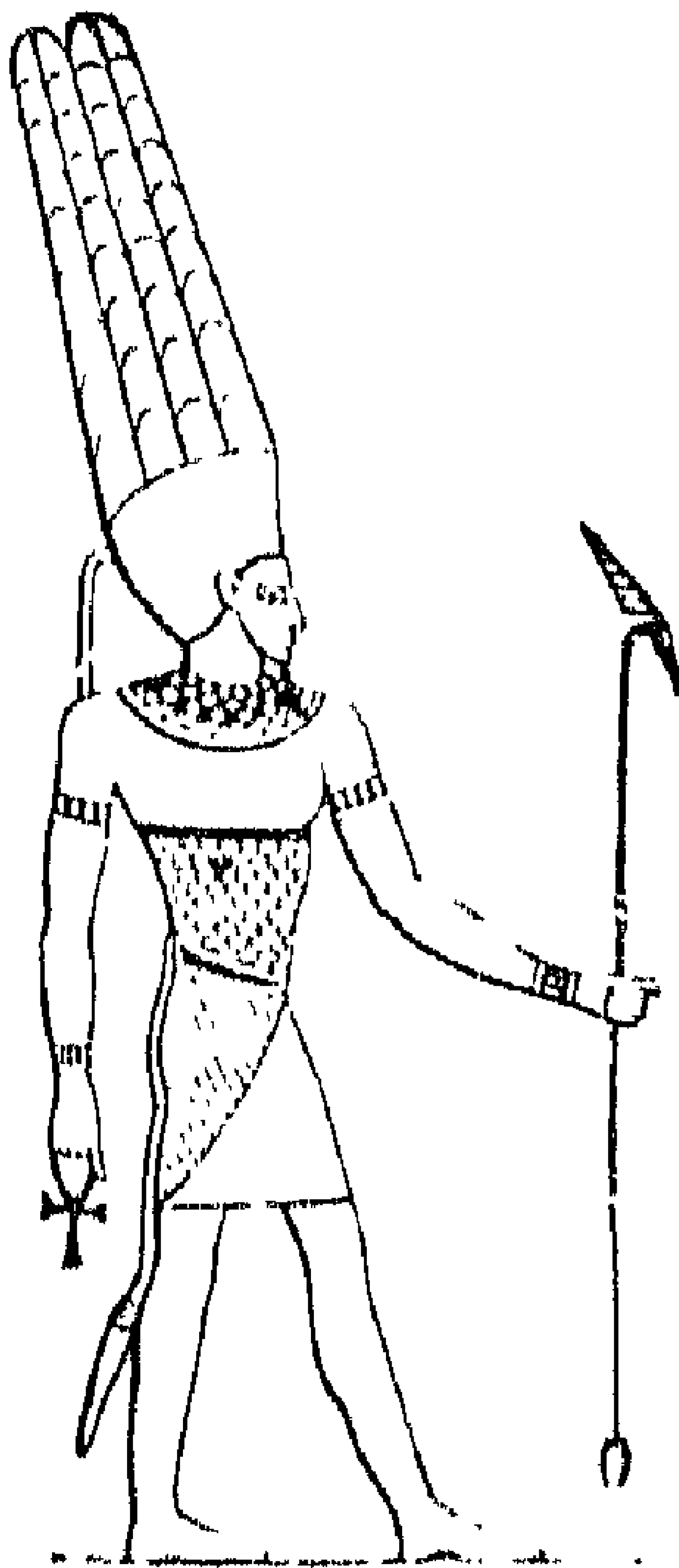
وفي أثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد. منها مثلث مؤلف من الالهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بمثلث منف والمتأمل في صورها يرى أن الاول أشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي

وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنو وست ونوت وأوزيريس وازيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها أخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيما يلي اسماء أهم الآلهة المصرية مع ذكر مميزات كل منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الاثار المصرية أن يميز أحدها من الاخر وتسهيلا لفهم تلك المميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولا : ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً : ذوات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما أن تكون رؤوس ذكور أو اناث . والرؤوس الحيوانية اما أن تكون رؤوس طيور أو حيوانات أخرى

فالالهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي :

١ « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة (مومية) وفي يديه صولجان وليس على رأسه شيء يمتاز به



ش ٣ — أمن رع

٢ « أمن » أو « رع » على هيئة رجل منتصب وعلى رأسه قبعة مبلطحة

تنتهي بريشتين غليظتين مستطيلتين بيده الواحدة مفتاح وبالاخرى عصاً كما ترى في الشكل الثالث وقد يكون على شكل جثة محنطة جالساً على كرسي وعلى رأسه القبعة المتقدم ذكرها وفي يده نمشة وعقاقة وصولجان . ويدعى في هـذه الحالة « امن اوزيريس » (ش ٥)


ش ٤ — ايزيس

٣ « هوروس » صبي على رأسه تاج مزدوج يراد به تاجا الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيه وفي يده اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس طير كما سيجيء

٤ « خم » جثـة محنطة ويده اليمنى مرفوعـة وحاملة زاوية كبيرة

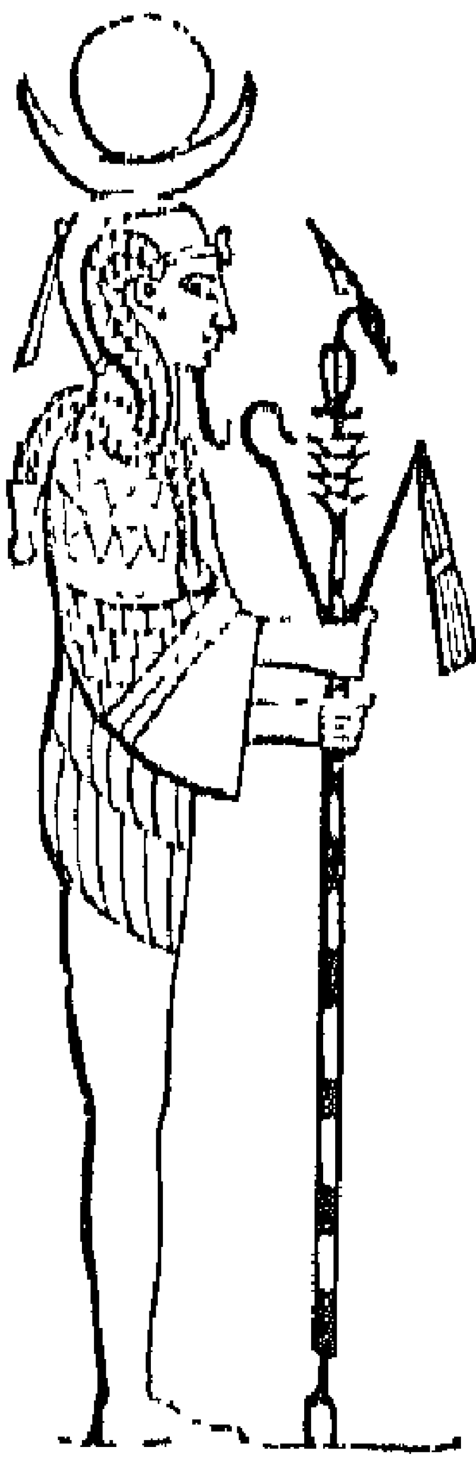
٥ « اوزيريس » جثة محنطة على رأسه تاج مصر العليا بريشتي نعام وأحياناً بغير ريش . وفي يده النمشة والعقافة وأحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على رأسه هلال فيه قرص الشمس كما ترى في الشكل الخامس

٦ « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسه

٧ « توم » على رأسه شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق أو بريشة . وقد يكون على رأسه تاجا مصر العليا والسفلى

اما الالهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية فهي :

١ « ايزيس » على رأسها طاقية تشبه النسر فوقها تاجا مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالاخرى صولجان كما ترى في الشكل الرابع وقد يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر


ش ٥ ـ اوزيريس

٢ « ما » آلهة الصدق على رأسها ريشة واحدة منتصبة وعلى عينيها غالباً غطاء يشبه العوينات

٣ « موت » (ام الجميع) على رأسها طاقية بشكل النسر وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها رأس نسري

٤ « نيث » على رأسها احياناً مكوك واحياناً تاجا مصر العليا والسفلى
٥ « نفثيس » على رأسها الطاقية النسرية وفوقها ما يشبه البرج

والالهة برؤوس الطيور هي :

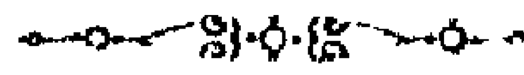
١ « هوروس » قد تقدم ذكره بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس حيواني كرأس الصقر وفوقه التاجان
٢ « خونس » (الشمس المشرقة) رأسه كرأس الصقر فوقه هلال فيه قرص الشمس
٣ « رع » (شمس الهاجرة) رأسه كرأس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
٤ « توت » (اله القلم) رأسه كرأس اللقلق عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى :

١ « بشت » (حبيبة فتاح) تمتاز برأس الهر واحياناً برأس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
٢ « عتور » تمتاز برأس كرأس البقرة بين قرنيها دائرة البدر
٣ « كنوم » او « كنف » تمتاز برأس كبش عليه اكاليل وتيجان
٤ « انوبيس » تمتاز برأس كرأس ابن آوى

وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حباً بالاختصار

فذلكة
في تاريخ مصر القديم



لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين اباً عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك « منا » فاذا هو اول من حكم ونظم . ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبله فرضوا ثلاث عائلات وهمية زعموا انها تسلطت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها « منا » ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة . والثانية دعوها الشبيهة بالمقدسة . والثالثة الكهنة « الحورشسو » ويزعمون انهم اجدادهم

ونقتصر في ما يلي على خلاصة تاريخ مصر القديم ونبدأ بالملك منّا . ونجري في تبويبه على مقتضى التقسيم المتقدم ذكره فنبدأ بالدور الجاهلي فالمسيحي ونقسم كلاً منهما الى عائلات كما ستراه

الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ ـ ٥٣٧٣ ق ه او من ٤٠٠٤ ـ ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩

اول ملوكها الملك « مِنـا » او « مِينس » ـ وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة « الحورشسو » نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فثار في خاطره أمر الاستقلال بالملك فقاومه الكهنة فتغلب عليهم فترك وطنه وأسس مدينة « منف » (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكه وأنشأ حولها جسراً يعرف الآن بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا . فعمرت منف وأخصبت فشاد فيها الهياكل والمعابد واقام تماثيل الآلهة . فاذا زرت خرائب سقارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقىً في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بناه هذا الملك لمعبوده « فتاح » وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان . ومما يذكر عنه انه فتح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامه وكان رفيقاً برعاياه على ما اعتادوه ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم . على انه لم ينج من ايقاعهم به فزعموا انه اضرّ بالعبادة من حيث تقاعد الناس في ايامه عن الزهد وأحدثوا انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم وهم مضطجعون على اسرّتهم

وقام بعد « منا » اخوه « تتا » فأسس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بالطب ولا سيما التشريح فكتب فيه رسالة جددت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني

ومن ملوك هذه العائلة « ونيفس » حصلت في ايامه مجاعة وهو الذي بنى هرم « كوكمه » بقرب الهرم المدرج في سقارة لدفن ما كانوا يعبدونه من الثيران

في عصره فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بني من الاهرام في مصر ولم يبق من العائلة الاولى من يستحق الذكر

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٣٧٣ ـ ٥٠٧١ ق ه او من ٤٧٥١ ـ ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩

نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة

من ملوكها «كايه خوس» اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور «أبيس» في منف والثور «منيفس» في مدينة الشمس (المطرية). وقام بعده «بينوتريس» فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور. وزعم ان الملك نائب الآلهة في الاحكام وادّعى ان بينه وبين الآلهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدّعون مثل دعواه الى عهد اليونان

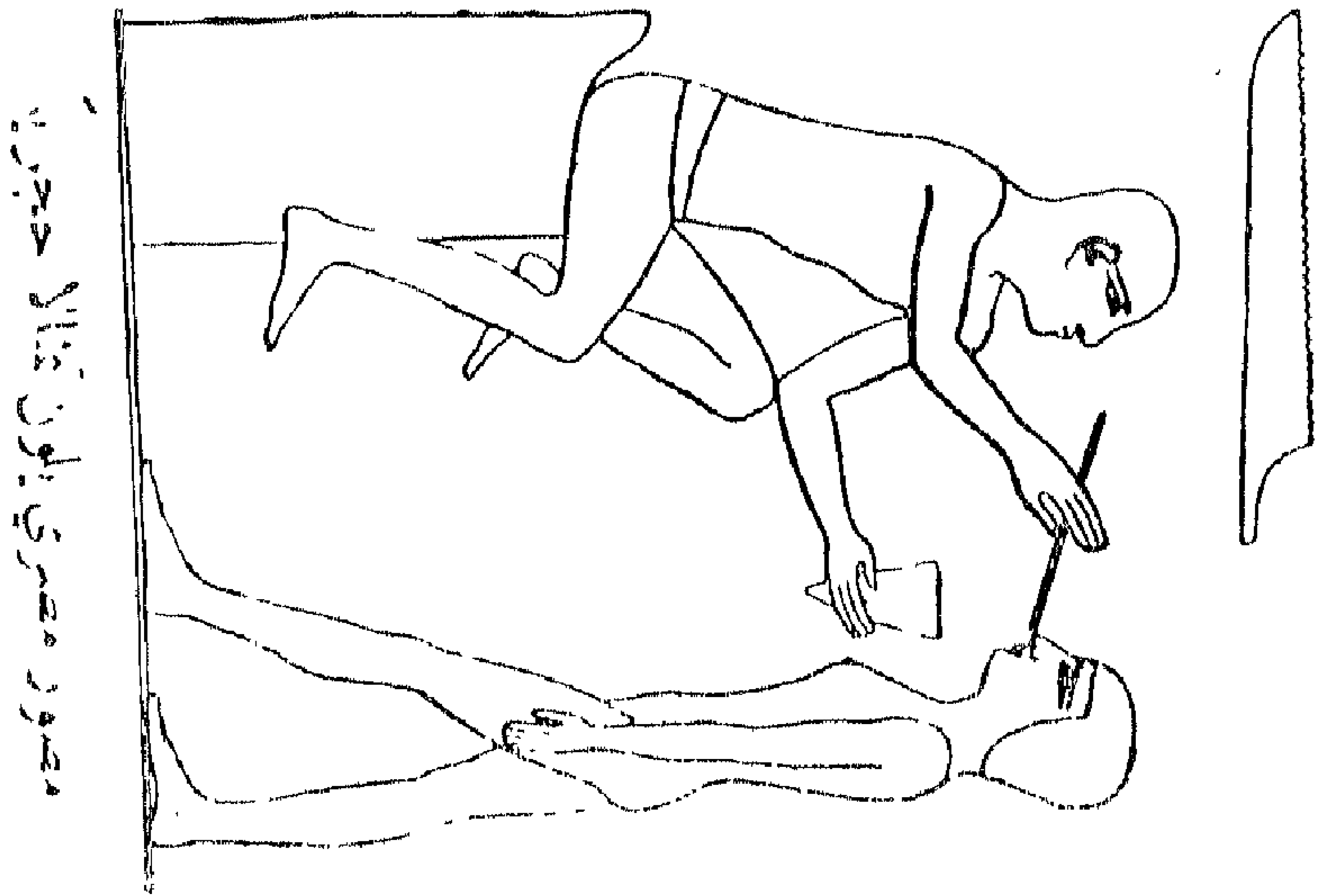
ومن ملوكها «استنس» كان عالماً وطبيباً فاتمّ الرسالة الطبية المتقدم ذكرها. واعلم ان الملك «منا» لم يقوَ في حياته على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمه ولا ان يجعل مصر امة واحدة. اما العائلة الثانية فلم تنتهِ حتى جعلت ذلك امراً مفعولاً

العائلة الثالثة المنفية

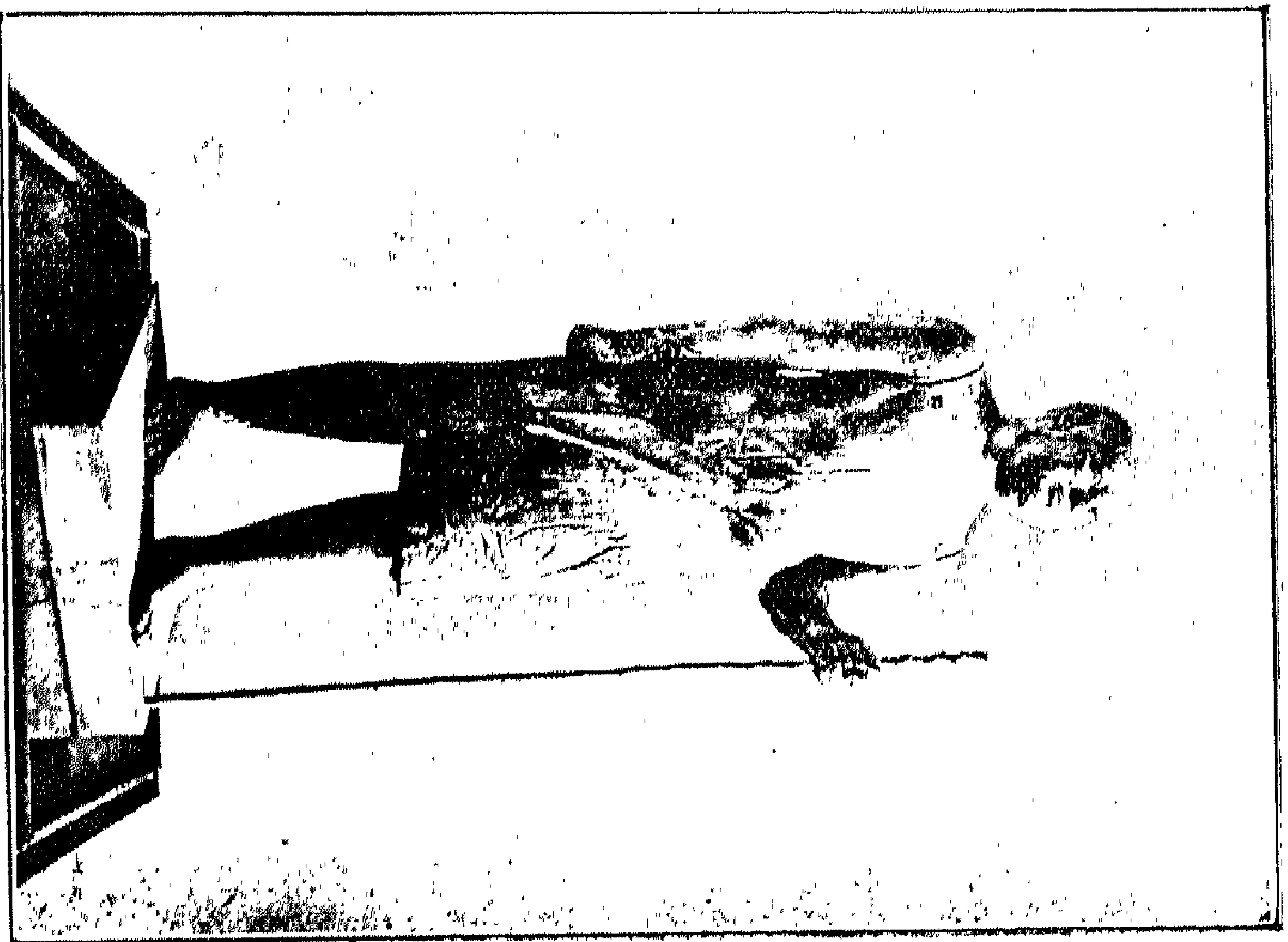
حكمت من ٥٠٧١ ـ ٤٨٥٧ ق ه او من ٤٤٤٩ ـ ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

كانت طينة قبل ظهور الملك «منا» مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة. فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجاً اليها وما زالت تنحط شيئاً فشيئاً حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فاوّل ملوكها «نخروفس» وفي اول حكمه تمردت ليبيا وشقت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فأبت فأدى به الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين رأوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد نخيل لهم ان ذلك من غضب الآلهة على اعمالهم فألقوا السلاح وسلموا. وقام بعده الملك «توسرترس» وكان عالماً بالطب فوضع فيه كتباً تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي



مصور مصري يلون تمثالا ٢٧٠٠ ق.م



شيخ البلد

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها وأُقيمت فيها النصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمه القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة ويسمى بلغتهم « خورميخي » اي شمس الافقين جعلوا جسمه جسم اسد ورأسه رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعقل واشباه هذا التمثال كثيرة في الآثار المصرية بين ما حجمه هائل الكبر كابي الهول الذي يبلغ طوله ٢٠ متراً تقريباً وعرضه اربعة امتار وما لا يزيد عن حب المرجان حجماً كانوا يصنعونه من العقيق حلية للعقود . ومن آثارهم ايضاً الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبني من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضاً آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة أيضاً « سنفرو » عمدتُ الى ذكره لما عرف به من العدل والبر وما اوتي من العزم والقدرة على الفتوح فقهر أهل جبل الطور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصوناً ومعاقل واحتفر آباراً جعل فيها رجالاً يستخرجون معادنهم ونقش رسمه على حجر في وادي مغارة . ويقال انه لما عاد الى مصر ابتنى لنفسه هرماً لم يعلم مقره الى الآن

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من ٤١٥٧ ـ ٤٥٧٣ ق ه او من ٤٢٣٥ ـ ٣٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤

أعظم ملوك هـذه العائلة واحقها بالذكر الملك « خوفو » كان بناءً ماهراً ومحارباً باسلاً فبنى أعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان الذين اشتغلوا في بنائه مائة الف رجل في ثلاثين سنة كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى له جسراً موصلاً بينه وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدماً وبعض القدم وعرضه ٧٤٦ قدماً وهو من جملة عجائب الدنيا يقصده السياح والمتفرجون الى هذا العهد

ونحت « خوفو » عدة تماثيل للآلهة ورمم بعض الهياكل وقال بعضهم انه كان عاتياً يبخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم لانه ابتنى هرمه على نفقة الفعلة المساكين على انه لم يكن على شيء من ذلك وربما بنى المعنفون قولهم على انه كان يستخدم الاسرى مجاناً وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد

ومن ملوك هـذه العائلة « خفرع » وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم « خوفو » وسماه « أُر » اي العظيم ارتفاعه ٤٤٧ قدماً وعرض قاعدته ٦٩٠ قدماً وبعض القدم . ولم ينج هذا من ألسنة القاذفين فقد كان وسلفه « خوفو » مضغة في أفواه المرجفين وقد بلغت قحتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيهما ورموا بالجثتين الارض اهانة واحتقاراً . وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « منكورع » بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه «حور» اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حظ هـذا الملك من الشعب غير حظ سالفيه لانهم بالغوا في مدحه كثيراً . ويقال انه ارسل ابنه ليطوف في الهياكل المصرية ويرمم ما كان منها في احتياج الى الترميم

وكان « منكورع » عالماً عاملا في الدين والادب وقد وجدت جثته محنطة في تابوت من الصوان في هرمه المتقدم ذكره فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبق الا الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجميز

ومن ملوكها ايضاً « سبسكاف » ويسميه مانيثون » سبرخرس » وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بمنف وهو اعظم ايوان فيه وكان محباً للعلوم فقيهاً . ويقال انه ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانوناً للقرض من مقتضاه انه يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيه على مبلغ يستدينه وللدائن الحق في استخدام المدفن حتى يفيه الفلس الاخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٣ - ٤٣٢٥ ق ه او من ٣٩٥١ - ٣٧٠٣ ق م وعدد ملوكها ٩

منهم « سحورع » او « سفرس » بنى هرماً شمالي قرية ابي صير وله في وادي مغارة لوح لا يزال هناك محفورة عليه صورته منصوراً على اعدائه . وبعد وفاته عبده المصريون زمناً طويلا

ومن ملوكها « نفرار كارع » او « نفرخرس » اتسع نطاق العلم في أيامه وعمرت البلاد وقد بنى هرماً لا يعرف مقره

ومن ملوكها « اعنوسر » وهو اول من أضاف الى اسمه لقب عائلته « آن » فصار « عنوسرآن » غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورته على حجر هناك وبنى هرماً في ابي صير ودفن فيه بعد موته . وكان في عصر هذا الملك رجل يدعى « تي » بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببربة « ابيس » يقصدها المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولته وله رسم محفوظ في المتحف المصري

ومن ملوكها « ددكارع » اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرماً لم يعلم مكانه ولرجال دولته عدة مقابر في سقارة

ومن ملوكها « اوناس » او « انوس » بنى هرماً في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ترى حوله كثيراً من الرمال والحصى قد تراكمت هناك عندما حاولوا فتحه سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائه الخارجي . وكان عرض قاعدته ٢٢٠ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقه من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدماً . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيه الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعه الايمن وساقه وقطعاً من اكفانه

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٣٢٥ ـ ٤١٢٢ ق ه او من ٣٧٠٣ ـ ٣٥٠٠ ق م وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة « مريرع » اتخذ جزيرة اصوان سريراً لمملكته التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف تنحط . وكان له وزير اشتهر بالدراية والحكمة فعهد اليه بنظارة الاشغال فقام باعبائها حق القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجر في متحف بولاق منقوش عليه ما يفهم منه شيء من سيرته . ومن اعمال « مريرع » انه فتح طريقاً تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى وأصلح معبد دندره وفتح بلاد

الشام واستولى عليها كل ذلك مدون نقشاً على حجر وزيره المتقدم ذكره . وخضعت له النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة

ومن ملوكها « مرنرع » الاول ابن المتقدم ذكره ويسمى « سوكرمساف » وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمة ودراية وزيره الذي كان وزيراً لأبيه قبله

ومن ملوكها ايضاً الملكة « نيتوقريس » كذا دعاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذته بعلاً فقتله بعض رجال دولته قبل توليتها الملك . فلما تولت اخذت تسعى في طلب الثار فاصطنعت سرداباً تحت الارض يصل بين النيل ومحل أعدته لوليمة دعت اليها نفراً من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالوليمة فتحت باب السرداب من جهة النيل فسار الماء فيه الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . اما هي فاسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت

وفي ايام هذه العائلة أُتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة

العائلات السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشرة الاهناسيتان

حكمت من ٤١٢٢ ـ ٣٦٨٦ ق هـ او من ٣٥٠٠ ـ ٣٠٦٤ ق م

لم يعلم ما الداعي لطموس اخبار هـذه العائلات على انه قد علم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والاخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيء من آثارهم الا انها على كل شيء لا تستحق الذكر

الدولة الملكية الوسطى

العائلتان الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتان سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ ـ ٣٤٧٣ ق هـ أو من ٣٠٦٤ ـ ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٢٤

أول ملوك العائلة الحادية عشرة « انتف عا » لم يكن من ذوي العصبية الملكية انما كان من عمال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهوباً لسطوته وعلو همته . بنى هرماً من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجا بمديرية قنا. وجعل في وسطه ضريحاً متقناً دفنت فيه جثته في تابوت غطاؤه مطليٌّ بالذهب استخرجه اهل تلك الناحية وذهبوا به . فلما توفي قام ابنه « منتوحتب » فجعل نفسه من مصاف الملوك وليس له من الآثار ما يذكر به

ومن هذه العائلة ايضاً « انتف الرابع » تمكن بحكمته وبطشه من الاستيلاء على الوجه القبلي رغماً عن ملوك اهناس واستقل بالحكم عليه وعلى آسيا الشمالية . وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا مثبت لقوله . ومن مآثره انه جدد بنايات رفيعة العماد في جهة قفط استعملت انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . ولما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من آثاره مسلة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بنخررع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاتلهم حتى استقل بالملك جميعه . فكل من قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكا مستقلين

وتولى بعده « سنخ كارع » ومن عظيم اعماله انه انفذ « حنو » أحد رجاله فاتمَّ الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مريرع المتقدم ذكره جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتم بها التواصل مع بلاد العرب والهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجنحة يلونونها بالوان مختلفة زعماً منهم ان احدى معبوداتهم « ايزيس » كانت ترفُّ

على أخيها « اوزيريس » ناشرة جناحيها حنوًّا ومعظم آثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوباً

اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبلها منقسمة غالباً الى حكومات متعددة في وقت واحد أما في أيامهم فانضمت جميعها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة

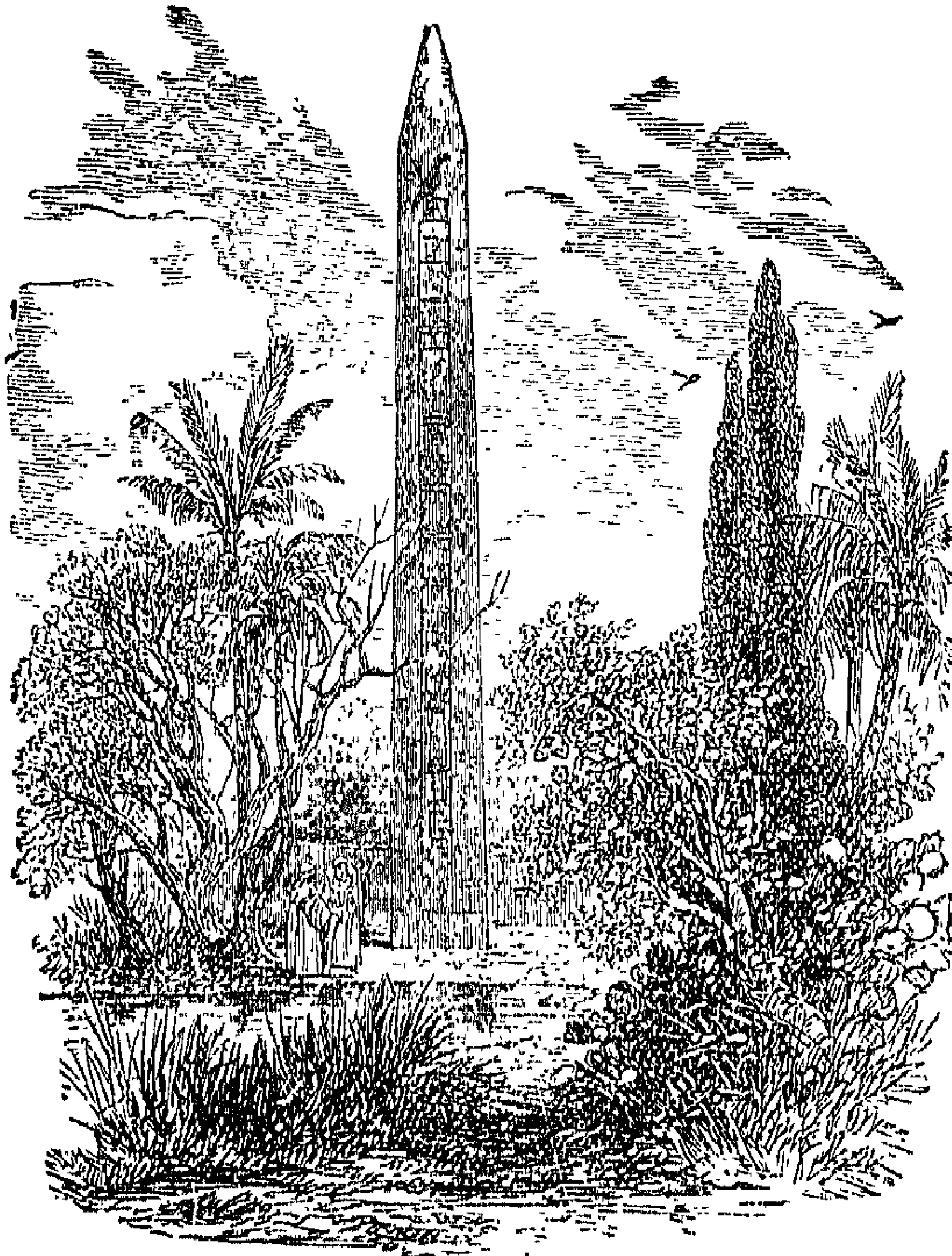
أول ملوك هذه العائلة « امنمحعت الاول » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث ويسميه مانيثون « امنميس » فلما استتب له الملك قاتل الذين كانوا يكدرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله حول قلعة تانوى غربي منف فحاربهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلا حكيماً وشجاعاً مدرباً استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولى ابنه « اوسرتسن الاول » ويدعوه مانيثون « سيسونخوسيس » وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون متراً وبعض المتر نصبها أمام هيكل الشمس المدعو « اتوم » اجلالا لذلك الهيكل ومعبوده ونصب بجانبها مسلة أخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبق لها اثر الان . أما الاولى فلا تزال باقية منقوشاً عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمته ملخصاً « ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاه قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليداً لذكره واحياءً لهذا العيد » انظر الشكل السادس

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ محاطة بتلال متلاصقة كأنها سور من تراب . يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب.

ونصب اوسرتسن أيضاً مسلة أخرى فيما يحاذي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظن بعض المؤرخين مستنتجاً من سياق حكاية كتبها أحد معاصري هذا الملك انه الفرعون الذي حصلت في أيامه المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير أن الجمهور

على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ ٠ ويقال بالاجمال ان هذا الملك يعد من أول المؤسسين لهيكل طيبة « الاقصر » وقبل وفاته امر مهندسه الخاص ان يبني له مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف أقامها على اعمدة وجعل فيها حوضاً متصلا بالنيل وصنع لها ابواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض



ش ٦ ــ مسلة المطرية

ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميه مانيثون « سيزوستريس » ترك آثاراً كثيرة قلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها أن مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه . ومن اعماله انه جرد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا

قلاعاً منها قلعتان تعرفان الآن « بقمنة » و « سمنة » لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجدران الشاهقة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرت الان

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فهم مما هو مكتوب عليهما . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد « تحوتمس الثالث » معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة « امنمحعت الثالث » ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معلوماً اذا بلغه كان غيثاً وحياة لارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا تكون مياهه كافية للريّ فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك همّ بتدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الان ببركة قارون او « القرون » طولها يزيد عن عشرة فراسخ فأمر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احداها كانت تبتدئ من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالا . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاها قناطر بحواجز تسد وتفتح حسب اللزوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفت ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياهه ما يسد احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفح ماؤه انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة . وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار زيادته في جهة سمنة وقمنة . وفي تلك الجهات الان كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس « مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دعيت بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « پايوم » ومؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم « لابرانتا » واسمه بالمصرية « لابوراحونت » اي معبد فم البحر بناه هذا الملك لاجتماع مجلس الاعيان من الكهنة وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة آلاف غرفة ويحيط بالبناء من الخارج سورٌ عليه نقوش

اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها أثر الان . اما موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقته ومن رأي المستر كوب وايتهوس انه واقع في واد وسيع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٤٠َ ٤٨ْ و ٣٠َ ٢٩ْ شمالا وهو المعروف الان بوادي الريان . وقد اقترح وايتهوس على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخراً لماء النيل كما كان قديماً

وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية وآسيا علاقات تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الليبيين علم الرياضة الجسدية (الجمباز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية الشكل في الاثار المصرية انما هي من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

حكمت من ٣٤٧٣ ـ ٣٠٢٠ ق ه او من ٢٨٥١ ـ ٢٣٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

من ملوك هذه العائلة « سبك حتب الثالث » له آثار كتابية على صخور شامخة صعبة التسلق عند ضفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في السنة الثالثة من حكم الملك سبك حتب الثالث واوطأ جزء من هذه الكتابة يعلو اعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعه في هذه الايام بنحو سبعة امتار . وذلك من الادلة على أن النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار . وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها . ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من ٣٠٢٠ ـ ٢٨٣٦ ق هـ أو من ٢٣٩٨ ـ ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

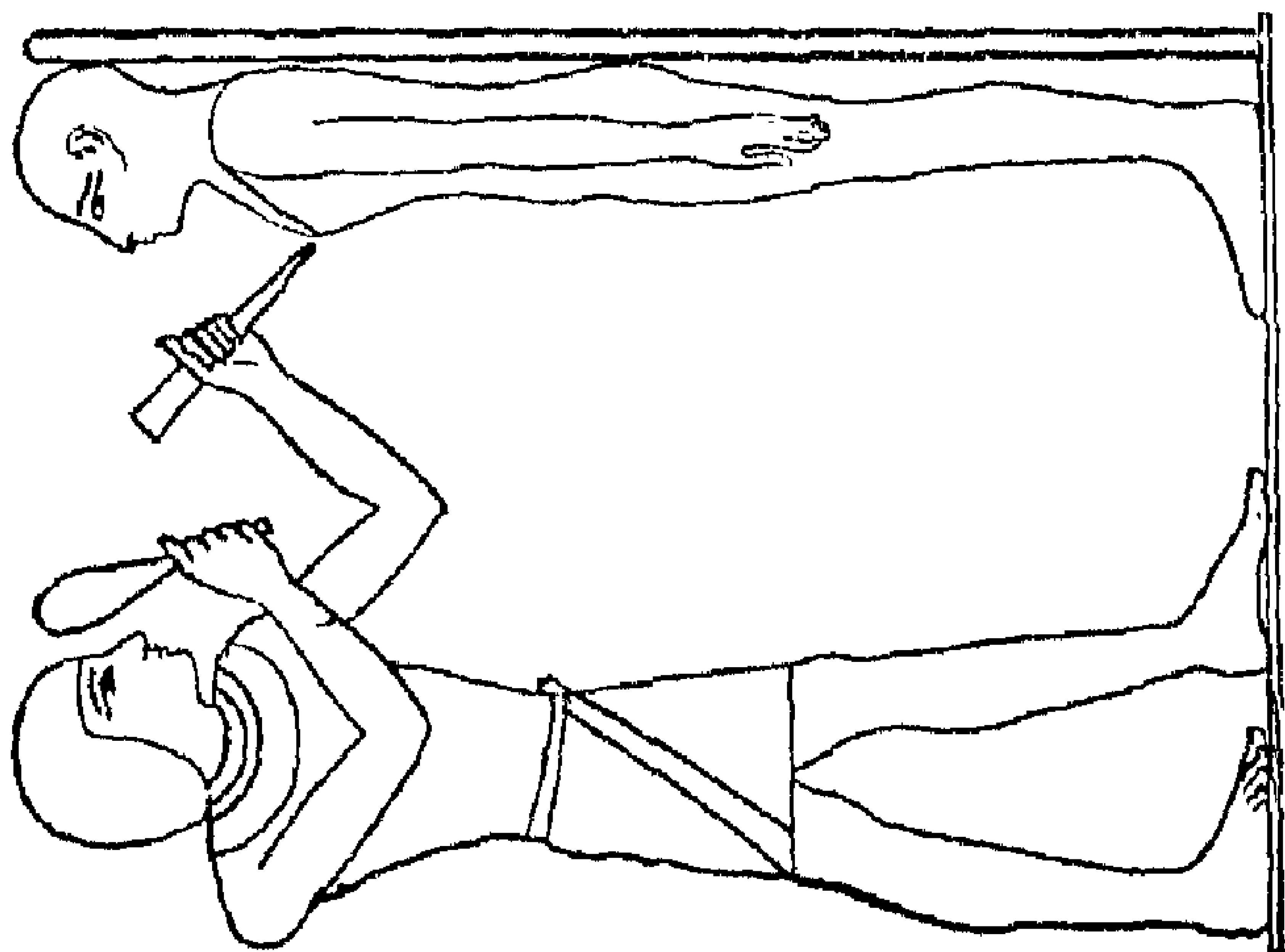
بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد أن كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعمائة سنة . على أن ملوك العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانما صرفوا اهتمامهم في تعمير الدلتا ورفع شأنه فزهت منديس وسايس وبوباستس وعلى الخصوص تانس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريراً لملكهم . أما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينة خيس (سخا) في منتصف الدلتا . لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وجدت مكتوبة على صحيفة من البابيروس (البردي) حفظت في متحف تورين

العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

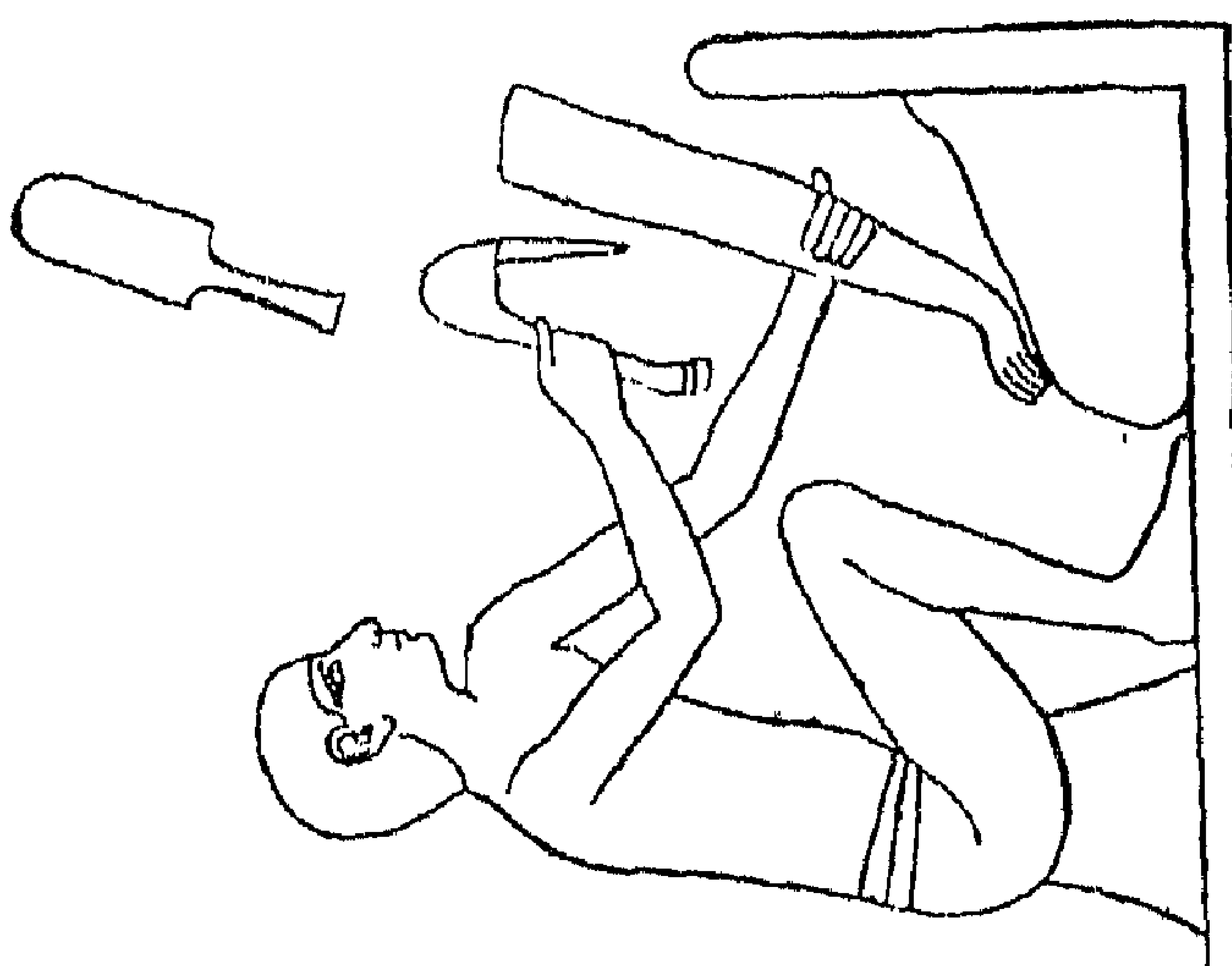
حكمت من ٢٨٣٦ ـ ٢٣٢٥ ق هـ او من ٢٢١٤ ـ ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشر مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا « اوريس » سريراً لملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . أما القبلي فكان يحكمه بعض الملوك الوطنيين . أما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون « هيكسوس » فقد اختلف المؤرخون في حقيقته وقد عقدنا فصلا في كتابنا تاريخ العرب قبل الاسلام بينا فيه ارجحية كون الرعاة عرباً من القبائل التي يسميها العرب « العمالقة » فليراجع هناك . ويقال انهم جاءوا مصر من جنوبي آسيا ففاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها أفواجاً حتى انتشروا فيها كالجراد وجعلوا يعيثون استبداداً فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها واتخذوا منف قاعدة لحكمهم ففر الملوك المصريين الى الصعيد

وأول من ملك من العمالقة « سلاطيس » شاد قلاعاً حصينة في اماكن مختلفة وجعل في السويس جنداً عظيماً خيفة أن يهاجمه كنعانيو الشام والعراقيون . وفي أيامه تقاطر أهل آسيا الى مصر أسراباً يطلبون ملجأ ورزقاً فبنى لهم في اوريس معسكراً عظيماً يسع نحواً من مائتين واربعين الفاً وجعل حوله خندقاً ورتب لهم أرزاقاً فصاروا له أعواناً فهابه المصريون

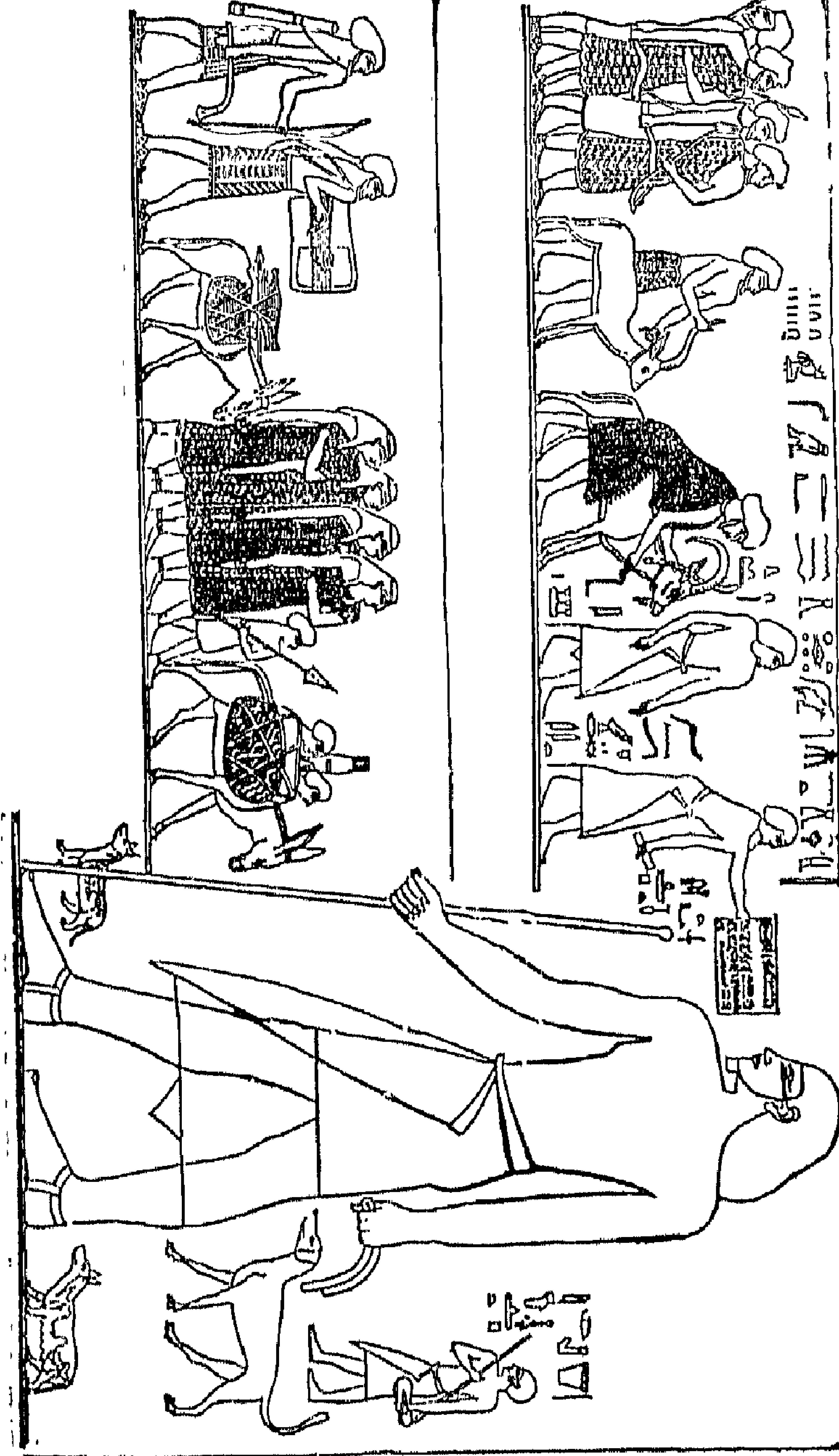


ش ٧ — حفار مصري يصنع تمثالا



ش ٨ — حفار مصري ينحت ذراعاً

ثم تداول خلفاؤه على سرير الملك الواحد بعد الاخر . وعددهم ٦ ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة وقد كانوا في أول امرهم مستبدين يسومون المصريين شر المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قربوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرفوا اهتمامهم الى احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المعابد ودانوا بديانة أهل مصر . فخضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يعرف منهم الا ملك واحد يدعوه المصريون « ابابي اعاكنن » والعرب يدعونه « الريان بن الوليد »



ش ٩ ـ مهاجرو آسيا

ومانيثون يدعوه « ابوفيس » وفي أيامه نزح كثيرون من أهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوها . وفي أيامه أيضاً وفدت

السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يدعى بلغة مصر القديمة « بدفير » اي هدية الشمس وقصته مشهورة . وقد وجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كل من الحكومتين نحواً من ٤٣ ملكاً قلما يعرف عنهم . وكانت قاعدة مملكة الرعاة « صان » والوطنيين « طيبة » وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنته حتى انتهى معها الرعاة وبانقضائه انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٩٥٤ ق هـ وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٣٢٥ ـ ٢٠٨٤ ق هـ او من ١٧٠٣ ـ ١٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤

ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اول ملوكها « احمس » ويسميه مانيثون « اموزيس » تزوج بابنة ملك اثيوبيا وتحالف معه على طرد بقية العمالقة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اوريس براً وبحراً فحاصرهم ثم طردهم منها . وما زال يتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها ستمائة سنة . وبقيت منهم بقية رضخت لاحكامه قهراً وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصته اهل النوبة فجرد اليها وظهر عليها . اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعته بغير حرب وامتدت سلطته الى البحر المتوسط . وفي السنة الثانية والعشرين من حكمه استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد « فتاح » في منف ومعبد « امون » في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الان في المتحف المصري

ومن ملوكها « امنحتب الاول » ويسميه مانيثون « امنوفيس » كان ملكا عادلا مسالماً تزوج بابنة ملك اثيوبيا وجثتاها في المتحف المصري

ومن ملوكها ايضاً « تحوتمس الاول » رغب في توسيع دائرة ملكه فجعل يحارب جنوباً وشمالا فامتدت سلطته الى محاجر مدينة « انبو » في وسط النوبة ويستدل على ذلك بوجود اسمه منقوشاً على حجر هناك . وقد وجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك . وامتدت مملكة مصر في ايامه جنوباً الى جبل « ابته » في الحبشة . وشمالا الى اقصى آسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرها . اما معظم ثروة بلاده فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيره ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من « نب » اي ذهب . ومن آثاره انه شاد معبد امون في الكرنك ومسلتين احداها لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان

ومنهم الملكة « حمتشبو » ويسميها مانيثون « مفرس » ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجل ذي لحية ملوكية مهيبة . وقد سعت هذه الملكة في نشر سطوتها ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب فكانت باباً للتجارة وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل . ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتهما في الكرنك لم تزل احداها قائمة الى هذه الغاية عليها كتابة بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها . وكان على قمة كل منهما اكليل هرمي الشكل مصنوع من الذهب المغتنم من الاعداء . والمسلة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً اربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة « تحوتمس الثالث » وهو شقيق الملكة المتقدم ذكرها . لم يمكنه الملك الا بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الا رغم ارادته فلما تولى محا اسمها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمه مكانه لتنسب تلك الانتصارات اليه

وفي ايامه استقلت آسيا من سلطة المصريين الاّ غزّة وضواحيها . ثم ظهر

التمرد في الشام فثار اهلها وحرضوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق والجزيرة وبعد انتصاره اراد اكرام جيشه فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلا فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم يمض يسير حتى عادت آسيا الشمالية الى الثورة فشقت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليه الزنج والعبيد من النيل الاعلى فحاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى الى مصر . (انظر ش ١٠) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد ولذلك لقبوه بالسلطان الاكبر . وفي المتحف المصري حجر جيء به من الكرنك عليه من الاعلى صورة الملك المذكور كأنه



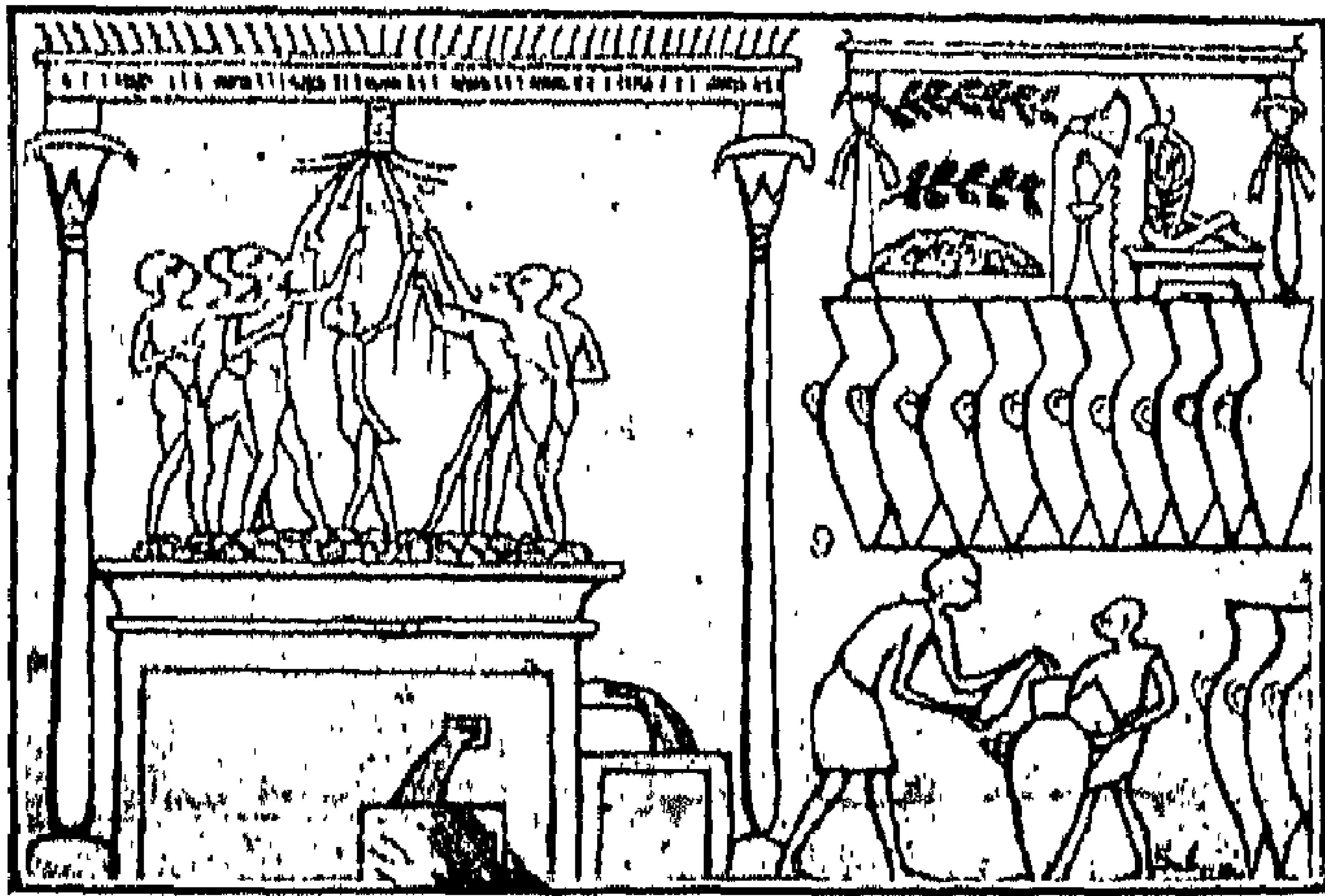
ش ١٠ ـ اسرى الزنوج

يقرب القرابين لبعض الالهة وهم وقوف بين يديه وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثر ونظم كتبت عن لسان امون اله طيبة يخاطب بها الملك بما يشبه المدح والتنشيط

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس اما جثته فتشاهد في المتحف المصري . ومن آثار تحوتمس الثالث مسلتان اقامها في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوبطرا نقلتا الى الاسكندرية وجعلتا امام هيكل القيصر وعرفتا بعد ذلك بمسلتي كليوبطرا وعليها كتابة هيروغليفية كثيرة بينها اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي الثاني ولا وجود لاسم كليوبطرا عليها . وفي سنة ١٨٧٧ ب م . نقلت

حداها الى لندرا واقيمت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين.

ومن ملوكها الملك « امنوفيس الثاني » استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظراً لبعدها من مصر ثارت واستمالت اليها ما حولها من المدن فجهز اليها امنوفيس وما زال يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة واكاد. واخيراً عاد الى مصر بحراً غانماً ظافراً. وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلق ستاً منها على سور طيبة. ولهذا الملك رسم منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة له



ش ١١ — معاصر العنب عند المصريين

ومن ملوكها ايضاً الملك « تحوتمس الرابع » ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر. فكرّم ابا الهول المرموز به عنها. ومن يزر هذا التمثال العظيم في الجيزة يرَ في صدره لوحاً ارتفاعه اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاه الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس. ويلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يدخر وسعاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والتماثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهوباً

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الثالث » لما تولى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدة شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى دجلة ولسعة شهرته في الاقطار الغربية

دعاه اليونان بالممنون . وله تمثال عظيم في طيبة مشهور بهذا الاسم . وقد كثرت في أيامه القلاقل والفتن فسعى في اخمادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلا مقداماً . كل ذلك تراه مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانه جدد فيه قسماً عظيماً وكان يلقب نفسه بسلطان البرين وأمير العالمين (يريد عالمي آسيا وافريقيا) وكان حسن السياسة فزادت مصر في أيامه سطوة ومملكتها اتساعاً

ومن آثاره هيكل في « نبته » جعل في الطريق الى بابه صفين من الكباش الراقدة على مثال أبي الهول وحسن معبد تحوتمس الثالث في سولين بين الشلال الثاني والثالث وشاد هيكلا غربي الكرنك خدمة للمعبود امون . وهناك اصلاحات اخرى اجراها في هياكل ومعبودات اصوان وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وأنشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الاقصر معبداً طالما كان من أعظم الآثار القديمة أما الآن فقد اصبح خراباً لاسباب لا نعلمها الا صنمين كبيرين كانا على بابه ولا يزالان قائمين رغم مصادمة الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثال امنوفيس الثالث . وبقيا الى سنة ٥٩٥ قبل الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احدهما الاعلى وبقيت قاعدته في مكانها فلوحظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها الندى ثم اشرقت عليها الشمس اخرجت صوتاً يستمر مدة فجعلوا يقولون في شأنه أقوالا شتى اكثرها مبني على الوهم والخرافات ثم اهتم القوم باعادة الجزء الساقط الى قاعدته فاعادوه وملطوا مكان الالتحام جيداً فلم يعد يسمع له صوت فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير أشعة الشمس على نقط الندى بعد تخللها جسم ذلك الحجر

ومن ملوكها أيضاً « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل العمادنة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريراً للملك بدلا من طيبة ونقل اليها معبود قرص الشمس وسماه (اتن) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامه في معبد ابتناه من اجله . وقد نقبوا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على دهليزين وستة اعمدة مدرجة الوضع يظهر انها كانت منصوبة في صحنه وشاهدوا على جدرانه رسم الشمس مشرقة على الملك ورجاله وهم وقوف يقربون القرابين اليها وبين أشعتها ايدٍ ممتدة كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعية وقصائد كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك ورجاله على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة

يتل العمادنة نقوش بينها صورة الملك واقفاً على عربته الحربية وبجانبه بناته السبع يقاتلن معه . وله آثار في سوليب وهيكل ومسلة بمدينة طيبة

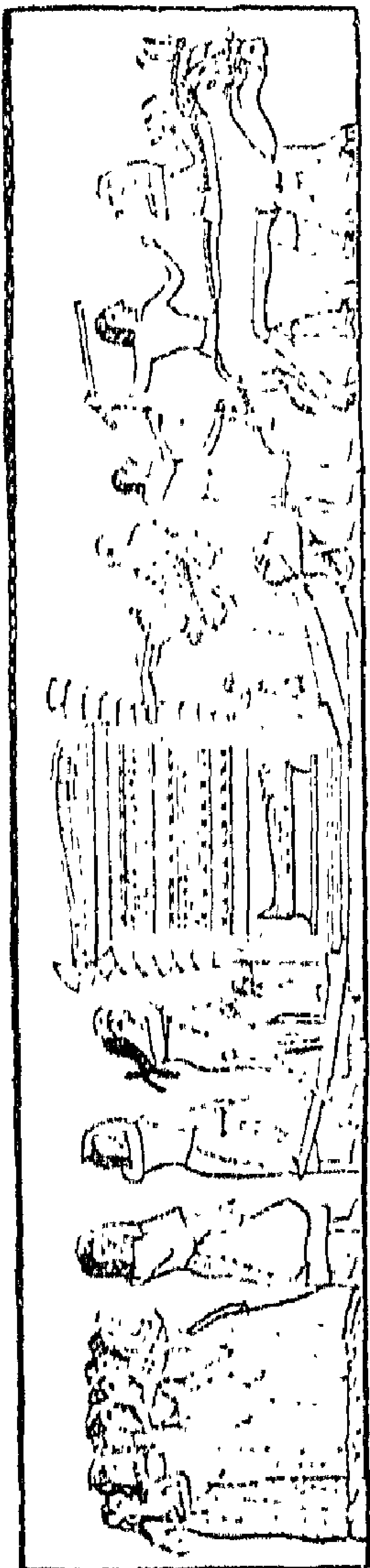
ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من أقارب « امنوفيس الرابع » ثارت عليه الرعية عند أول حكمه فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة جميعها واعادة الديانة المصرية . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك وفي ايامه خرجت اسيا من سلطة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من ٣٠٨٤ ـ ١٩١٠ ق ه او من ١٤٦٢ ـ ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨

اول ملوكها «رعمسيس الاول» ولم يتحقق حتى الآن اذا كان مصري المولد او اسيويه . تبوأ كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تئن لخروج معظم ايالاتها من طاعتها على أثر الحرب الدينية فجدد شبابها ونهض للجهاد فحارب الاثيوبيين والحثيين وكانوا امة عظيمة تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان هذا الملك هو أول من ناهض الحثيين واخترق بلادهم وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاص

وخلفه ابنه « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع مملكته فغزا بعضاً من بلاد آسيا الغربية . ذلك ما يستفاد مما كتب على هيكل الكرنك فغزا غزوات عديدة الى الشام والعراق وغيرها ففتح بلاداً تمتد من جنوبي الشام الى ارمينيا . وقد كانت قبلا لا يطلب منها الا جزية تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها في طاعته وجعل عليهم حكاماً من امرائه واحاطهم بنقط حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجاله فامن طغيانهم الا ما جاوز الفرات فانه عجز عن ابقائه في حوزته وعصته الجزيرة والعراق ولم يعد قادراً على مقاومتها فوقف عند حده ولذلك كانت فتوحاته كبيرة في الظاهر حقيرة في



ش ١٢ ـ جنازة مصرية قديمة

الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات جعل يمكن العلاقات مع ايالاته بواسطة النقط العسكرية التي كان قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم المتحابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوه بالشمس وكان لهذا المعبود زوجة اسمها استارته (عشتروت) مثلوها بالقمر واتخذوا من اسيا ايضاً آلهة أخرى

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة وآخر في رداسية وآخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجراً جعله في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبتدىء من تل بسطة وتجري شرقاً في وادي الطملات الى أن تصب في البحيرات المرة . وبنى خط دفاع شرقي مصر وشاد محراباً في القرنة وفتح طريقاً للقافلة بين قرية رداسية باقليم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عيناً صناعية ينفجر منها الماء غزيراً . واصلح الغار الذي في بني حسن للمعبودة « بشت » ويعرف الآن بغار « اتيميدس » وأخيراً بنى لنفسه ضريحاً في بيبان الملوك يعجب له كل من عاينه لدقة صنعه ولما فيه من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال له « رعمسيس الاكبر » لانه في الواقع أعظم من ملك مصر حكمة وبطشاً . حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبان ونقوش فلا يكاد يوجد أثر من الاثار المصرية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه . وُلي الملك صغيراً فشب معتاداً على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيه فطنة ونباهة منذ حداثته . ولما توفي والده قام باعباء الملك بنفسه فاخذ في توسيع نطاقه بالفتوحات . وأول غارة شنها كانت على الشام فسار بجيشه وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركا اثراً منقوشاً على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمه ثار عليه سكان شمالي آسيا وهم الحثيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقواماً من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربته وساروا جميعاً حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليه امراءه ورجال دولته وقوّاده وجنوده وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس فاذا هي على جانب من المنعة ففرق رجاله فرقاً في نقط معينة ثم سار في حاشيته منفرداً فلقيه جواسيس الحثيين فاغروه على التقدّم نحو

المدينة فسار في حاشيته تاركا جيشه في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا بمركبات الحثيين حوله لا عداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيته طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رعمسيس وحده فاستنجد الهه وهاجم الحثيين بمفرده على مركبته ففرقهم وفاز بهم . وبعد يسير عاد اليه رجال حاشيته وقد كادوا يذوبون خجلا لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم ثم اجتمع بجيشه ثانية وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينه وبينهم ثم همّ بالجلاء من آسيا



ش ١٢ ـ رعمسيس الثاني

وبينما هو في طريقه الى مصر ثار عليه الكنعانيون وانضم اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الا اهل آسيا الصغرى فانهم هجروا اوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي تابور وميروم وقلعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالا وقاتل هناك حتى اخذ من الحثيين مدينتين وجد في احداهما الآن تمثاله . وما زالت الحرب سجالا حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة

فطلبها فقبل رعمسيس ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمه فعقدوا معاهدة كتبت أولا بلغة الحثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان الحثيين يتعهدون أنهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وأن يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقاً تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعية مدة ست واربعين سنة كانت الراحة في أثنائها مستتبة وتصاهر الملكان توطيداً للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلباً واحداً وبعد التوقيع على المعاهدة بيسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزاره فاكرم مثواه

ولما سكنت الحروب أخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبداً وتمم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه أبوه . ومن آثاره أيضاً هيكل بناه في شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماه شامبليون « رامسيون » منقوش فيه تفاصيل احدى وقعاته ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسس في الوجه البحري مدناً عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من المحبة الى حد الشغف وكان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دفن في مقبرة بيبان الملوك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى المتحف المصري وهو هناك الى هذه الغاية

ومن ملوك هذه العائلة « منفتاح الاول » ابن رعمسيس الثاني اتبع خطوات أبيه فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحسينها ثم ثار عليه أهل آسيا الصغرى وطائفة الليبيين فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوءة بالعدة والرجال من قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك والمصريون لا يبدون حراكا الا اذا كان للتسليم . ولم يمض كثير حتى اصبح معظم الوجه البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفتاح بذلك تجند في منف وأرسل فرقة من فرسانه لمقابلة العدو ثم أمر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد . فتثاقل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتتتهم وعاد المصريون فائزين غانمين بعد أن أحرقوا معسكر العدو فعاد الامن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في أيام هذا الملك ولهم على ذلك أدلة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية وتسمى (الرعمسيسية)

حكمت من سنة ١٩١٠ ـ ١٧٣٢ ق ه أو من ١٢٨٨ ـ ١١١٠ ق م وعدد ملوكها ١٢

من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو آخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء. وفي أول حكمه ثار عليه أهل البادية فهددوا استحكامات الدلتا وأهانوا العملة الذين كانوا يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعته وسطا الليبيون على أرضه فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب

فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجاله على البدو فهزمهم ثم على الليبيين فاقلعهم من محتلهم فعادوا على أعقابهم خاسرين . فلما علم أهل آسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جردوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى اتوا الدلتا فلاقتهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبال بما كان حوله من الاسهم المتساقطة عليه من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالا الى أن فاز المصريون فوزاً تاماً . ولهذه المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاول من مباني مدينة (ابو) بطيبة واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو سنتين. ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم وأغاروا على مصر من غربيها فقابلهم المصريون بثبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين. كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة أيضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين أيضاً أهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهيبة واسعة النطاق واستعز رعمسيس بالملك . إلا أنه لم ينج من بعض المتاعب الداخلية لان اخاه أرمانيس كان يسعى فيه بدسيسة يذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فاتى باخيه ومن شاركه وبعد تحققه ارتكابهم جازى كلاً منهم بما فعل فصفا له الدهر فجعل يجدد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصراً كبيراً نقش على جدرانه ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك وأصلح هيكل الاقصر وغيره من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في أيامه رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك آخرون من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع

والخامس الخ . ويقال بالاجمال ان سطوة مصر أخذت بالسقوط في أيامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهوآخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في أيامه منكسرة الشوكة محصورة الحدوة يترصدها الاعداء يريدون التهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو أول من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبية والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٢ ـ ١٦٠٢ ق ه أو من ١١١٠ ـ ٩٨٠ ق م وعدد ملوكها ٤

أولهم الكاهن (حرحور) اختلس الحكم اختلاساً من العائلة الرعمسيسية على أسلوب دنيء منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من بقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنه الكاهن (يعنخي) وليس له ما يذكر به سوى انه تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنه الكاهن (بينوزم الاول) وفي سنة ٢٥ من حكمه قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعمسيسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامه اتى النمرود بجيشه من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعمسيسية وانما كان قصده الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت آماله واخذها عنوة وضمها الى بلاده ثم توفي النمرود ودفنته امه في العرابة المدفونة وجعلت لمدفنه المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنه (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً لملكه وسيأتي ذكره في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٢ ـ ١٤٣٢ ق ه او من ٩٨٠ ـ ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٧٠ سنة

اول ملوكها الملك « ششنق الاول » ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . وُلد في مصر ونشأ فيها ولما استتب له المقام في عاصمته

سار الى العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيه فوجد خدمة القبر قد نهبوا ماكان في المعبد من الامتعة الفضية فامر بقتلهم بعد ان سار الى طيبة واستشار معبودها « امن رع » بذلك . واعاد الى المعبد منهوباته ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة

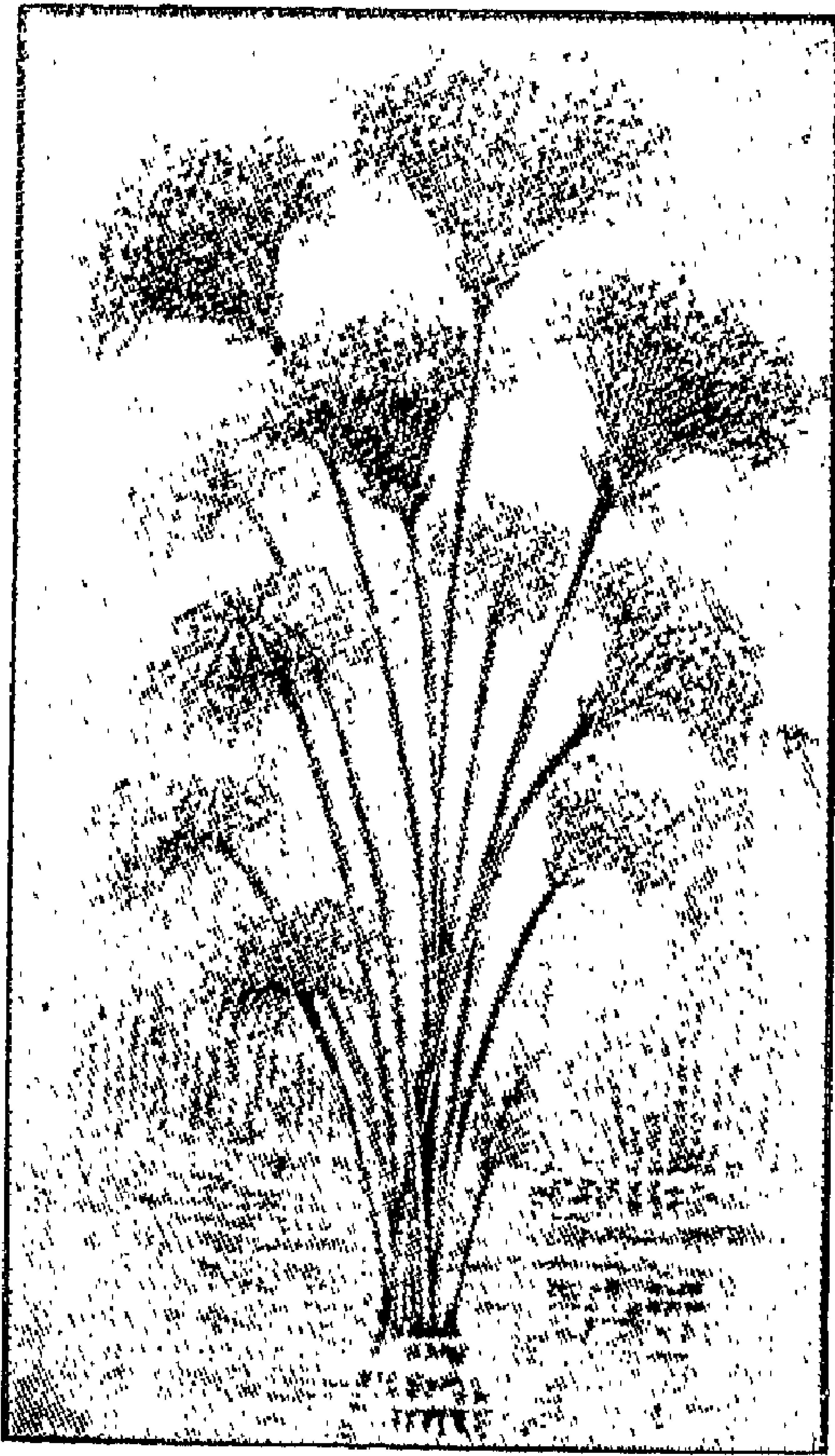
ومن اعمال هذا الملك انه سار الى فلسطين ووضع يده على اموال المسجد الاقصى الذي بناه سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السليمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائليين فسلموا له القلاع بغير قتال . وبعد عوده من هذه الغزوة نقش صورته على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطة الذي اسسه هو وبجانب صورته اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمه وفي جملتهم الملك رحبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهره وفي عنقه حبل . وبنى عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكره ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد قبلي هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان البسايطة . وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة

وتولى بعده ابنه « اوسوركون الاول » وليس له آثار تذكر وخلف هذا ثلاثة ملوك ليس لدينا شيء من اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكاوت الثاني » وله لوح حجري في رواق البسايطة بالكرنك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرته . وفي ايامه ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد ذهب نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث » « وپيماي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى أعمال متفرقة على كل منها حاكم ليبي تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً وما زالوا حتى ازالوا سلطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم ولقبوا انفسهم بالفراعنة ونزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت ششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ ـ ١٣٤٣ ق ﻫ او من ٨١٠ ـ ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الآن بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت



ش ١٤ ـ نبات البردي الذي كانوا يصنعون منه البابيروس

طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة . وفي ايام هـذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليما تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٣ ـ ١٣٣٧ ق ه او من ٧٢١ ـ ٧١٥ ق م وعدد ملوكها ٥

اولهم « تفنخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوته شيئاً فشيئاً حتى تمكن من جميع مصر قبليها وبحريها الا اقليم الشرقية فانه تركه للعائلة الملوكية السابقة ولما علم ملك اثيوبيا بما كان جرد اليه جيشاً وحاربه فقهره ونقش صورة المحاربة على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمه « يعنخي » جعلها ملحقة ببلاده لكنه ابقى لرؤسائها الامتياز وجعل « تفنخت » ملكا عليهم بالاصالة وبعد يسير مات يعنخي وخلفه آخر لم يكن اهلا للاحكام فتحرر المصريون من سلطته فانسحب برجاله الى بلاده . وفي اثناء ذلك مات تفنخت فتولى بعده ابنه « باكوريس » وكان قوي الادراك فقهياً بارعاً فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمه الا ان الدهر لم يدم له لان الدولة الاثيوبية صارت الى « سباقون » فجاء مصر وافتتحها عنوة والقى باكوريس حياً في النار وبموته ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايالة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٣٧ ـ ١٢٨٧ ق ه او من ٧١٥ ـ ٦٦٥ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم « سباقون » المتقدم ذكره تولى زمام مصر وجعل لنفسه القاب الفراعنة واخذ يبث النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ نفوذه عليهم جميعاً بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد ان يمسها الغرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكتسب ثقة المصريين واشتهر بالرأفة وحسن التدبير

الا ان ذلك لم يدم له لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هؤلاء في التخلص من نير الاشوريين فاجمعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فانفذ هوشع ملك اسرائيل اليه هدايا فاخرة وسأله التحالف معه على « شلمنصر » ملك الاشوريين فاجابه سباقون الى طلبه طمعاً منه بالحصول على ما كان لاسلافه من ملوك مصر

العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شلمنصر فاحتال على هوشع حتى اسره وفاجأ قومه بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا له بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شلمنصر » الى السامرة وحاصرها لكنه مات قبل افتتاحها وكان آخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فاقيم مكانه « سرجون » رئيس قواده فاقتدى به وسار على خطواته فاتمّ فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهوبيد » احد المتحالفين مع سباقون

فلما رأى سباقون ذلك خاف على بلاده فتقدم بجنوده الى الشام لرد « سرجون » بعد ان انضم اليه « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا



ش ١٥ ـ سرجون ملك اشور بيده الصولجان

بجيوش الاشوريين في مدينة رفح وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية وأخذ « حانون » اسيراً ونجا سباقون فضلّ في الصحراء الى ان وجد من اهداه الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة لهُ لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نيله . ولم يكن ذلك كل شقائه فانه بعد هذه الهزيمة ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيتس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعياً في اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقل باكوريس بالوجه البحري لكنه لم ترسخ قدمه حتى انقسمت حكومته على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفه ابنه « سيخون »

فاغتنم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليه . وهذا ما ابث ان ثبتت قدمه حتى قتله « طهراق » وتولى مكانه

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « استفانيتس » ثم جاءه اسرحدون ملك اشور فاتحاً ففر طهراق (تهراكا او ترهاكه) الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلاده لتحفظ تذكاراً لتلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر واعاد رؤساء



ش ١٦ ــ اسرحدون يقود طهراق ملك مصر وبعل ملك صور بحبل

الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمه وضرب عليهم الجزية وبعد ان تم له ذلك سار الى « نينوى » تاركاً بعض جنوده حامية في قلاعه خوفاً من غائلة الاثيوبيين فمر في اثناء الطريق بنهر الكلب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبه رعمسيس الثاني نقوشاً كثيرة بين فيها فتكه بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتنم طهراق فرصة مرض اسرحدون وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليه فلما علم اسرحدون بذلك وعلم بعجزه عن الدفاع تنازل عن

الملك لابنه الاكبر « اشوربانبال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنه . فعاد طهراق الى مشروعه فتحالف مع المصريين سرًّا على ان يعضدوه فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليه اسرى الا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وابطل عبادة الصنم « ابيس » منها . اما ملك اشور فجعل يقرب منه رؤساء الاقاليم المأسورين عنده استجلاباً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة « نوان ميامون » ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائه مكتوبة بالهيروغليف نقشاً على حجر وجد في اطلال مدينة « نبته » بجبل برقل وهو محفوظ في المتحف المصري

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ – ١١٤٩ ق ه و ٦٦٥ – ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاول » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبياً وليس من العصبية الملوكية الا انه اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكتسب حق التملك بواسطتها . فتولى الملك ومصر تئن ضعفاً وقنوطاً لما قاسته من الحروب التي توالت عليها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فاخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يعلفون فيها العجل « ابيس » ورمم ما كان متهدماً من معبد الكرنك . وباشر جميع هذه الاعمال دفعة واحدة فاصبحت مصر كانها معمل عظيم للبناء والترميم ونشط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة باعداء كثيرين اشد بأساً منها كالاشوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضايق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من « تسال » لمنع اغارة الاشوريين وحصن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انه عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر

عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلاده قانعاً بما اوتيه من النصر . وفي ايامه كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلاده على سواحل بحر طينة ما يبتنون فيه معاقل وبيوتاً يقيمون فيها

اما اليونان فاعجبتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجبتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لا نزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويجتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جداً في وجوب الابتعاد عنهم . اما « بسامتيك » فكان يحبهم ويقربهم منه حتى جعل بطانته منهم والف ميمنة جيشه من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حد لم يمكنهم معه البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لشفاء ما في نفوسهم الا بالمهاجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ الفاً . وهموا بالجلاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم أن لا يفعلوا فأبوا فقال لهم ولمن تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساء واولاداً . وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشه فتألفت منهم جيوش عرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك « انوبولس » . اما « بسامتيك » فعرف بعد ذلك خطأه فأخذ في اصلاحه فسعى في حشد الجيوش ولكن هيهات ان تعود مصر الى رونقها وكان هو الجاني على نفسه

ولما توفي تولى ابنه « نخاو الثاني » فاتم تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابية وهمة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نية افتتاح سواحل البحر الاحمر والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان . ولاح له لاتمام مشروعه إن يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط بحفر ترعة امتدادها اربع مراحل وعرضها يسع سفينتين اولها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقه الى هذا المشروع (حسب قول بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سدت بعد ذلك بالرمال . وسيأتي امامك كلام مفصل عن تاريخ الوسائل التي اتخذت

لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس من هذا الكتاب

ثم سار نخاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقه اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكره من اليونان

ثم ان ملك الاشوريين « نبوخذنصر » ارسل ابنه بختنصر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصوده حتى بلغه موت ابيه فعاد الى بابل مسرعاً بعد ان استرجع الشام . وحاول « نخاو الثاني » بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفه ابنه « بسامتيك الثاني » وهذا لم تطل ايام حياته فخلفه « وح ابرع » وهو الذي استنجد به « صدقيا » ملك اليهود على محاربة بختنصر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضاً بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها واقام فيها عاملاً من امرائه وعاد الى بلاده وساق معه جميع من كان في مصر من العملاء الا ان هيرودوتس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلاده ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انه لم ينجح من غائلتهم فسلبوه بعضاً من بلاده لكنه بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكه فارتاحت مصر في ايامه فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابتنوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجمل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها . وبعد يسير سنوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجارة مصر في ايديهم فاتسعت وباتساعها اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم رأى « اموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعلها تفيده ضد ملك فارس ففعل وتم التحالف

وفي اثناء ذلك مات « قورش » ملك فارس فقام ابنه « كمبيز » مكانه وكانت مطامعه لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليته الملك يسعى في هذا السبيل

فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل براً ولزيادة التأمين عقد معاهدات مع القبائل البدوية التي في طريقه ليمدوه بالماء الذي يحتاج اليه رجاله وبناءً على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتى نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانه « بسامتيك الثالث » وهذا جهز جيوشه وعساكره عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عدداً عظيما من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الا الفرار ففروا الى منف. فارسل اليهم « كمبيز » رسلا في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروه ارباً وقتلوا من كان فيه جميعاً فاستشاط « كمبيز » غضباً وانتقاماً فسار بجيشه الى منف وفتحها عنوة وقبض على « بسامتيك » وقيده واهانه واودعه السجن ومن معه وكان « بسامتيك » صبوراً فاحتمل كل ذلك ولم يبد تضجراً فعجب « كمبيز » لصبره. ثم اتفق بينما كان « بسامتيك » جالساً في السجن مقيداً و « كمبيز » بجانبه اذ مر به احد ندمائه السالفين مترديا بثوب خلق فتأفف « بسامتيك » وصفع بيده على جبهته متأسفاً فقال له « كمبيز » ما بالك تتأسف وتتأفف الان وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبد في اثنائها اسفاً. فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانه كان في عز وقد اصبح كما ترى والرجل اذا حلت به المصائب وتجرد من ذات يده واهين شرفه يحق عليه الاسف فتأثر كمبيز من ذلك وأسرع الى حل قيوده واعاد اليه شرفه الا انه رآه بعد ذلك يسعى ضده فأمر بقتله فانتهت هذه العائلة وابتدأت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ ـ ١٠٢٨ ق هـ أو من ٥٢٧ ـ ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧

أولهم « كمبيز » المتقدم ذكره فهذا كان يراعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون وأعاد الى أعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم وتلقى أسرارهم اللاهوتية ليكون له المام فيها واضاف الى اسمه القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هيبة وتأثير

عند الامم المجاورة فسعوا جميعاً الى كمبيز بالهدايا والجزية وجعل كمبيز مصر حصناً يستعين به في فتح افريقيا . ثم جند لقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبر

ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا وقدموها الى ملك اثيوبيا وكان فطناً نبيهاً فعرف مقاصدهم لكنه اظهر استحساناً لهديتهم. ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة « انظروا الى هذه القوس » ورمى منها سهما وقال « خذوا هذه القوس الى ملككم كمبيز واخبروه ان الانسب أن يأتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحدثه به نفسه حقناً لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني أوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء مما يكنه ضميره والا فليحمد الالهة لاغضائنا عن بلاده » فلما بلغ كمبيز ذلك أخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبيا من أقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مسافتها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يذيبه فجاء منف وكان أهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين لخيبته فأمر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل « أبيس » والقاه للكلاب تأكله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل أحدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فجوره حتى قتل أخته وغيرها ممن هم بريئو الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف . وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتله شعبه

وتولى بعده « داوا » فأخذ يسعى في وسيلة يستجلب بها رضى المصريين فاتفق موت العجل ابيس في أول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد وأظهر تأسفه الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل آخر مثله فأحبه المصريون واتسعت مملكة الفرس في أيامه كثيراً فكان تحتها ٣١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح منف وأراد ان يجعل تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعته الكهنة بحجة انه لم يأت بعد على ما أتاه رعمسيس الاكبر فقال لهم داوا « اني أرجو ان أساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمره » واذعن داوا لقول الكهنة بكل احترام

ومن مآثره أنه مهد سبل التجارة فاتم طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق قفط للمواصلات براً وطريق أسيوط

الممتدة الى العرابة المدفونة ومنها الى اصوان واكثر من العساكر المحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر مجوساً متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق

ثم ثار اليونان في آسيا فسار بجيش كبير لاقماعهم فاغتنم المصريون فرصة غيابه وشقوا عصا الطاعة وانزلوا ولاة « دارا » وعهدوا الحكم الى رجل يدعى « خبيش » من سلالة « بسامتيك » فعلم دارا بذلك فهم اليه لكنه توفي قبل اتمام مشروعه فأقيم ابنه « شيارش » مكانه فجاء مصر واسترجعها عنوة الا انه كان فاتر الهمة فاطلق تدبير الاحكام لولاة يعيثون بها كيف شاءوا وهكذا كان شأنه في سائر ولاياته فلم تمض مدة من الزمن حتى تجرد من سائر تلك الايالات وقتله من هم حوله وتولى الملك بعده الملك « ارتحشارشا » فأحب المصريون الخروج من طاعته فاستنجدوا عليه اليونان فانجدوهم فحصلت حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس

وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي « ارتحشارشا » وخلفه الملك « شيارش الثاني » ثم « سوغديانوس » ثم « دارا الثاني » وبه انتهت هـذه العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ - ١٠٢١ ق ه أو من ٤٠٦ - ٣٩٩ ق م

ليس لهذه العـائلة الا ملك واحد يدعى « اميرتيوس » ولاه المصريون عند تخلصهم من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

حكمت من سنة ١٠٢١ - ١٠٠٠ ق ه أو من ٣٩٩ - ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤

ليس في تاريخها شيء مهم سوى أن الفرس كانوا يهددونها وقدموا يريدون الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

حكمت من سنة ١٠٠٠ ـ ٩٦٢ ق ه أو من ٣٧٨ ـ ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣

قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل بينهما عدة وقائع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجربين ولم يفز الفرس الا في الواقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد « نكتانيبس » فانهزم الى النوبة وهو آخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم الى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

الدولة الفارسية الثانية

حكمت من ٩٦٢ ـ ٩٠٤ ق ه او من ٣٤٠ ـ ٣٣٣ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك « اوخوس » الملقب « بارتحشارشا الثالث » والذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً فجاء ابنه « ارسيس » وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته « كودومانوس » وكان معاصراً للاسكندر المكدوني الشهير . وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدا نجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانتقل بعده حكم مصر الى اليونان

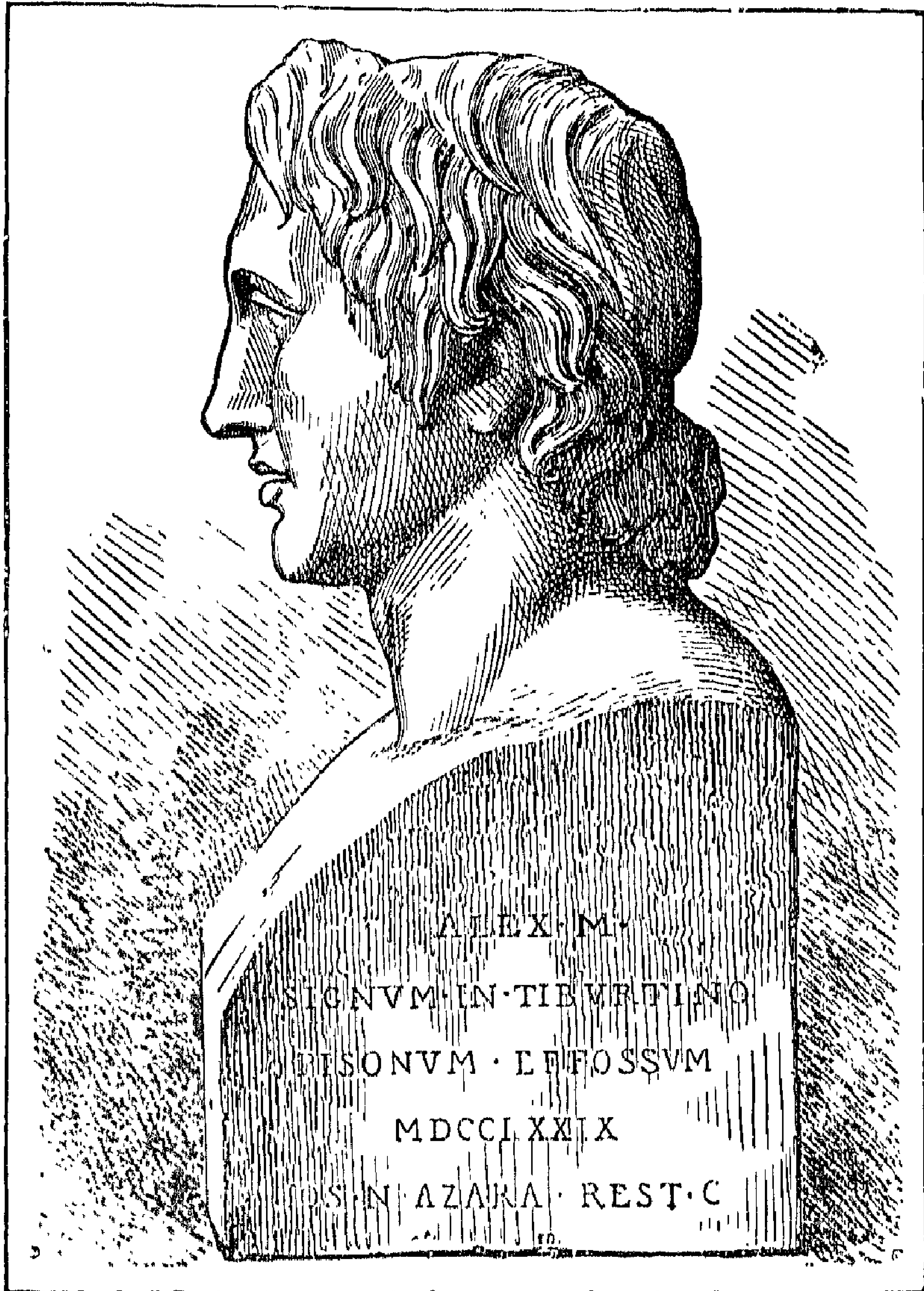
العائلة الثانية والثلاثين

الدولة اليونانية

حكمت من ٩٥٤ ـ ٩٤٥ ق ه او من ٣٣٢ ـ٣٢٣ ق م

اول ملوكها وآخرهم « اسكندر المكدوني » . تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فمر ببقعة من الارض على شاطىء البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانه رآها عبارة عن لسان من اليابسة

داخل في البحر وعلى احد جانبيه بحيرة مريوط المشهورة فلاح له ان يبتني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمه بنفسه وعهد اتمام العمل الى المهندس



ش ١٧ ــ اسكندر المكدوني

« نيوكراتس » فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنه ٣٣ سنة فنقلت جثته الى الاسكندرية ودفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون

البطالسة

حكمت من ٩٤٥ — ٦٥٢ ق ه أو من ٣٢٣ — ٣٠ ق م

بطليموس الاول سوتر حكم ٣٢٣ ـ ٢٨٥ ق م

لما توفي الاسكندر جاء بطليموس الاول واسمه سوتر من بابل ووضع يده على مصر وجعل يسعى في اكتساب ثقة أهلها ثم أرسل أحد قواده المدعو « بيكانور » في جيش لافتتاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمض بضع سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرص وفينيقية

ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يصلها بالاسكندرية برزخ صغير برجاً يبلغ علوه الف ذراع على قمته نور يستضيء به القادمون بحراً وقد هدم هذا البرج الآن ولم يبق له أثر . ومن مآثر هـذا الملك مدرسة الاسكندرية الشهيرة فانه جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة في ذلك العهد وكان يكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ مكتبة نفيسة طار صيتها في الآفاق

بطليموس الثاني فيلاذلفوس ٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق م

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكم سوتر عهد الملك لابنه البكر «فيلاذلفوس» واجلسه على كرسي الملك في حياته سنة ٢٨٥ قبل المسيح واقبه ببطليموس الثاني ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتم بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخابرات مطلقاً وليتها لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك على تنشيط العلم وذويه فزاد في مكتبة أبيه فبلغت الاسكندرية في أيامه مبلغاً عظيما من العلم والثروة ولم تعد ترى مثله بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رجال العلماء والفلاسفة . وفي أيامه ايضاً ترجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة

ومن مآثره خرائب أنس الوجود عند شلال اصوان فانه هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلاله هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان ويدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء الهيكل كل من جاء بعد فيلاذلفوس من البطالسة

بطليموس الثالث افرجيت ٢٤٧ ـ ٢٢٢ ق م

وكانت مدة حكم فيلاذلفوس ٣٨ سنة ثم توفي وخلفه ابنه « افرجيت الاول » ولقب ببطليموس الثالث وكان محباً للفتوح فجرد جيوشه الى آسيا مقتدياً برعمسيس الثاني فلم يكن حظه منها باقل من حظه لانه دوخ جميع البلاد التي على الفرات فبابل



ش ١٨ ـ فلكي اسكندري يرصد الافلاك

فالفرس فما وراءها وضرب الجزية عليها كلها وأعظم ما سر به المصريين انه استرجع من الفرس جميع ما كان منقولا الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا اثيوبيا حتى « ابريم »

بطليموس الرابع فيلوباتر ٢٢٢ ـ ٢٠٥ ق م

وفي سنة ٢٢٢ قبل المسيح توفي « افرجيت الاول » بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركا الملك لابنه « فيلوباتر » فتولى الاحكام حال وفاة أبيه ولقب ببطليموس

الرابع الا ان المصريين اتهموه بقتل أبيه فكرهوه وكان فظاً عاتياً فزادهم كرهاً . وبعد جلوسه بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس صاحب سوريا فحاربه فطلب الصلح بأن يرجع له سوريا وفينيقية فقبل فيلوپاتر وبقي هناك بضعة أشهر ثم عاد الى الاسكندرية .كل ذلك وأخته « ارسينوا » معه لم تفارقه يوماً واحداً . فأصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فعكف فيلوپاتر على الملذات فنسي واجباته المقدسة نحو البلاد فكثر اللغط بين الاهلين وتكررت التظلمات وليس من مجيب

وفي ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م أو سنة ٨٣٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من وراثي الملك غيره فما كان من فيلو پاتر الا انه قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويه . وفي ٢٧ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوپاتر واخفى أصحابه خبره حيناً ريثما يتمكنون من سلب أمواله . ثم شاع خبره فاقاموا عوضاً عنه ابنه الوحيد « ابيفان » وهو بطليموس الخامس ولم يكن له من العمر الا خمس سنوات فاقيم عليه وصيٌّ من سراة الدولة

وفيلوپاتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد أتم بناءه من جاء بعده من البطالسة . والهيكل المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانه باقٍ برمته الا ان الرمال قد غطت جزءه السفلي فترى فيه الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفاً تاماً

فلما رأى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوپاتر عاد الى ما كان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقية عنوة وهمَّ الى مصر فعرض له شاغل أكثر أهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على ان يعطي ابنته كليوبيطرا زوجة لبطليموس الخامس وان يترك له مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

بطليموس الخامس ابيفان ٢٠٥ ـ ١٨١ ق م

وفي ٢٩ مارس سنة ٢٠٥ قبل المسيح أجلس « أبيفان » على كرسي الملك وسلم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموطيقية واليونانية وقد وجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطته توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرّ بك . وفي سنة ١٩٢ زفت « كليوبيطرا » ابنة « انطيوخس » الى ابيفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة

من حكمه زادت التشكيات والتظلمات لسوء تدبيره وضعفه وما زال الاهلون يزيدون عليه حنقاً وحقداً حتى يئسوا من الاصلاح فأماتوه مسموماً في سنة ١٨١ قبل المسيح

بطليموس السادس فيلوماتر ١٨١ – ١٤٦ ق م

فتولى مكانه ابنه « فيلوماتر » وهو بطليموس السادس وله من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امه كليوبطرا فأقامت له أوصياء من رجال دولته العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالا حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلوماتر . وسار السوريون في مصر براً الى منف اما الاسكندريون فلما علموا بسقوط منف وأسر ملكهم اقاموا عوضاً عنه اخاه افرجيت الثاني وبعد أربع سنوات أخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلوماتر الى منصبه

بطليموس السابع افرجيت الثاني ١٤٦ – ١١٧ ق م

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة أو ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلوماتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقيم على مصر « افرجيت الثاني » وهو بطليموس السابع وقد كان الحق في الحكم لابن فيلوماتر الا انه كان صغيراً فقتله عمه وتزوج بامه فكان الوريث الوحيد ولم يكن افرجيت الثاني حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامه بغير وجه حق فكرهته الرعية وصاروا يتوقعون له داهية وبالغوا في اضطهاده الى حد انه لم يعد يمكنه البقاء بينهم ففرّ من مصر ثم عاد اليها وما زال حملا ثقيلا على عاتق رعيته الى آخر ايام حكمه فاهتدى الى الصراط المستقيم واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انه كان يمارسها بنفسه والف نحواً من اربعة وعشرين كتاباً معظمها في علم الحيوان

بطليموس الثامن والتاسع سوتر الثاني واسكندر ١١٧ – ٨٢ ق م

وفي سنة ٧٣٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح توفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كليوبطرا اولادها وكان البكر في قبرص فاتى مصر فولته الملك ودعته « سوتر الثاني » ويسميه العرب « شوطار » فهو بطليموس الثامن ثم سعت في ابعاده لغرض في نفسها فاشاعت انه مضمر قتلها فثارت الرعية عليه ففر الى قبرص ثم الى سوريا فاستدعت اخاه « اسكندر » وولته الملك فكان بطليموس التاسع فخاف على نفسه ايضاً ففضل الاعتزال على اخطار الملك ففر الى

قبرس وكان اخوه « سوتر الثاني » في سوريا يستعد للهجوم على مصر . فلما رأت كليو بيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرس وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها . اما كليوبيطرا فكانت رغم كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا . اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفر من مصر فاستدعى اهالي الاسكندرية سوتر الثاني من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فرحب به المصريون الا اهالي طيبة لكنهم ما لبثوا ان اذعنوا

وفي أيام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة ثم مات سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

بطليموس العاشر اسكندر الثاني ٨٢ – ٨٠ ق م

فتولى مكانه ابنه « اسكندر الثاني » او بطليموس العاشر ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعياً جهده في ارضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونه بل كانوا يرون فيه العسف والظلم وما زالوا عليه حتى ابعدوه من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراه مرض اشتد عليه حتى ذهب بحياته

بطليموس الحادي عشر اوليتس ٨٠ – ٥٢ ق م

ولم يبق من العائلة الملوكية من يحكم بعد اسكندر فانتخب الاسكندريون رجلا منهم يدعى « ديونيسيوس » ولقبوه « باوليتس » لانه كان مغرماً بالفلوت (الالة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهمه أمر الملك على ان مصر كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير لما كان يهددها من المخاطر فثار الاهالي عليه في طلب الاصلاح وهو غير قادر عليه ولم يكن في وسعه اخماد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفر الى رومية . وكان له ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة أشهر ماتت الاولى (كليوبيطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم أوليتس بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنته قصاصاً لها على اختلاسها الملك

آخر البطالسة كليوبيطرا ٥٢ – ٣٠ ق م

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنة له ثالثة اسمها ايضاً كليوبيطرا وكانت بالغة

رشدها ولولا ذلك لتولى أخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسه ان يتولى مكانه الا ان كليوبيطرا جلست على كرسي الملك حالا ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في السيادة وقد ملكت رغم مشقات كثيرة كانت تحول بينها وبين ما تريد . ففي أول الامر نازعها أحد اخوتها ووافقه الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستنجدت بجيوش الروم فساعدها يوليوس قيصر القائد الروماني الشهير واعاد لها الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الاخر . ثم سارت برفقة قيصر الى رومية وبقيت عنده الى يوم مقتله سنة ٤٤ ق م ولما جاء يوليوس قيصر الاسكندرية زار قبر الاسكندر وكشف عن جثته ووضع عليها اكليلاً كما ترى في الشكل ١٩



ش ١٩ ــ يوليوس قيصر أمام جثة الاسكندر

وفي سنة ٤٢ قبل المسيح قتلت كليوبيطرا أخاها بالسم فخلا لها الجو ثم اتفق

ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومانيين كانا في حرب مع «بروتس» فامدت هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولداً دعته قيصرون نسبة الى قيصر والده فكان هو الملك على مصر رسمياً

فلما بلغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا أنجدت بروتس عدوه بالمال والرجال خلافاً للمعاهدة استدعاها الى طرسوس المرافعة فركبت زورقاً جميلاً مزخرفاً جؤجؤه من ذهب ومجاذيفه من فضة تخرج عند التجذيف بها صوتاً موسيقياً مطرباً وكانت كليوبيطرا من أجمل النساء فلبست أفخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في أحسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف لها أمراً فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غانمة

وبعد يسير زارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواه فدعاها ملكة الملوك ودعى ابنها قيصرون ملك الملوك بدعوى أنه ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عجباً على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملوك فدعوها ازيس الالهة الجديدة . وأما انطونيوس فانساه الغرام كل واجباته ولم يعد يعلم أهو نائب القيصر أم هو ملك مصر لانه أصبح أسيراً لكليوبيطرا وكتب اسمه بجانب اسمها

ولما بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ق م فبعثت اوكتافيوس بجيش وجعلت نقطة المحاربة في « فارنتو » و« برندزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطلب ان تكون الحرب في فرساليا ثم أعد جيشه وسار في خمسمائة مركب وسارت معه كليوبيطرا في ستين مركباً فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وأبت كليوبيطرا الا أن تكون الحرب بحراً

ثم انها خشيت أن تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئاً فشيئاً وكان انطونيوس مهتماً باعداد المهمات الحربية غير مبال بالموت في جانب مرضاة سالبة لبه ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تخترق عباب البحر فاقتفى أثرها تاركاً رجاله يحاربون ولا يدرون مقره وما زال حتى أدركها وسار بها الى مصر

أما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رأت كليوبيطرا ان محبها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سراً الى أوكتافيوس وطلبت مساعدته فوعدها بما تريد بشرط ان تتخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل أمتعتها وأشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها. ثم بلغته خيانتها فقتل نفسه

أما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكليوبيطرا سوءا فأوجست هي خيفة منه وجعلت تستجلبه بما استجلبت غيره من قبله فلم تفز وفي آخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على أن يقتلها غيرها فقربت ثعباناً ساماً الى صدرها فلدغها فماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم



ش ٢٠ - كليوبيطرا والثعبان يلدغها

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم آخر حكم اليونان بمصر وأول حكم الروم فيها وهي :

العائلة الرابعة والثلاثون

الدولة الرومانية

حكمت من ٦٥٢ ـ ٢٤١ ق ه او من ٣٠ ق م ـ ٣٨١ ب م

لما ماتت كليوبيطرا على ما تقدم دخلت مصر في حوزة دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها والٍ منهم يحكم بمقتضى شرائعهم

وهذه الدولة هي آخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حوزة دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة



ش ٢١ ـ ثيودوسيوس الاكبر

المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوه فيها من الاضطهادات العنيفة . واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطيانس فانه بالغ في مطاردة المسيحيين وقتل منهم جمعاً غفيراً بين كهنة وعامة . ومن تولية هذا الملك (في ١٣ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م) يبتدىء التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعوّل عليه عند الطائفة القبطية الى هذا العهد . وفي سنة ٣٠٦ ب م

جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكه في مدينة بيزانس (القسطنطينية) فانحطت سطوة مصر

وفي سنة ٢٤١ ق ه او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور « ثيودوسيوس » المصريين عن عبادة الاصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامره هذا اسرع في هدم الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات التدين وكل ذلك بمساعدة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس . وهنا ينتهي الدور الجاهلي ويبتدىء الدور المسيحي

الدور المسيحي

من سنة ٢٤١ ق هـ - ١٨ ب هـ او من ٣٨١ - ٦٤٠ ب م

لما توفي « ثيودوسيوس » سنة ٣٩٥ ب م قام ولداه « هونوريوس » و « اركاديوس » واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاها مملكتين شرقية وغربية وجعلا عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكمين معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية

وكان هذا الانقسام رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجالاً بين لاهوتيي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب جمة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية فآل الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينهما

وكان النصارى اذ ذاك قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورأيهم وديانتهم باجمعهم الديانة الملكية وعدتهم تزيد على ثلثمائة الف رومي

والقسم الآخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع تزاوجهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً وعددهم عدة ملايين وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها

وفي سنة ٦١٠ للميلاد تولى عرش القسطنطينية الامبراطور هرقل والمملكة لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مبادئهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجموا جميع

تعاليمها اليها ولا يخفى ان ذلك جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم فقووا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان في وسعهم الحصول عليه لو طلبوه

ومما زاد الاقباط ثبوتاً ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة وما كان يهددها من جميع الجهات فالفرس هددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرها من الولايات . الا ان التقادير كانت تعدّ هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعني الامة الاسلامية



ش ٢٢ ـ هرقل امبراطور الروم وجنوده

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءًا من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها بمجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدئ الدور الاسلامي وهو تاريخ مصر الحديث

تاريخ مصر الحديث

فصلٌ في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم ارَ بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث من جاء على كتابة وافية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب من اسهب في الكلام عن بعض أقسام مصر وعني بتاريخها على انفراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الآخر ومنهم من اقتصر على تراجم بعض مشاهير حكام مصر أو علمائها أو أدبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنه أوجز كثيراً فلم يأت بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضاً في أثناء تاريخ الدولة الاسلامية عموماً . فكان قوله متفرقاً فضلا عن كونه موجزاً.

أما مؤرخو الغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوباً اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الاعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يغفلون المخاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم أو على جنودهم أو اذا لم يغفلوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا أريد ترجمتها الى العربية لا يتفق أن تأتي مثل أصلها تماماً

فرأيت أن لكل من الطرفين حسنات فجمعت بينها ملتزماً صحة النقل وانتقاء أصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال

ما هو مقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلافات وتقاليد

فزادت المؤلفات التي أخذت عنها كتابي على بضع عشرات فضلا عن القواميس الكبيرة

وهاك جدولا فيه أسماء أشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في تأليف هذا التاريخ :

الكتب العربية

أسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المؤلف
الخطط	المقريزي	عجائب الآثار	الجبرتي
الكامل	ابن الاثير	بدائع الزهور	ابن اياس
الروضتين	شهاب الدين المقدسي	خطط مصر	علي باشا مبارك
تاريخ المسلمين	ابن العميد	التبر المسبوك	السخاوي
ديوان العبر	ابن خلدون	تاريخ الدولة العثمانية	ابراهيم الطبيب
وفيات الاعيان	ابن خلكان	مصر للمصريين	سليم خليل النقاش
فوات الوفيات	ابن شاكر	تاريخ السودان	نعوم بك شقير
اخبار الأول	الاسحاقي	هيرودوتس	ترجمة بسترس
الافادة والاعتبار	عبداللطيف البغدادي	الامة القبطية	يعقوب نخلة
النجوم الزاهرة	ابو المحاسن	الخريدة النفيسة	احد الرهبان
مروج الذهب	المسعودي		

الكتب الافرنجية

تاريخ الحروب الصليبية	مونروند	فرنساوي
« مصر الحديث	مارسل	«
« الحملة الفرنساوية	اميديه ريم	«
« محمد علي	ب و ه	«
الانبياء الثلاثة (عرابي وغردون والمهدي)	مونرو	«
المشرق ومصر	دافاسيه دي بونته	«

نظرة في مصر	كلوت بك	فرنساوي
تاريخ الدوائر الصحية المصرية	نتروتسوس بك	«
الآثار المصرية	مري	انكليزي
تاريخ مصر القديم	شارب	«
السيف والنار في السودان	سلاطين باشا	«
الحوادث المصرية الاخيرة	شارلس رويل	«
تاريخ المماليك الى وفاة محمد علي	باتون	«
المملكة العثمانية	جمعية الرسائل الدينية	«

الانسيكلوبيديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

حدود مصر واقسامها

كانت المملكة المصرية قبل انسلاخ الاقطار السودانية عنها تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة البرت نيانزا وشرقاً تبتدىء من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سينا وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل رأس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مضوع بخليج عدن حتى بربرا . اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة المملكة المصرية لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت مستقلة . وغرباً من رأس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء ليبيا حتى دارفور ثم تنعطف شرقاً الى الجبال الزرق

اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري ويحدُّه شمالا البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر وغرباً رأس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الا ن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين يقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية.

وعلى كل من هـذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها وعدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٠٧

المديريات وقواعدها

اولاً الوجه البحري

اسم المديرية	اسم قاعدتها	عدد سكان المديرية
القليوبية	قليوب	٥٧٥ ٤٣٤
المنوفية	شبين الكوم	٠١٦ ٩٧١
الغربية	طنطا	٨١٤ ٤٨٤ ١
البحيرة	دمنهور	٠١٥ ٨٣٠
الشرقية	الزقازيق	٣٤٦ ٨٨٦
الدقهلية	المنصورة	٤٢٨ ٩١٢

ثانياً الوجه القبلي

اسم المديرية	اسم قاعدتها	عدد سكان المديرية
الجيزة	الجيزة	٠٨٠ ٤٦٠
بني سويف	بني سويف	٣١٢ ٣٧٦
الفيوم	الفيوم	٥٨٣ ٤٤١
المنيا	المنيا	١٤٤ ٦٦٣
اسيوط	اسيوط	٤٣٥ ٩٠٧
جرجا	سوهاج	٩٤٠ ٧٩٧
قنا	قنا	٨٤٩ ٧٨٠
اسوان	اسوان	٦٠٢ ٢٣٤

ويشتمل القطر المصري عدا عن المديريات المذكورة على مراكز مستقلة باحكامها يسمونها محافظات وهي مع عدد سكانها

اسم المحافظة	عدد سكانها
القاهرة	٤٧٦ ٦٥٤
الاسكندرية	٢٤٦ ٣٣٢
بور سعيد	٨٨٤ ٤٩

الاسماعيلية	١١ ٤٤٨
العريش	١٨ ٦٣٧
السويس	١٨ ٣٤٧
سينا	٢٥ ٠٨٢

السودان المصري

اما السودان المصري فقد قسم بعد استقلاله عن مصر الى مديريات لكل منها مركز وهذه أسماؤها مع أسماء بنادرها

المديرية	البندر	المديرية	البندر
الخرطوم	الخرطوم	سنار	سنجا
بربر	الدامر	كسلا	كسلا
دنقلة	مروى	اعالي النيل	كودوك
وادي حلفا	حلفا	بحر الغزال	واو
البحر الاحمر	بورسودان	كردوفان	الابيض
النيل الابيض	الدويم	منجلا	منجلا
النيل الازرق	واد مدني		

سكان مصر

بلغ عدد سكان مصر بناءً على تقويم سنة ١٨٨٢ نحو ٧٤٧ ٨٠٩ ٦ نفساً منهم ٨٨٨ ٩٠ من الاجانب . وبلغ حسب احصائها سنة ١٩٠٧ نحو ٠٠٠ ٣٠٠ ١١ من النفوس الوطنيون منهم ٠٠٠ ١٥٠ ١١ والاجانب ١٥٠ الفاً . وهم على الاكثر يونانيون وايطاليون وانكليز وفرنساويون وأتراك . اما العربان المقيمون بالقطر المصري فمعدودون في الوطنيين ويبلغ عددهم ٠٠٠ ٦٠٠ وغالبهم بدو يقطنون الخيش بالقرب من المزارع والرحالة منهم يبلغ عددهم سدس مجموعهم

ويظهر ان عدد سكان مصر في عهد المصريين القدماء لم يتجاوز هذا العدد قال هيرودوتس المؤرخ انه كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدينة . وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة

ونصف . أما في الدولة الاسلامية فبلغ عددهم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس ثم انحط في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين وأخذ في الزيادة من عهد المغفور له محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى اليوم

مزروعات مصر

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٣٠٠ نوع

فمن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفول والعدس والحمص والترمس والبسلة والباميا واللوبيا واللبلاب والبصل والكرات والثوم والخبيزة والخس والكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخيار والقثاء وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسمسم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والجميز والموز والمشمش والخوخ والرمان والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم واللبخ وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الا أن بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها اللبخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظله

حيوانات مصر

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضان والماعز والخنزير والكلب والهر والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضان والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء

والحيوانات البرية منها الخنزير البري والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل وأبو الحسين والذئب والثعلب والقط البري والنمس والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات أخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

خلافة عمر بن الخطاب

من سنة ١٣ ــ ٢٣ هـ او ٦٣٤ ــ ٦٤٤ م

مبدأ الدولة الاسلامية

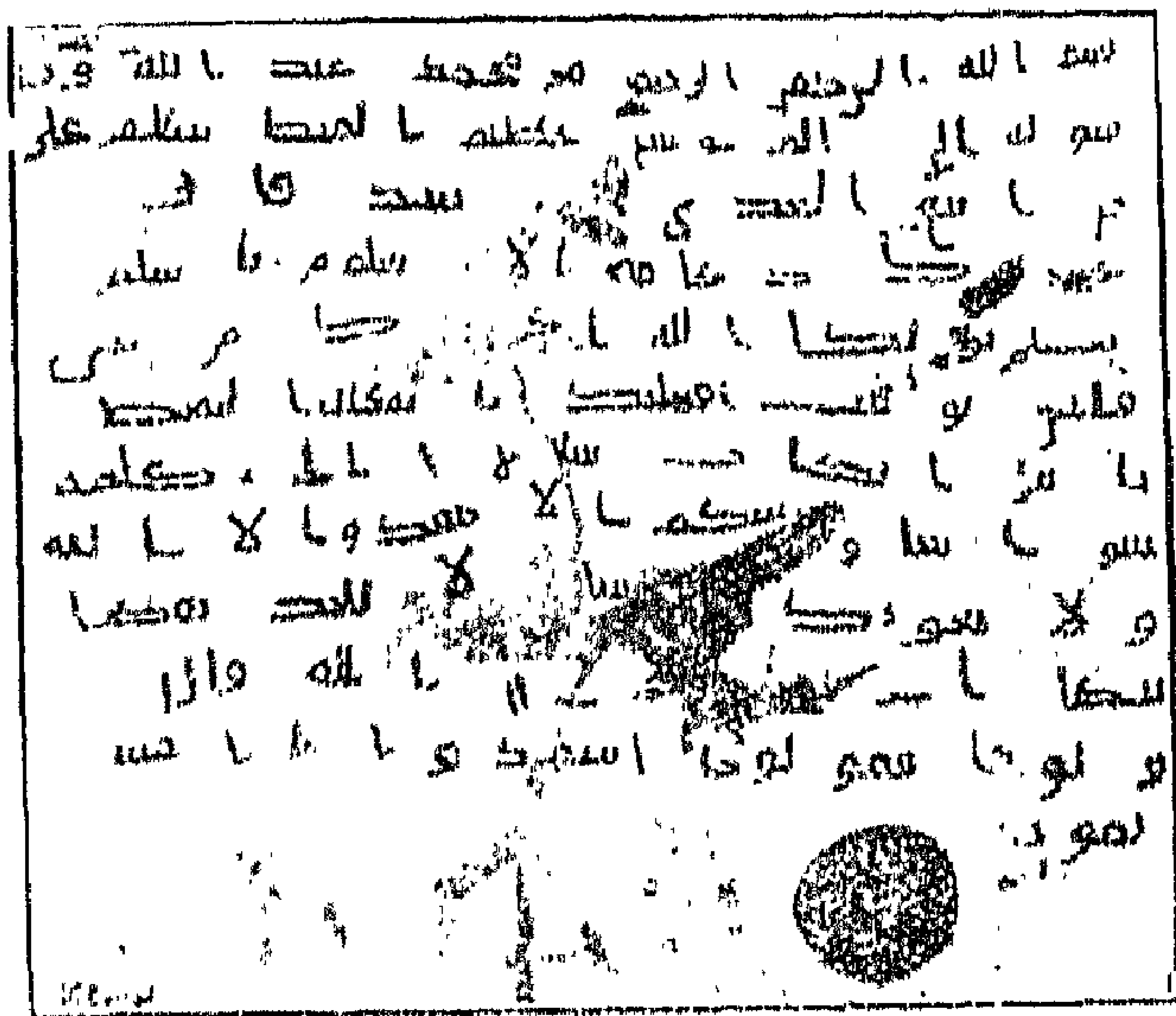
وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبد الله القرشي . وُلد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ لميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعول عليه الآن . وفي آخر السنة السادسة للهجرة كتب الى الامبراطور هرقل ملك القسطنطينية كتاباً يدعوه فيه الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتاب الى المقوقس يوحنا بن قرقت حاكم مصر من قبل ملك الروم فبعث اليه المقوقس اربع جوار منهن مارية أم ابراهيم ابنه فكان ذلك أول الصلات بين دولة العرب ومصر

ثم كانت الغزوات والفتوح المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي صاحب الشريعة وبويع الخليفة ابو بكر الصديق فعمل على استمرار الفتوح حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام أن ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز ثماني عشرة سنة

فلما رأى الامبراطور هرقل ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من

بلاده عنوة أوجس خيفة على باقيها ولا سيما مصر الا انه لم يكن في حسبانه ان العرب يقدمون الى مصر مفتتحين حالا على أثر فتوحهم الكثيرة فعقد بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب معاهدة مآلها أن يدفع جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم عن فتح مصر . الا ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالقدر المعين فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة منقوضة



ش ٢٣ ــ النسخة الاصلية لكتاب النبي الى المقوقس زعم بعض المستشرقين انه وجدها في الصعيد (راجع الهلال سنة ١٣ صفحة ١٠٣ و ١٦٠)

فتح مصر سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م

وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانه كان قد جاءها قبل ان اعتنق الاسلام ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعله شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض أموالا وأعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولا سيما بعد أن عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد أن نقضت على ما تقدم رأى أن يجيب طلبه فانفذ اليه ان يسير بأربعة آلاف رجل أشداء وقال له « سر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض

لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

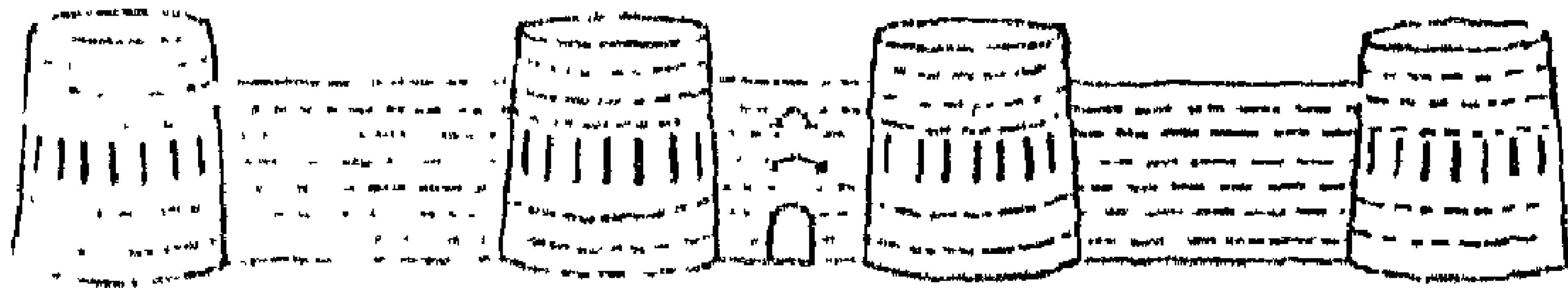
فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان أذنَ له بذلك . فلما بلغ رفح « وهي قرية تدعى الان رفع تبعد نحو عشر ساعات عن العريش » حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً نخاف أن يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فأجل فتحه حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجد السير حتى امسى المساء فسأل أين نحن فقيل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هنالك . وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . أما بعد فان أدركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها وأما اذا ادركك وقد دخلتها أو شيئاً من ارضها فامض واعلم اني ممدك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « أين نحن يا قوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من أرض مصر ام الشام » فاجابوا « انها من مصر » فقال « هلم بنا نعبر على خيرة الله تعالى » . وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة آلاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوباً في قسمها الشرقي وعددهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه الفرما قاتلت الروم قتالا شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه . ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بلبيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فاحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاباً لوده فسير اليه ابنته مكرمة في جميع مالها فسر ابوها بقدومها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مر بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل أو بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العماد [1] الى شرقيه جبل المقطم راسخ وعلى وجهه تجمدات تدل على

(١) ويسميه بعض مؤرخي العرب حصن باب اليون او باب الاون وللمؤرخين فيه أقوال أظهرها انه حصن بناه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه بأسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

قدم عهده وبين الجبل والحصن بقعة من الارض لا شيء من العمارة فيها الا بعض الاديرة والكنائس . ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر أمام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كساها الطبيعة من جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسرٌ من خشب وكذلك فيما بينها والجيزة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هـذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بحذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات



ش ٢٤ ـ حصن بابل كما كان لما حاصره العرب

وتطلع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد أثقلت كاهل الدهر فعجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوبي الاهرام فرأى بقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والفخامة ومن جملتها أهرامها المعروفة الآن باهرام سقارة

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل يسرح نظره ويتأمل بما يهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيه النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك فيما مر به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عند ما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد ففي الآخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة

الغربية واما هذا الحصن فقد اتخذه مركزاً حربياً ليمنع العرب من المرور الى عاصمته . وكان المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول مكاتبة وعلى كل فانه لم يكن له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة احد كبراء جيشه المدعو الاعيرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمده فامده باربعة آلاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذاقة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه « اني قد انفذت اليك اربعة آلاف على كل الف منهم رجل مقام الف »

فانفذ عمرو احد قواده ولعله حذاقة بخمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا في اقنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليه واستمر رمي السهام صباحاً ومساء ثم تشاور عمرو والزبير بشأن ذلك فاقرّا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق . والح عمرو على الحصن بالمنجنيق ثم خابر القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرأ على التصريح ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولا سيما الاعيرج . ولما رأى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف أن يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم تبعه الاعيرج ولم يترك في الحصن الا نفراً قليلا من رجاله والعرب غير عالمين

ولما أبطأ الفتح قال الزبير « اني أهب الله نفسي وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأخبر عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهاهم ثم كبر وكبر الناس معه وأجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من

الروم ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا . وعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . وأما هؤلاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد أن عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم إذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

المخابرة بشأن الصلح

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما أتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما أراد بذلك عمرو أن يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان أبيتم فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا « رأينا قوماً الموت احبُّ الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلا « لو ان هؤلاء التقوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ان يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم » وما زال على

رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو « ابعثوا الينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم »

الوفد الى المقوقس

فبعث عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجأش هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار وجعله متكلم القوم وأمره ان لا يجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلا « ان أمير المؤمنين قد تقدم اليّ في ذلك وأمرني ان لا أقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث » فركبوا السفن حتى أتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر أصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال « نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه وقد أمرنا الأمير ان لا نخالف له امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو أسود وانما ينبغي أن يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان أسود فهو افضلنا »

فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني أهاب سوادك »

فتقدم وقال « قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابي الف رجل اسود كلهم أشد سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هو لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عز وجل قد أحلّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالا وما يبالي أحدنا ان كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك الا درهماً لان غاية أحدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيما ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك أمرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلسانهم « هل سمعتم مثل

كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب. ان هذا وأصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما أظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له

« أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدهم بمن لاقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين اظهرنا اشهراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم به »

خطاب عبادة بن الصامت

فقال عبادة « يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك . . . اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيء اقرّ لاعيننا ولا أحب لنا من ذلك واننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده وليس لاحد منا همٌّ فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك أمرني الامير وبها امره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله

غيره وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك أنت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم . وان ابيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى نحن وأنتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فاعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا »

فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت »

فقال « أفلا تجيبونا الى غير هذه الثلاث الخصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى أرباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل ؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه . وأما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت أيسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان أهون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد أبى القوم فما ترى فراجع أصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه « لا » . فقال المقوقس لاصحابه « أطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوهم اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « وأي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيداً ابداً ؟ » قال « نعم تكونون عبيداً مسلطين

في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل أن تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « أعلم أميرك اني لا أزال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسل اليّ بها فليعطني ان اجتمع به أنا في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه »

فرجع عبادة الى عمرو وأخبره بما كان فاستشار أصحابه فقالوا « لا تجبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد اليّ أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد اليّ فيها أجبتهم وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

عهد الامان للمصريين

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطي الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هـذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هـذا الـكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا فرساً أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الـكتاب »

ولما تم الصلح على هـذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في

كتابه « ان ما أتاك من العرب اثناء عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندكم بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب اليّ والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متمّ لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم براء وأنا أطلب اليك أن تعطيني ثلاث خصال . الاولى ألا تنقض بالقبط وأدخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلتي وكلتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فانهم أهل لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني . وأما الثالثة فاني أطلب اليك ان أنا مت أن تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم أعواناً

وصف مصر

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولاً بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فاجابه منشطاً وسأله أن يصف له مصر فكتب اليه

«ورد اليّ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ويسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه

وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن المخايل ورق الاصايل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وأن لا يستأدي خراج الثمرة الا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق المال والمآل »

فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ

ولما تم التعاقد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم الى الاسكندرية . أما عمرو فاقام في الحصن حامية وقام برجاله نحو الاسكندرية على نية الفتح وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق ويقيمون الجسور والاسواق . وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فجاء دقائل « ان فسطاط الامير قد عشش اليمام في اعلاه وتحته صغاره لا تستطيع الانتقال » فقال « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » فاقروا الفسطاط في موضعه وأوصى به صاحب القصر

ولا يخفى ماكان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيراً وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك وأخرى في مريوط فتغلب عليها عمرو واحتلها . اما القبط فكانوا أعواناً للمسلمين في كثير من احتياجاتهم حسب امر المقوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتد غيظهم فاصروا على الحرب وأخذوا يعدون مهمات الدفاع

أما عمرو فما زال يتقدم بجيشه الى الاسكندرية وكانت هي قاعدة القطر

المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يرهب الابطال وحاصرها براً[١] . أما بحراً فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج اليه من المؤن والذخائر فطال الحصار رغم الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجاله وخطب فيهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها ودخل عمرو واثنان من قواده هما مسلمة بن مخلد ووردان الا انهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الاسوار وراءهم والقي القبض عليهم واحضروا امام البطريق (الحاكم) فخاطبهم قائلا « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد



ش ٢٥ ـ فسطاط عمرو بن العاص وقد عشش اليمام في اعلاه

اتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم ما لنا أو ان تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون وإلا فاننا نقاتلكم الى ان نفي لامر الله » فبهت الحاكم وداخله الريب فقال لمن في مجلسه من الروم باللغة اليونانية « يظهر ان هذا الرجل من وجوه العرب ولعله أمير القوم فينبغي أن نضرب عنقه » وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قاله البطريق ولكي يطلع عمراً على ذلك لكمه مستهزئاً وناداه منتهراً

« مالك ولهذا القول وأنت أدنى من في الجماعة وأقل فاترك غيرك يتكلم »

فاختلف ظن البطريق وقال « لو كان هذا أمير القوم ما كان يفعل به هكذا» فقال مسلمة « ان أميرنا كان عازماً على الانصراف عنكم وأراد أن يسير من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه فان اطلقتمونا مضينا وعرفناه ما صنعتم بنا من الجميل ويتفق الامر بينكم وننصرف عنكم »

فتوهم البطريق ان الامر كذلك. فاطلقهم فلما خرجوا قال مسلمة لعمرو « قد خلصتك الحكمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وكان الامام عمر قد استبطأ فتح الاسكندرية. فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر. انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما احدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكونوا قد غيرهم ما غير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة في صدور الناس ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم » فجمع عمرو رجاله وتلا عليهم كتاب أمير المؤمنين فأثر فيهم تأثيراً عظيما وعزموا على القيام به

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية وعقب موته انقسامات داخلية وحروب أهلية سفكت فيها الدماء بسبب ادعاء الملك من هم من غير الاسرة الملوكية وانتهى الامر بان أفضى الملك لولده هرقل الثاني أو قسطنطين الثالث وهذا لم يمض عليه مائة يوم من جلوسه حتى قضى مسموماً بيد مارتين امرأة ابيه. ثم بسعاي بطريرك القسطنطينية عقد على الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة أشهر نصب قسطان بن هرقل الثاني. فيقال اجمالا انه كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فازداد الانشقاق وتعاظم الخصام فضعفت همم الاسكندريين وتضاعف يأسهم فهاجر بعضهم بحراً ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعا لم يقووا عليه فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة (أو ٢٢

دسمبر سنة ٦٤٠ الميلاد) واقام فيها احتفالا عظيما تذكاراً لما أوتيه من الفتح المبين ثم كتب الى أمير المؤمنين كتاباً ونصه :

« الى الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص عليك سلام الله تعالى وبركاته أما بعد فقد فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني أصبت فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمائة ملعب للملوك واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منه سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويجيب التماسهم في كل ما كانوا يسألونه منه حتى اجمع الكل على الميل اليه والاذعان لامره

مكتبة الاسكندرية

وذكر ابن القفطي وأبو الفرج الملطي وغيرهما أن عمراً لما فتح الاسكندرية كان في جملة علمائها رجل اسمه يحي الغراماطيقي فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لايفارقه ثم قال له يحي يوماً « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية » فقال له عمرو « هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحي فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها مايخالف كتاب الله فلاحاجة اليها فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب . اه

على ان بعض الكتبة ينزهون الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة . وكنا قد جاريناهم في الطبعة الاولى من هذا الكتاب ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها وقد فصلنا الادلة على ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولا نزال عليه

حتى يتبين لنا ما ينقضه ونحن موالون البحث في هذا الشأن اذ لا غرض لنا غير تقرير الحقيقة

بناء الفسطاط

ثم كتب عمرو الى الخليفة يستفتيه في السكنى بالاسكندرية فسأل الخليفة الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لا أحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فمتى أردت ان اركب اليكم راحلتي حتى أقدم اليكم قدمت » وتلك كانت قاعدة عمر في جمع المسلمين في بقعة لا يحول بينهم وبينه ماء . كذلك فعل ببناء البصرة والكوفة . فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وأمر فشدت الرحال الى حصن بابل فلما بلغوا المكان حيث خيمة الامير رأوها لا تزال منصوبة وفيها اليمام فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط باسم الخيمة فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام أربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب أحزابهم وقبائلهم

حصن بابل أو دير النصارى

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطية قديمة العهد يدعون مجملها قصر الشمع أو دير النصارى أو دير ماري جرجس . فاذا تجاوزت جامع عمرو مسافة بضع دقائق ومصر العتيقة الى عينك رأيت الى يسارك بناء كبيراً يظهر انه مؤلف من عدة أبنية عليها ملامح الشيخوخة وكأنها محاطة بسور كبير من القرميد الاحمر عند أسفله باب قديم مصفح بالحديد الغليظ يتصل اليه بانحدار لا يقل عن ثلاثة أذرع هو أحد أبواب الحصن . وتدخل من هذا الباب في زقاق ضيق تتصل منه الى أزقة كثيرة كلها ضيق من النمط القديم تستطرق الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة أبي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيس لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك . وقد زرت جميع هذه الكنائس فرأيت انها مع تقادم عهدها في البناء قد جدد فيها قسم عظيم وجميعها داخلة في بناء الحصن

ومما يستحق الانتباه اني شاهدت تحت كنيسة أبي سرجة مغارة ينزل اليها

بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر ويلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلي فيها المسيحيون في أيام الاضطهاد الشديد لانها تظهر المتأمل مبنية على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة أعمدة بينها نقر في جدار المغارة أشبه بالمذابح وفي المغارة جرن للعمادة

أما الحصن فاذا تأملت جدرانه الباقية من الخارج رأيتها على نمط البناء الروماني وترى أحدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في أحدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلقة سميت كذلك لارتفاعها وقد جدد بناؤها منذ بضع سنين . وبين البرجين باب مسدود وقد طمرت الاتربة جزءه السفلي ويشاهد في جدران أخرى آثار مثل هذين البرجين . وتشير هذه الابراج الى ما كان عليه هذا الحصن من المناعة (انظر ش ٢٤) فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة أشهر . أما محلة نابوليون التي قد أقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن ولكن يشاهد الى جنوبي الحصن ببضع مئات من الامتار دير يقال له دير بابلون يدخل اليه من باب ضيق مصفح بالحديد وفيه الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير أشبه ببناء الحصون منه بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلين يقال لهما تل غراب ولم يبق الآن غير هذا الدير حاملا لاسم تلك المحلة

أما الفسطاط فقد خربت ولم يبق منها الا آكام من الاتربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة يحدها شمالا أطراف القاهرة وجنوباً السبع السواقي ومصر القديمة وشرقاً آكام من الاتربة متصلة بالقرافة وغرباً مدافن النصارى

وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة وجعل على الوجه القبلي عبد الله بن سعد بن ابي سرح وتولى بنفسه صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مليوناً من الدنانير سنوياً

وكان في جملة القبائل التي شهدت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همذان فهذه أحبت النزول في الجيزة مع من والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما أستشير أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بما فتح الله عليهم وبما أرادت همذان فاجابه يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له « كيف رضيت أن تفرق أصحابك بان يحول بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فلعلك لا تقدر

على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان ابوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فيء المسلمين حصناً » فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا وأعجبهم موضعهم فبنى لهم حصناً يقيهم اذا فاجأهم أمر

ثم سار عبد الله بن سعد الى الوجه القبلي لتدويخ البلاد فلم يلق معارضاً وما زال حتى أتى بلاد النوبة ففتحها كلها

اصلاح البلاد وتنظيمها

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او اعمال يرأس كلاًّ منها حاكم قبطي تأتيه القضايا فينظر فيها ويصدر أحكامه الى من هم تحت حكمه رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا رأوها منذ أزمان وساد الامن في بلادهم

قام عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انه اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهما ويجعلون عليها من الحلي أفضلها ثم يلقونها في النيل تحية له . فابطل عمرو هذه العادة وعوّض عن الجارية بتمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لا بأس من ذكرها وهي انه اتفق للنيل في السنة التالية للفتح انه لم يرتفع الارتفاع اللازم للري . ولما دخل شهر بؤونة القبطي قال له أهل البلاد « أيها الامير ان انيلنا هذا سنّة لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمرو « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله » فمضى بؤونة وابيب ومسرى وهو لا يجري قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عما كان فاجابه « انك قد اصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها في داخل النيل اذا أتاك كتابي »

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها « من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر . أما بعد فان كنت تجري بأمرك فلا تجر واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بأمره فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك » فالقى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد همّ أهل مصر

بالخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ١٦ ذراعاً فلما رأى المصريون ذلك تعجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة وأوامره وأبطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزاً عنها تمثالا من طين يصنعونه كل سنة عند فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زال ذلك جارياً الى عهد غير بعيد أثراً لما كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن الفيضان



ش ٢٦ — ضحية النيل

ثم اخذ عمرو في تنظيم القضاء وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب ماليين او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدّون بالرعية كيف شاءوا وليس من ينصف فأوجد لهم عمرو المحاكم النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بدّ لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانه أول من أوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين . أما

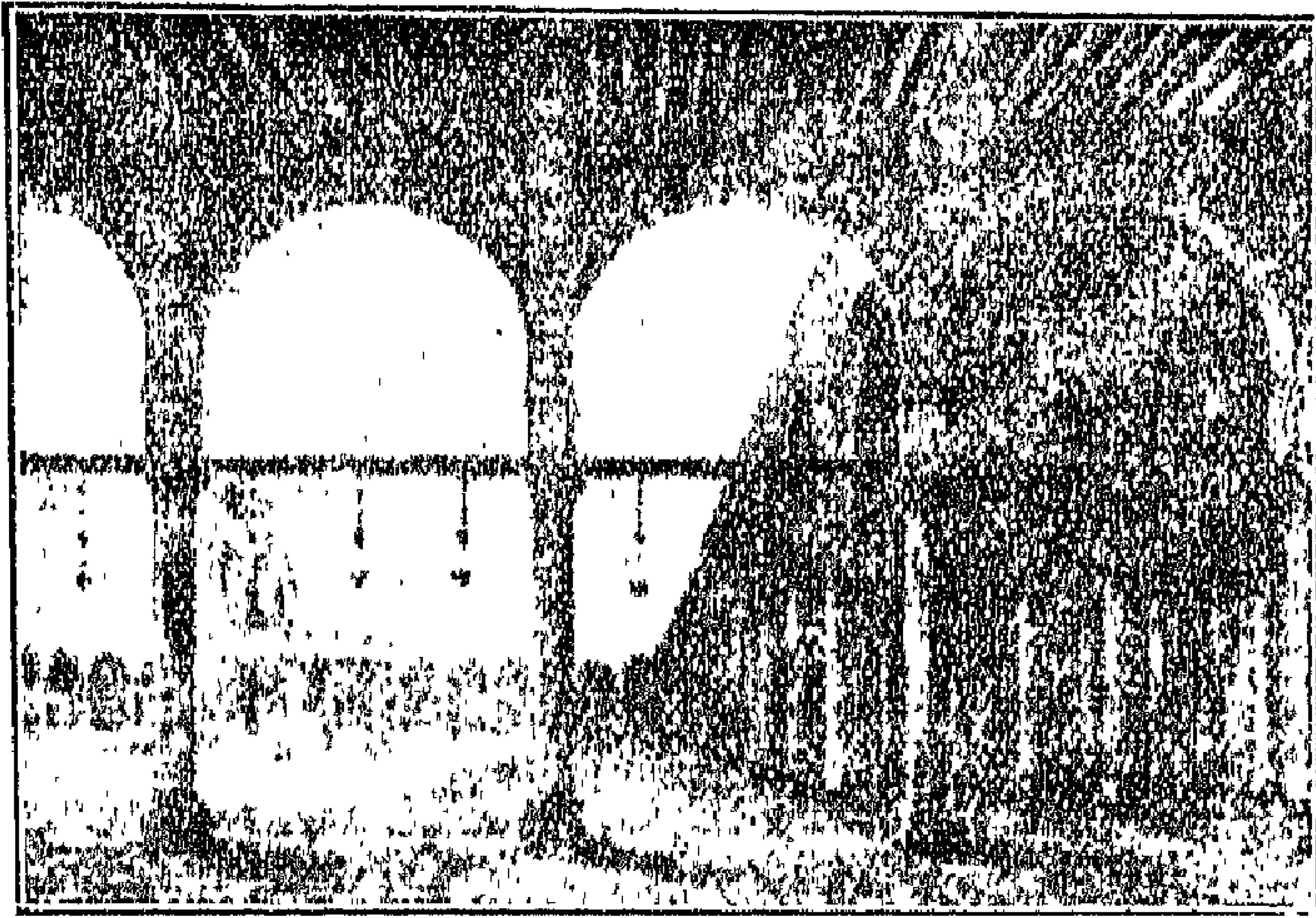
أعضاؤها فينتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتستأنف عند الاقتضاء لنقضها أو ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال والقضايا التي فيها أحد الخصمين قبطي كان لنواب القبط حق الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

أما أعطيات الجيش فكانت تصرف مما يجيء من أموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمال والاجناد على قدر مراتبهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال . وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال ذلك جارياً في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ أيام صلاح الدين تعطى اقطاعات تفرق على السلطان وأمرائه وأجناده

وما فتىء عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوته في اكتسابها . قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة اليعقوبية وقد اضطهده هرقل ملك الروم اضطهاداً عظيماً لمحافظته على خطته الدينية وهو لا يبالي بما كان يهدده من المخاوف والاخطار فشدد هرقل عليه النكير ومنعه من السلطة الدينية وهدده بالقتل ففر يطلب ملجأ في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامه في زمن الحصار رجلا كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاءوا . وكانت مصر حينئذ منقسمة كما تقدم الى قسمين دينيين ملكيين ويعقوبيين وكان على رياسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك وأساقفة اقامهم هرقل باختياره غير ان الشعب كان يعاملهم بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرياسة الحقيقية الا لبنيامين المختار قديماً منهم . فعندما بادت سلطة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلا ورفقاً عرضوا أمرهم الى عمرو يلتمسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاه عمرو وطيب خاطره وأقامه في منصبه وخلع الذين كانوا مكانه فحسب القبط هذا الامر منة وفضلا . وازدادوا ثقة وميلا للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويبيحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل وفي وسط جيش الاسلام على حين انه لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلون ويخطبون في الخلاء

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعة وشكلاً فبناه في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعه خان استولى عليه احد رجال عمرو عند الفتح فلما عادوا من الاسكندرية طلب اليه عمرو أن يجعل منزله هذا مسجداً فرضي

وكان النيل يجري بقربه ثم انحسر عنه بعد ذلك غرباً . وأتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها أعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام أقيمت بها جدرانه وقد قيل ان القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هـذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يصلون فيه الجمعة الاخيرة من رمضان . مساحته ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رمم مراراً بحيث لم يبق من البناء الاصلي الا شيء زهيد . ومن جملة من جدد في بنائه السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخرهم مراد بك وهـذا لم يكن يحاول ذلك الا طمعاً بخبأة أو عز اليه انها مدفونة في بعض أجزائه كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن رأيته كالخراب وقد سقطت أعمدته الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنه حنفية وشجرة وفي أرض ليوانه صهريج



ش ٢٧ — جامع عمرو

وفي هـذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجلس فيه زمان تثين فيه قبالة الارضين (التزامها) ويجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرب المشتري بيده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله

ومن يقتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاة في طلبه مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكبوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديداً فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد وينقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى أن بنى احمد بن طولون جامعه

مخابرات بين ابن الخطاب وابن العاص

والمفتتحون أجدر الناس باتباع الرفق بمن أصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد أن كانوا أصحاب البلاد وبيدهم الحل والعقد والظاهر ان عمراً كان على بينة من ذلك وقد جرى عليه لانه كان يتحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حد أن يوقع فيه مظنة الخليفة ويحكى ان الخليفة استبطأ الخراج من عمرو فكتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو . اما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرتُ في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع اليّ ذلك فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي . لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعاً نطعاً ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك

فيه فلا تجزع ابا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو . أما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام والعمري للخراج يومئذ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع درها . واكثرت في كتابك وانبت وعرضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمري بالمقاطعات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله (صلعم) ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل شيئاً فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قيلنا . معاذ الله من تلك الطعم وشر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه اخاً والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً واكراماً . وما عملت من عمل ارى عليه فيه متعلقاً ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنتَ من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن أشياء كنتُ بها عالماً وكان اللسان بها مني ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا تجهل »

فكتب اليه الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو . اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك اليَّ بثنيات الطرق وقد علمت اني لست أرضى منك الا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو . اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطئني بالخراج ويزعم اني أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق

واني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني ان تدرك غلتهم فنظرت المسلمين فكان الرفق بهم خيراً من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنه والسلام » *

فكف الخليفة وقد كان محمولاً على ما أنبه به ممن كان يناظر عمراً على ولاية مصر

فتح دمياط وتانيس

فهذه المعاملة وأمثالها جعلت للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فرضخوا لهم الا الهاموك حاكم دمياط وهو من أنسباء المقوقس فانه امتنع عن التسليم واستعد للحرب فأنفذ اليه عمرو المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قتل ابنه بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه أصحابه فاستشارهم في أمره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال له « أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء امرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والرأي ان تعقد مع القوم صلحاً تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس »

فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد فاستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط وأخبروا عمراً بذلك . ثم خرج شطا بن الهاموك بعد أن أسلم الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وجعلهم مدداً للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانيس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أنكل فيهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط يحيون فيه ليلة نصف شعبان من كل سنة . ولم يكف المسلمون عن تانيس حتى فتحوها

الفتح الاسلامي احتلال عسكري

لما فتح المسلمون البلاد لم يتولوا حكومتها كما رأيت بل نزلوا خارجها في معسكراتهم كالمحتلين يستولون على الخراج والجزية ويراقبون الاحكام . فعمرو بن

العاص وجنده لما فتحوا مصر نزلوا في الفسطاط والاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط . ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد حتى اذا جاء أوان الربيع انتشر الاتباع في القرى لرعي الدواب ومعهم طوائف من السادات

وكان الخليفة عمر بن الخطاب مع ذلك ينهي الجند عن الزرع ويبعث الى أمراء الاجناد باعطاء الرعية أعطياتهم وأرزاق عيالهم وينهاهم عن الزرع

وكان عمرو يقول لرجاله اذا رجعوا من غزوهم « انه قد حضر الربيع فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه ربعه فليفعل ولا أعلمن ما ينفع من أسمن نفسه وأهزل فرسه . فاذا حمض اللبن وكثر الذباب ولوى العود فارجعوا الى قيروتكم » وذكر المقريزي خطبة لعمرو في هـذا المعنى رواها عن بحير بن ذاخر المعافري وفيها وصف عمرو بن العاص وأبهته . قال المعافري :

« رحت أنا ووالدي الى صلاة الجمعة تهجيراً وذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة فأطلنا الركوع اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء فقال يا بني هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن به العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبـة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكاة وصلة الارحام ويأمر بالاقتصاد وينهي عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال على ذلك فقال :

خطبة عمرو

« يا معشر الناس اياكم وخلالا اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييق المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزاء وذلت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر

خفي لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره و لبنه وخرافه وصيده واربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . واياكم والمومسات المعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ما أتى رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الارض فقال له ابو بكر رضي الله عنه ولم يا رسول الله . قال لانهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته أو عسرته . أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » اهـ

خليج امير المؤمنين

ومن الاعمال العظيمة التي أجريت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر سنة ٢٣ هـ ودعاه خليج أمير المؤمنين . وسبب ذلك ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو ابن العاص ما نصه : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام . أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت أنت ومن معك ان أهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « الى أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » أراد بذلك انه أرسل له قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسع بها على

الناس ودفع الى أهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيره . فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو أن يقدم اليه هو وجماعته من أهل مصر فقدموا . فانفرد بعمرو وقال له « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت أن تغلب على رحلي وقد عرفت الذي أصابها . وليس جند من الاجناد أرجى عندي أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى » فقال عمرو « ما شئت يا أمير المؤمنين قد عرفت انه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الاسلام من خليج كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار فان شئت ان نحفره فننشىء فيه سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلته » فقال الخليفة « نعم فافعل » ولما خرج عمرو من حضرة أمير المؤمنين لاقاه الذين اتوا معه من مصر فذكر لهم ماكان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت به أصلح الله الامير أتريد ان تخرج طعام أرضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هـذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان أوان عوده الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال له « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسين حفره » فاجاب عمرو « يا أمير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة » فقال له « أما والذي نفسي بيده اني لاظنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك أهل أرضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك أعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيـه سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني سأجعل من ذلك امراً ألا يحمل في هذا البحر الا رزق أهل المدينة وأهل مكة » فاذعن عمرو وعاد الى مصر وباشر لساعته حفر الخليج ومعالجته وجعل فيه السفن ودعاه « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة فأهمل وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في أيام الخديوي اسماعيل باشا

وفي خلال ذلك تجند عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحه أهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها أيضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفان

من سنة ٢٣ – ٣٥ هـ او من ٦٤٤ – ٦٥٥ م

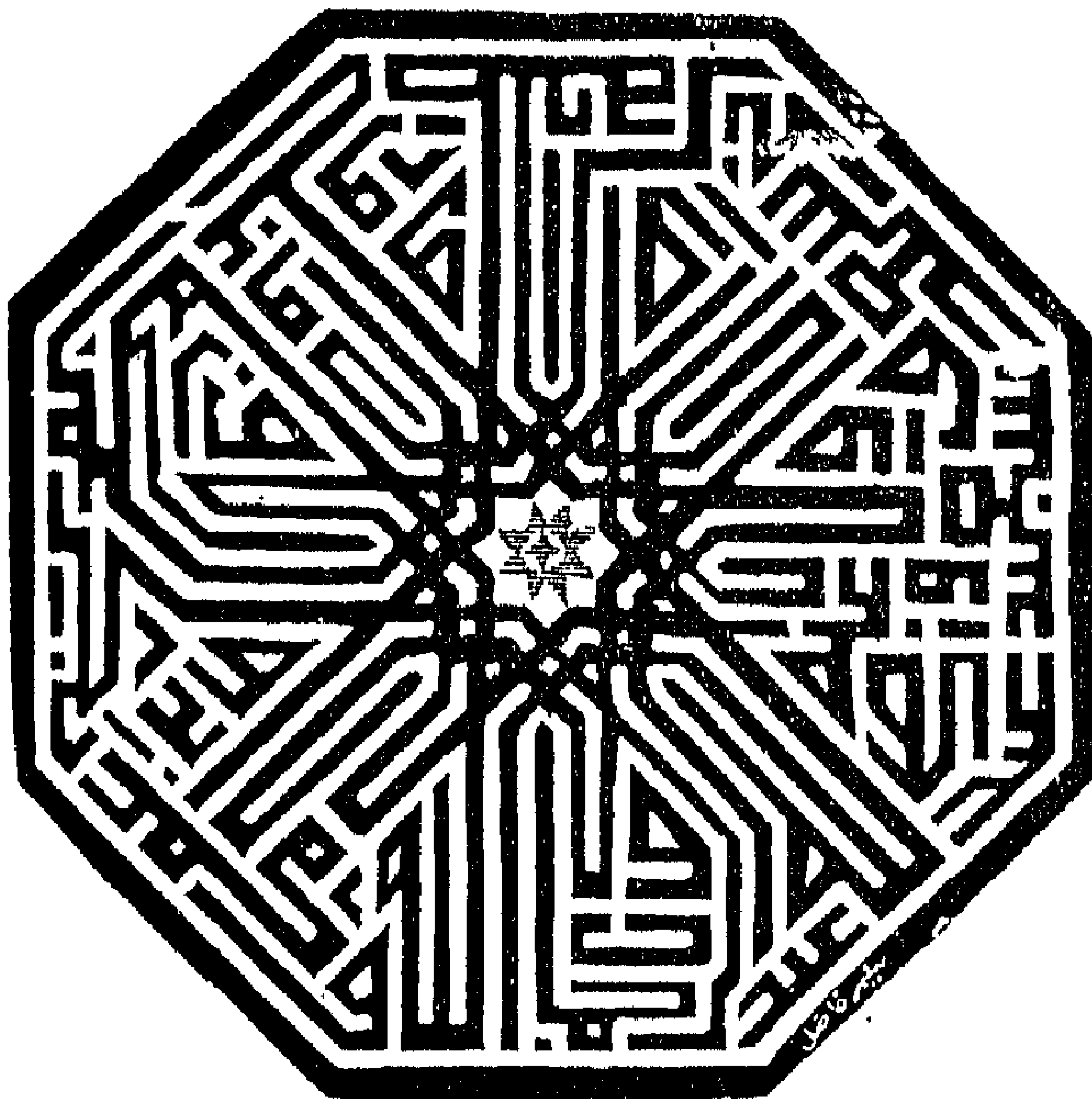
وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قتل الامام عمر بن الخطاب قتله عبد فارسي يقال له فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبة في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً

ونادى قبل وفاته بعبد الرحمن بن عوف فصلى في الناس ثم قيل لو استخلفت يا امير المؤمنين فقال « دعوني اعهد الى النفر الذين توفي رسول الله (صلعم) وهو عنهم راض » ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فان جاء والا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راض واني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا الى حجرة عائشة باذنها فتشاوروا فيها ثلاثة أيام ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم اميرٌ منكم . ويحضر عبد الله بن عمر (ابنه) مشيراً ولا شيء له من الامر . وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه أمركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فامضوا أمركم . انشدك الله يا علي ان وُليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس . انشدك الله يا عثمان ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني معيط على رقاب الناس . انشدك الله يا سعد ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل أقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصل بالناس صهيب » . وترى في الشكل الثامن والعشرين اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم به عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخاه من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في امارة عمرو . فلما تولى امارة مصر جبى خراجها للسنة الاولى ١٤ مليوناً من الدنانير وكان عمرو لا يجبي اكثر من ١٢ مليوناً فقال عثمان لعمرو « يا ابا عبد الله

درّت اللقحة بأكثر من درها الاول » فاجابه عمرو « لقد اضررتم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل »

وفي اثناء ذلك أنفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجو خالياً لهم بعد موت الامام عمر لانهُ كان يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية .



ش ٢٨ ـ اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

وكان على الولاء لا يغفلها ويكثف مرابطها ولا يأمن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصي . فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم . أما المقوقس ومن معه من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل أهل مصر الخليفة أن يقر عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . فنزل عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم . وكان حول الاسكندرية سور فحلف عمرو لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان . فقال خارجة

ابن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل أن يكثر مددهم فلا آمن أن تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لا ولكن أدعهم حتى يصيروا الي فانهم يصيبون من مرّوا به فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فسار اليهم عمرو ولم يتعرض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدأت الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً وكانت الروم قد تأهبت صفوفاً خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى أبا مذحج فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم القى الرومي الرمح وأخذ السيف فالقى حومل رمحه وأخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مذحج فيجيبه لبيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كأن على رؤوسهم الطير فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتمله حومل واخترط خنجراً كان في منطقته فضربه به في نحره فسقط ميتاً فوثب اليه وأخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطم . فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية وقتلوا منويل الخصى وأثخنوا في رجاله فاستنجدوا المسلمين فامر عمرو برفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً دعاه مسجد الرحمة اشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة . ثم جمع ما أصاب منهم فجاءه اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا « قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك » فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه واقاموا عليه البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حل لك ما صنعت بنا فقد كان لنا أن تقاتل عنا لاننا في ذمتك ولم ننقض فاما من نقض فابعده الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذاً كقابض على البقرة بقرنيها وآخر يستدرها » فأبى عمرو وتنحى عن مصر فعاد عليها عبد الله بن سعد

وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبد الله بن سعد افريقية فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمه

وفي سنة ٢٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على

جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم أن يوذنوا المسلمين أن يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم

وفي سنة ٣١ ﻫ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبد الله بن سعد وحصر رجالها في دنقله حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصلح وخرج الى عبد الله وأبدى ضعفاً وتواضعاً فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ثم قرر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأساً في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري أيضاً

مقتل عثمان

وفي سنة ٣٣ ﻫ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعماله وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى أهل المدينة فجاؤا الى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه فقال « أشيروا عليّ وأنتم شهود المؤمنين » قالوا « تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين » ففعل فجاءته الاخبار فكتب الى أهل الامصار « اني قد رفع اليّ أهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد أخذتهم أن يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني أو من عمالي أو تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين »

وفي سنة ٣٥ ﻫ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليه في الموسم وفيهم عبد الله ابن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة « ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة واني أخشى والله أن يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابه سيفتح ولا أحب أن يكون لاحد عليّ حجة في فتحه وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم » ثم قدم المدينة ودعا علياً وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلمهم فاظهروا له وجه اجحافه بالحقوق

وكان عبد الله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومه الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليه عصبة وأخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان وأسعر البلاد وعرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزلته شيعة عثمان ونابذوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ويسر بن قرطاط ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وما صنعه ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح أمرهم فخرج اليه جماعة

فقلبوا فسطاطه وشجوه وسبوه فركب وعاد راجعاً . ولما أقبل عبد الله بن سعد من مكة منعوه أن يدخل فانصرف الى عسقلان

وازداد المسلمون تعصباً على عثمان فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم الى المدينة خفيةً فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج فلما أتوا المدينة واجه المصريون علياً وهو عند أحجار الزيت فعرضوا اليه أمرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعد . فتفرق أهل المدينة ظناً منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد أحاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كف يده فغدا عليهم عليّ فقال « ما ردكم بعد ذهابكم » قالوا « أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان » فدخل علي على عثمان وأخبره برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم فنادوه من كل ناحية « اتق الله يا عثمان وتب اليه » وكان أولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوته وقال « انا أول من اتعظ واستغفر الله مما فعلت وأتوب اليه فليأت أشرافكم يروني رأيهم فوالله ان ردني الحق عبداً لاستن بسنة العبد ولاذان ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه فوالله لاعطينكم الرضا ولا أحتجب عنكم » . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزله فدخل عليه علي ومحمد بن مسلمة وسألوه عن اعتراضه على ما يقوله أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم ثم دخل عليه المصريون وقالوا له « جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا رسولك ناقلاً كتاباً وفيه أمرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حذيفة) بجلدنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليه خاتمك » فحلف عثمان لا كتب ولا امر ولا علم . فقالوا « كيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحققت الخلع على التقديرين اذ لا يحل أن يولى الامور من ينتهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك » فقال « لا أنزع ما البسني الله ولكني أتوب وارجع » قالوا « رأيناك تتوب وتعود فلا بد من قتلك » وخرجوا . وبقي محصوراً اربعين يوماً منع عنه الماء في أواخرها . وفي ١٨ ذي الحجة دخل عليه أربعة فيهم محمد بن ابي بكر فقتلوه والقرآن في يده فتخضب بالدماء . وهجمت نائلة امرأته لتحميه بيدها فاصيبت بضربة قطعت أصابعها . وبقي في بيته ثلاثاً ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم

الى علي فأذن لهما بدفنه فخرجا به ومعهما الزبير والحسن وابو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب بعد أن تولى الخلافة ١٢ سنة الا ١٢ يوماً

ولما علم أهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون له فيها وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن أبي حذيفة خيلا فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن أبي حذيفة جيشاً آخر فالتقى به في خربتا في أول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصرة لشيعة عثمان وانهزم الجيش واقامت شيعة عثمان في خربتا

خلافة علي بن أبي طالب

من سنة ٣٥ ـ ٤١ هـ أو من ٦٥٥ ـ ٦٦١ م

أما ما كان من أمر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي يبايعونه فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خير من ان اكون أميراً ومن اخترتم رضيته » فالحوا عليه قائلين « لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك » فبايعوه في المسجد بالمدينة يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ وأول من بايعه طلحة ثم الزبير ثم بايعه الناس وبايعته الانصار وتأخر منهم قليلون فخطب خطبته الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « ان الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يودكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل دم امرء مسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم أطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض »

ثم رجع الى بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدد من أصحابه فقالوا « يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هـذا الرجل وأحلوا بانفسهم » فقال « يا أخوتاه اني لست اجهل ماتعلمون ولكن كيف اصنع

بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم أخلاطكم يسومونكم ما شاؤا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون » قالوا لا . فقال « فلا والله لا أرى الا رأياً ترونه أبداً الا ان يشاء الله . ان هـذا الامر أمر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذاً بها أبداً ان الناس من هـذا الامر ان حرّك على أمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » فخرجوا من عنده وقد أضمروا له شراً

وكان معاوية لما توجه الى ولايته في الشام أخذ قميص عثمان الملطخ بالدماء وأصابع نائلة امرأته وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في أذهانهم ان قاتل عثمان انما هو علي ويحثهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد النكير على علي فالتفت حوله دعاته رغبة في الانتقام

ومما زاد اعداء الامام علي عدداً انه لم تدخل سنة ٣٦ ﻫ حتى عزل جميع من كانوا على الامصار في أيام عثمان وولى مكانهم من رأى من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبد الله بن عباس على اليمن . ولما علم بقتل محمد بن أبي حذيفة ولى مكانه قيس بن سـعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام عوضاً من معاوية . أما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت قال أميرٌ قالوا على أي شيء قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلا بك وان كان بعثك غيره فارجع » قال أما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى علي

قيس بن سعد على مصر

أما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي وكان من ذوي الرأي والبأس وكان ضخما جسيماً صغير الرأس طويلا جداً مطاعاً جواداً كريماً يعد من دهاة العرب ولما ولاه عليٌّ على مصر قال له « سر الى مصر فقد وليتكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقاتك ومن أحببت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فان ذلك أرهب لعدوك وأعز لوليك وأحسن الى المحسن وأشدّ على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن »

فقال له قيس « اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم أدخلها الا بجند آتيها

به من المدينة لا أدخلها ابداً فانا أدع ذلك الجند لك تبعثهم في وجوهك » فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من أصحابه فصعد المنبر وأمر بكتاب الخليفة فقرئ على أهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته واعانته على الحق وقال « الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر . وبعث عليها عماله الا خربتا وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمه يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوه الى الطلب بدم عثمان وكان مسلمة بن مخلد قد اظهر الطلب أيضاً بدم عثمان فارسل اليه قيس « ويحك أعليَّ تثب فوالله ما أحب ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك » فبعث اليه مسلمة « اني كافٌّ عنك ما دمت على مصر »

وكان معاوية لا يزال ساعياً على علي فلما رأى مصر قد استقام أمرها خاف ان يقبل علي في العراق وقيس في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس « سلام عليك اما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط أو شتيمة رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيما وجئتم أمراً اداًّ فتب الى الله يا قيس فانك من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنا انه هو الذي أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني ما شئت فاني أعطيك واكتب اليَّ برأيك »

فلما جاءه الكتاب أحب ان يرافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل الى حربه فكتب اليه « أما بعد فاني لم اقارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيه قياماً عشيرتي وأما متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة وليس هو مما يسرع اليه . وانا كافٌّ عنك وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى » فلما قرأ معاوية كتابه رآه متقارباً متباعداً فكتب اليه « أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فاعدك سلماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصانع الخادع وينخدع المكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام »

فلما قرأ قيس الكتاب ورأى انه لا تفيد معه المرافعة والمماطلة عمد الى مكاشفته عما في نفسه فكتب اليه « أما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك اياي أتسومني الخروج عن طاعة أولى الناس بالامارة واقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الامر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله وسيلة ولد الضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس . واما قولك اني مالئ عليك مصر خيلا ورجلا فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون أهم اليك انك لذو جد والسلام »

فلما رأى معاوية كتابه قنط منه وثقل عليه مكانه ولم تنجع فيه حيله فجعل يسعى في كيده افساداً بينه وبين علي فقال لاهل الشام « لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته سراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده من أهل خربتا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم » واتماماً لمكيدته افتعل كتاباً عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على أهل الشام فبلغ ذلك علياً فاعظمه واكبره فدعى ابنيه وعبد الله بن جعفر واعلمهم بذلك

فقال ابن جعفر « يا أمير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك اعزل قيس عن مصر » قال علي « اني والله ما أصدق بهذا عنه » فقال عبد الله اعزله فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم فقال ابن جعفر « ما اخوفني أن يكون ذلك ممالأة منه فمره بقتالهم » فكتب اليه يأمره بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابه « أما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأي تركهم والسلام »

محمد بن أبي بكر على مصر

فقرأ عليّ الكتاب بحضور ابن جعفر فقال له « يا أمير المؤمنين ابعث محمد ابن أبي بكر على مصر واعزل قيساً » فبعث علي محمد بن أبي بكر الى مصر فلما وصلها قال له قيس « ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل احد بيني وبينه ؟ » قال لا . وهذا السلطان سلطانك فقال قيس « والله لا أقيم » وخرج من

مصر مقبلا الى المدينة وسار الى علي واخبره الخبر فعلم انه كان يقاسي أموراً عظاماً من المكايدة

اما محمد بن ابي بكر لما قدم مصر على ما تقدم جمع اليه سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب أمير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون . الا ان أمير المؤمنين ولاني أمركم وعهد اليّ ما سمعتم وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فان يكن ما ترون من امارتي وأعمالي طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادي له وان رأيتم عاملا لي عمل بغير الحق فارفعوا اليّ وعاتبوني فيه فاني بذلك أسعد وأنتم جديرون وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتف عليه قوم كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

فتح عمرو بن العاص مصر ثانية

أما معاوية فكان قد استفحل امره وكثر متشيعوه فبايعوه على الشام ولم يكن له همّ الا مصر وكان يخشى منها لقربها منه وكان يعتقد انه اذا ظهر عليها مكنته من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها له . فاجتمع بعمرو بن العاص وحبيب ابن مسلمة وغيرهما من سراة قومه وقال لهم « أتدرون لما جمعتكم فاني جمعتكم لامر لي مهم »

فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الرأي رأيت في افتتاحها فان فيه عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الشقاق عليك »

فقال معاوية « أهمك يا ابن العاص ما أهمك » وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال علي على ان له مصر طعمة ما بقي حياً . فنظر معاوية الى من حضر من أصحابه وقال لهم « لقد أصاب ابو عبد الله فما ترون »

فقالوا « ما نرى الا ما رأى عمرو » قال « فكيف أصنع فان عمراً لم يفسر كيف أصنع »

فقال عمرو « أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتثق به فيأتي مصر فانه سيأتيه من كان على مثل رأينا فيظاهره على عدونا فان اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله »

قال معاوية « أرى ان نكاتب من بها من شيعتنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ونكاتب من بها من عدونا فندعوهم الى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا بغير قتال فذاك الذي اردنا والا كان حربهم من بعد ذلك . إنك يا ابن العاص بورك لك بالشدة والعجلة وانا بورك لي بالتؤدة »

فقال عمرو « افعل ما ترى فما ارى امرنا يصير الا الحرب »

فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالفا علياً يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدها المساواة في سلطانه فاجاب مسلمة ابن مخلد الانصاري عن نفسه وعن ابن حديج بما نصه « أما بعد فان الامر الذي بذلنا له انفسنا واتبعنا به أمر الله امرٌ نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا . أما ما ذكرت من المواساة في سلطانك فبالله ان ذلك امرٌ ما له نهضنا ولا اياه اردنا فعجل الينا بخيلك ورجلك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائبين فان يأتني مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاءه الكتاب وهو في فلسطين فدعا اولئك النفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى أن تبعث جنداً فمهد الى عمرو ان يسير في ستة آلاف رجل وأوصاه بالتؤدة وترك العجلة

مقتل محمد بن ابي بكر

فسار عمرو فنزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليه دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب الى محمد بن ابي بكر كتاباً ونصه « اما بعد فتنح عني بدمك يا ابن ابي بكر فاني لا احب ان يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معه كتاب معاوية بالمعنى ايضاً . فارسل محمد الكتابين الى علي واخبره بنزول عمرو بارض مصر وانه رأى التثاقل ممن عنده ويستمده فكتب اليه علي يأمره ان يضم شيعته اليه ويعده انفاذ الجيوش اليه ويأمره بالصبر لعدوه وقتاله

فقام محمد بن ابي بكر في الناس وندبهم الى الخروج على عدوهم فانضم اليه ثلاثة آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمده فامده والتقى الجيشان فظهرت رجال عمرو وتفرقت أصحاب ابن ابي بكر . فما زال عمرو بجيشه حتى أقبل على محمد وكان قد تخلى عنه رجاله ففر من وجه عمرو يطلب ملجأ فانتهى الى خربة بناحية الطريق فاوى اليها . وسار عمرو حتى دخل الفسطاط

ثم ارسل معاوية بن حديج في طلب محمد بن ابي بكر فانتهى الى جماعة على قارعة الطريق فسألهم عنه فقال احدهم « دخلت تلك الخربة فرأيت فيها رجلاً جالساً » فقال ابن حديج « هو هو فامسكوه » فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً واقبلوا به نحو الفسطاط فوثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر الى عمرو وكان في جنده وقال « أتقتل اخي صبراً فابعث الى ابن حديج فانهه عنه » فبعث اليه يأمره ان يأتيه به فجاءوا به وقد أعياه الظمأ فقال لهم « اسقوني ماء »

فقال له معاوية بن حديج « لا سقاني الله ان سقيتك قطرة ابداً . انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والفساق »

فقال له محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي أولياءه ويظمىء أعداءه أنت وأمثالك . أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا » فقال له ابن حديج « أتدري ما اصنع بك ؟ ادخلك جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار »

فقال محمد « ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثله باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى أوليائك ومعاوية وعمرو ناراً تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً » فغضب منه وقتله وجعله في جيفة حمار والقاه في النار . فلما بلغ ذلك عائشة أخته جزعت عليه جزعاً شديداً وقنتت في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو وأخذت عيال محمد اليها فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها ولم تعد تأكل من ذلك الوقت شواء . هكذا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

أما الامام علي فكان قد اجهد نفسه ليجمع مدداً الى محمد فلم يأته من رجاله الا نفر قليل وبينما هو يحث الناس على ذلك جاءه الخبر بقتل محمد بن أبي بكر وفتح مصر فاشتد غيظه وخطب في الناس قائلا :

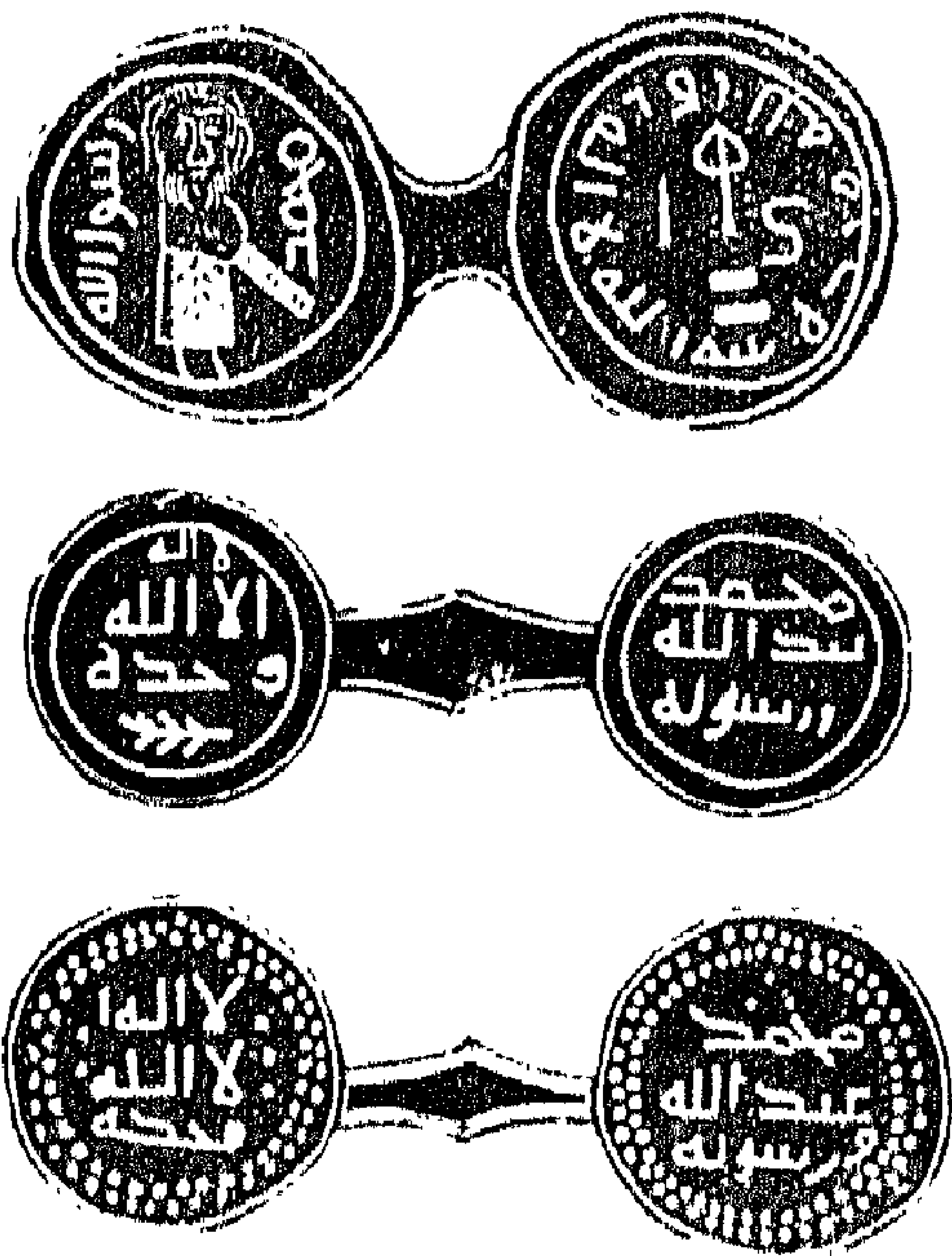
« ألا ان مصر قد افتتحها أهل الفجور أولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً . ألا وان محمد بن أبي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه . اما والله ان كان كما علمت لممن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن اني والله ما ألوم نفسي على تقصير واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لاتقدم على الامر وأعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستصرخكم معلناً وأناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولا ولا تطيعون لي

أمراً حتى تصير بي الامور الى عواقب المساءة فانتم القوم لا يدرك بكم الثأر ولا تنقض بكم الاوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق وتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الاجر ثم خرج اليّ منكم جنيد متذانب كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافٍّ لكم » ثم نزل

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن أبي طالب وبويع ابنه الحسن مكانه وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة أشهر فدخلت سنة ٤١ هـ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان خليفة الشام ومصر وهذا لم يحل عن مقصده حتى بلغه فنودي به أميراً المؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هـ

نقود الخلفاء الراشدين

أما النقود فقد كان العرب في الجاهلية يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد وأسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم . فكان في جملة عوامله السكة . فضربوا الدراهم والدنانير أولا مشتركة بينهم وبين الروم أو الفرس . منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (XAΛΕΔ) وهذه الاحرف (BON) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد

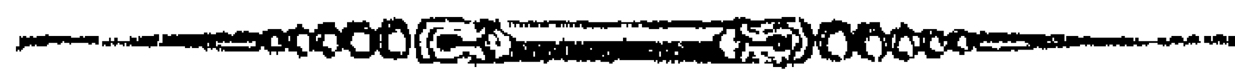


ش ٢٩ — نقود الخلفاء الراشدين

وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية . ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه (راجع الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي)

وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » أي كل هنيئاً

وذكر المرحوم جودت باشا انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين اقدمها ضرب سنة ٢٨ ﻫ في قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ ﻫ على دائرته هذه العبارة ايضاً . ونقداً ضرب سنة ٦١ ﻫ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوي . وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها رسوم قلدوا بها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٩)



الدولة الاموية

من سنة ٤١ ــ ١٣٢ ﻫ أو من ٦٦١ ــ ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن أبي سفيان

من سنة ٤١ ــ ٦٠ ﻫ أو من ٦٦١ ــ ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أمية وأولهم معاوية بن أبي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فانحصرت أعقابه . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من أهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمرو بن العاص لما عرف من علو همته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر في شمالي افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة أيضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو لبدة فغزواهما في سنة ٤٣ ﻫ ولما قفلا كان عمرو شديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من

يكفوا عنهـا الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبد الله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءه الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب . وكانت وفاته في حوارين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سـنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد
ثم عبد الله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ او من ٦٨٤ ـ ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سـنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهـل الحجاز بمبايعة عبد الله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما رأى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره « الدنيا غرور »

وكان عبد الله بن الزبير رجلا مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما أرسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله ابن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبد الله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس

معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه . ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على أعقابهم الى الشام فاستولى عبد الله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى ألحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مر وكان عبد الله بن الزبير على بينة من امر مصر وأهميتها فانفذ اليه عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم وأوصاه أن يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يقبل على دعوة عبد الله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبد الله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية بن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسما من مصر يدعو باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بخلافته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلا فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ وأخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غل

اما أهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من بني أمية فعظم ذلك على عبد الله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبد الله

وكان مروان قد أنفذ ابنه عبد العزيز في جيش من أهل الشام لفتح مصر اما بعد ظفره بجيش ابن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك أخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال أثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المعارية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يغامر أحدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في

يكفوا عنهـا الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبد الله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءه الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب . وكانت وفاته في حوارين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سـنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبد الله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ او من ٦٨٤ ـ ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سـنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهـل الحجاز بمبايعة عبد الله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما رأى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره « الدنيا غرور »

وكان عبد الله بن الزبير رجلا مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما أرسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله ابن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبد الله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس

معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه . ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على أعقابهم الى الشام فاستولى عبد الله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى ألحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مر وكان عبد الله بن الزبير على بينة من امر مصر وأهميتها فانفذ اليه عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم وأوصاه أن يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يقبل على دعوة عبد الله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبد الله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية بن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسما من مصر يدعو باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بخلافته . ثم همّ باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلا فوصلها في شعبان سنة ٦٤ ﻫ وأخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غلّ

اما أهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من بني أمية فعظم ذلك على عبد الله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبد الله

وكان مروان قد أنفذ ابنه عبد العزيز في جيش من أهل الشام لفتح مصر اما بعد ظفره بجيش ابن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك أخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال أثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفر أحدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في

نخبة من رجال مروان قاصداً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم ير بداً من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة امارة ابن جحدم تسعة اشهر . وفي هذا اليوم توفي عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازته الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف أن يستغيبوه ويعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخلع بيعة ابن الزبير فقطع أعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس وأجمعوا على مبايعته

فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهمَّ بالرحيل فقال له ابنه « يا أمير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها أحد من بني أبي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم وأوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقد قومه اليك وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً وجعلت لك موسى ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون أميراً باقصى الارض . اليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك ؟ » ثم أوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلا « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً وأوصيك ان لا تعد الناس موعداً الا انفذته لهم ولو حملته على الاسنة . وأوصيك ان لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو أغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر »

وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٥٥ هـ والحرب لا تزال سجالا بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ - ٨٦ هـ او من ٦٨٤ - ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فاقر اخاه عبد العزيز على مصر وأخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعياً في تعميم خلافته . وفي آخر الامر أرسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة أشهر . وفي نهاية سنة ٧١ هـ قتل عبد الله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلاً نهائياً لذلك الخصام بعد أن استمر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى وبنى مقياساً للنيل في حلوان وهو أول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياساً قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها داراً وجعل فيها الاعوان وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وفي سنة ٧٧ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه وفي أيام عبد الملك ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية

وفي آخر أيام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقباط معفاة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد أن حكم فيها عشرين سنة وعشرة أشهر و ١٣ يوماً وكان جواداً حليما حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل أبيه على صلاتها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه أبوه ان يقتفي آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية

خلافة الوليد بن عبد الملك

من ٨٦ – ٩٦ هـ أو من ٧٠٥ – ٧١٤م

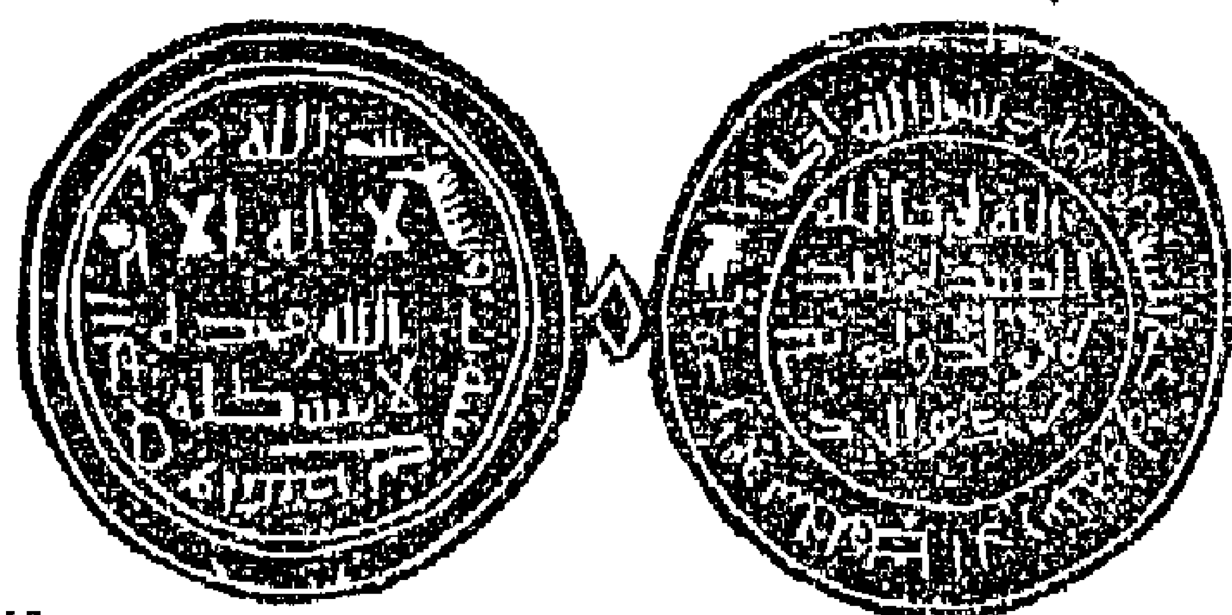
وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بأبي العباس فاقرّ أخاه عبد الله على مصر . وفي أيام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لا تزال الى ذلك الحين بالقبطية يتولى أمرها اثناش فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من أهل حمص. وغلت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على أخيه في صفر سنة ٨٨ هـ واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني وأهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف

أما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع أمراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند . كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع اول سنة ٩٠ هـ أقيم على مصر قرة بن شريك من أهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك واحيا قرة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القماش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحتقر اعتقاداتهم ويدخل أحياناً الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ أعاد قرة بن شريك بأمر الوليد بن عبدالملك بناء جامع عمرو وفي سنة ٩٦ هـ توفي قرة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرة سيء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة أشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد أن حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه. وهذه صورة النقود التي ضربت في أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ



ش ٣٠ : نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

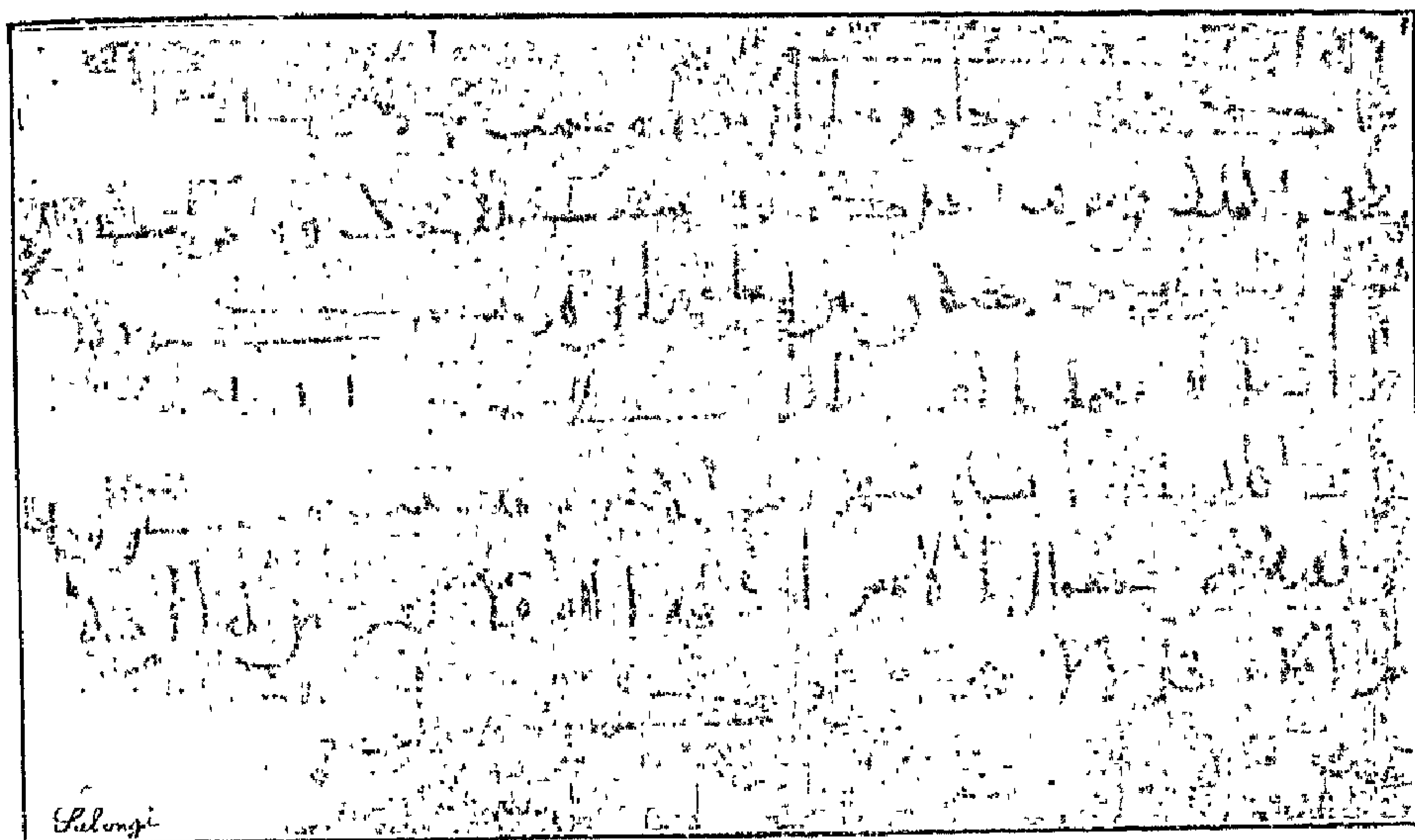
من سنة ٩٦ ـ ٩٩ ﻫ او من ٧١٤ ـ ٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوه سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته . ففي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وأرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً

وعند أول خلافته أقرّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن زيد المشهور بالظلم ولقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين وأقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون تظلماً منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه أمر أن يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في أصبعه عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج اشارة الى خلو طرفه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا أصر على المخالفة يقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها ويتنبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ ﻫ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فامر باغفاله واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجيزة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً او نازلا ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض. ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً اضيق ذات يدها فحدث وهي في أثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقياً فاختطفه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وأبى الا أن تبرز تذكرتها فاخبرته ماكان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق أذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هـذه الاجرآات وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام . وبينما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جأشهم على امل أن ينالوا ما يريدون مما يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سـنة ٩٩ هـ وهو يبني مدينة الرملة في فلسطين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وسنه ٤٥ سـنة فبويع ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة



ش ٣١ ـ صورة رسالة عربية على البابيروس في ايام بني امية

خلافة عمر بن عبد العزيز

من ٩٩ ـ ١٠١ هـ او من ٧١٧ ـ ٧٢٠ م

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكواهم على اسامة فامر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً منزهاً مستقيما عادلا فزاد في الاعطائيات وعطل الحانات فانسى المصريين ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسـامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انه يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه « أرى يا حيان ان تضع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

سبيلهم ان الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فاجابه حيان « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء أهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً (صلعم) هادياً ولم يبعثه جابياً ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يده » وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ ﻫ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة أشهر و١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويع يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من ١٠١ ـ ١٠٥ ﻫ أو من ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م

فاقر يزيد أيوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليه أن يسلم الحكم لبشر بن صفوان الكلبي وبعد يسير أمره أن يتوجه الى أفريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان وفي أيامه امر الخليفة بتكسير ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي سنة ١٠٤ﻫ عزل حنظلة وتولى الامارة محمد بن عبدالملك اخو الخليفة وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ ﻫ توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويع أخوه هشام ولم ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

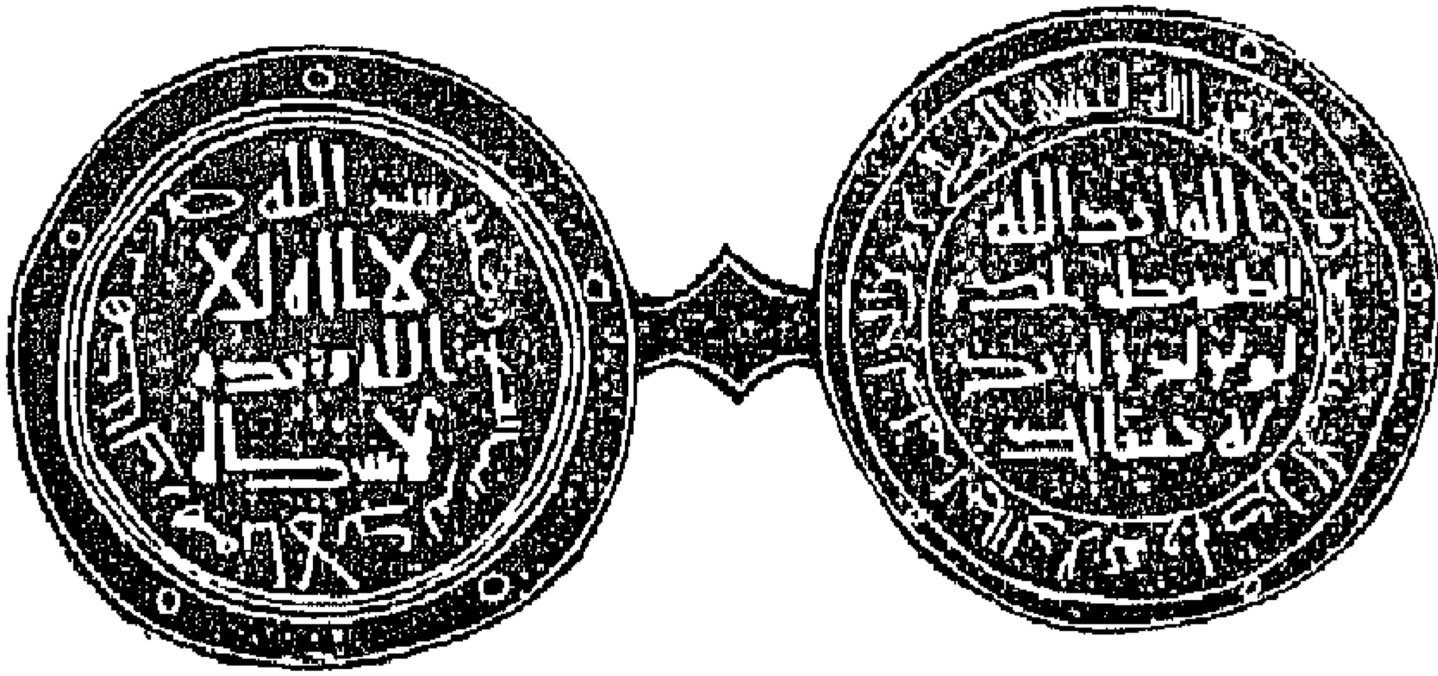
من ١٠٥ ـ ١٢٥ ﻫ أو من ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م

فلما بويع هشام أمر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وأقام عليها الحر بن يوسف وفي امارته كان أول انتقاض القبط سنة ١٠٧ ﻫ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ ﻫ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ ﻫ استبدل حفص بعبد الملك بن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولى مكانه بأمر أمير المؤمنين اخوه الوليد بن رفاعة

وفي ولايته نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها أحد منهم فانزلوا في الحوف الشرقي (الشرقية) وفي أيامه خرج وهيب اليحصبي شارداً في سنة ١١٧ ه من أجل ان الوليد اذن للنصارى في ابتناء كنيسة يومنا بالحمراء . وفي هـذه السنة توفيت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. وتوفي الوليد في الفسطاط وهو وال أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ ه بعد ان حكم تسع سنين . فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات وكان عاتياً غشوماً رغم رغبة الخليفة اليه ان يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها على الحيوانات وكان يختم الوصول المعطاة منه بختم عليه صورة أسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلا هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فانفذ اليه في سنة ١٢٤ ه يعزله عن مصر ويأمره ان يتوجه الى افريقية ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ ه توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ أشهر و١١ يوماً . ومن أعماله التي تستحق الذكر انه تغلب على الروم

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ ه كما ترى في الشكل الثاني والثلاثين



ش ٣٢ - نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

من ١٢٥ - ١٢٦ ه او من ٧٤٣ - ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس أمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيه وأقام عوضاً عنه عيسى بن ابي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رعاياه ولا سيما أهـل الشام فشقوا عصا الطاعة وطلبوا أن يبدل بيزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا

من هـذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب بالايجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قتل الوليد وسـنه ٤٢ سنة ولم يحـكم الا سنة واحـدة وشهرين و ٢٠ يوماً

خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من ١٢٦ ـ ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ ـ ٧٤٥ م

فبويع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٦هـ الا ان تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى أطراف العالم الاسـلامي حتى هددت المملـكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجا من سجنه في عمان وجمع اليه اجناداً وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة . وأهل فلسطين ثاروا على اميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرد من أرمينيا مطالباً بدم الوليد وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكاتبه وعاهده على ان يخلي له ما بين النهرين وارمينيا واذربيجان حقناً لدماء العباد . وبعد ذلك بيسير توفي يزيد بالطاعون وسنه ٤٠ سنه ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعة مفرحة له لانه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين ينكر المبـايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاته في حمص وكان مروان ينتحل سبباً يسوغ له الهجوم على دمشق فادعى انه جاء لانقاذ الحـكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية احد ابناء الخليفة السابق فأبى فحاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلا ايديهما على الخزائن ثم اخرجا ابني الوليد من السجن وقطعاعنقيهما لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيه بغير الحق لا يصلح للخلافة وطلب خلعه وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يده على الاحكام

ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهذه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

خلافة مروان بن محمد

من ١٢٧ ـ ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ ـ ٧٥٠م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الاول ابو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجادي نسبة الى عمه جاد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره . واصل تلقيبه به انه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهملت الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت له المبايعة سنة ١٢٧ هـ ابدل حفص بن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية التجيبي فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لا نرضى الا بحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن ابي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص بن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ هـ صرفه مروان وولى مكانه الحوثرة بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول المحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا حوثرة وسألوه الامان فأمنهم ونزل في ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثرة وولى مكانه المغيرة بن عبيد الله الفزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولي مكانه عبد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر باتخاذ المنابر في الكور ولم تكن قبله وكان ولاة الكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في انحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين الفاً فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم أبو العباس الهاشمي أول

خلفاء الدولة العباسية وكان قد بايعه الفرس في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة أبي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليها داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه اظهر همة ودراية لا تتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى العراق حتى أتى الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . أما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهده أهلها فقنط من الفوز فعاد على أعقابه الى سوريا فرآها مجمعة على عصيانه فلم يرَ له ملجأ الا مصر لانها كانت لا تزال الى ذلك الحين على بيعته

أما ابو العباس فلما استتب له الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاة اختارهم من ذويه ثم بايعه أهل الشام ومن والاهم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى ابو العباس تثبيتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من أبناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال وأولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينج من هذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس (اسبانيا) وأسس فيها دولة أخرى اموية

أما مروان فجاء مصر على ان يستبقيها له فأرسل عبد الله عم أبي العباس اخاه صالح بن علي يقتفي أثره وأمره أن يقبض عليه بأي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسما من الفسطاط في أول عهدها ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا وقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار أمراء مصر ينزلون فيه من بعد أبي عون الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصره

ثم أخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فادركه في قرية بوصير من الجيزة وقتله في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل رأسه

الى أبي العباس السفاح . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو آخر خليفة من الدولة الاموية بالشام

الدولة العباسية للمرة الاولى

من سنة ١٣٢ ـ ٢٥٧ هـ أو من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ م

خلافة أبي العباس بن محمد

من ١٣٢ ـ ١٣٦ هـ أو من ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م

بويع الخليفة أبو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع أول سنة ١٣٢ هـ وهو من سلالة العباس بن عبد المطلب وأول الخلفاء العباسيين فأقال ولاة الامصار الذين كانوا قبل خلافته وابدلهم بولاة من أقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح بن علي قاتل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ هـ وبعد يسير بعث الى الخليفة وفداً من أهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك ابن موسى وجماعته وقتل كثيراً من دعاة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين . وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب أمير المؤمنين بامارته على فلسطين وان يستخلف على مصر من أراد فاستخلف أبا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من أهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافته بعد ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و ٨ أشهر و٢٦ يوماً وسنه ٣٣ سنة ونصف وهو أول من اتخذ وزيراً لان خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

من ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ او من ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م

وخلف أبا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب بأبي جعفر واتخذ الهاشمية

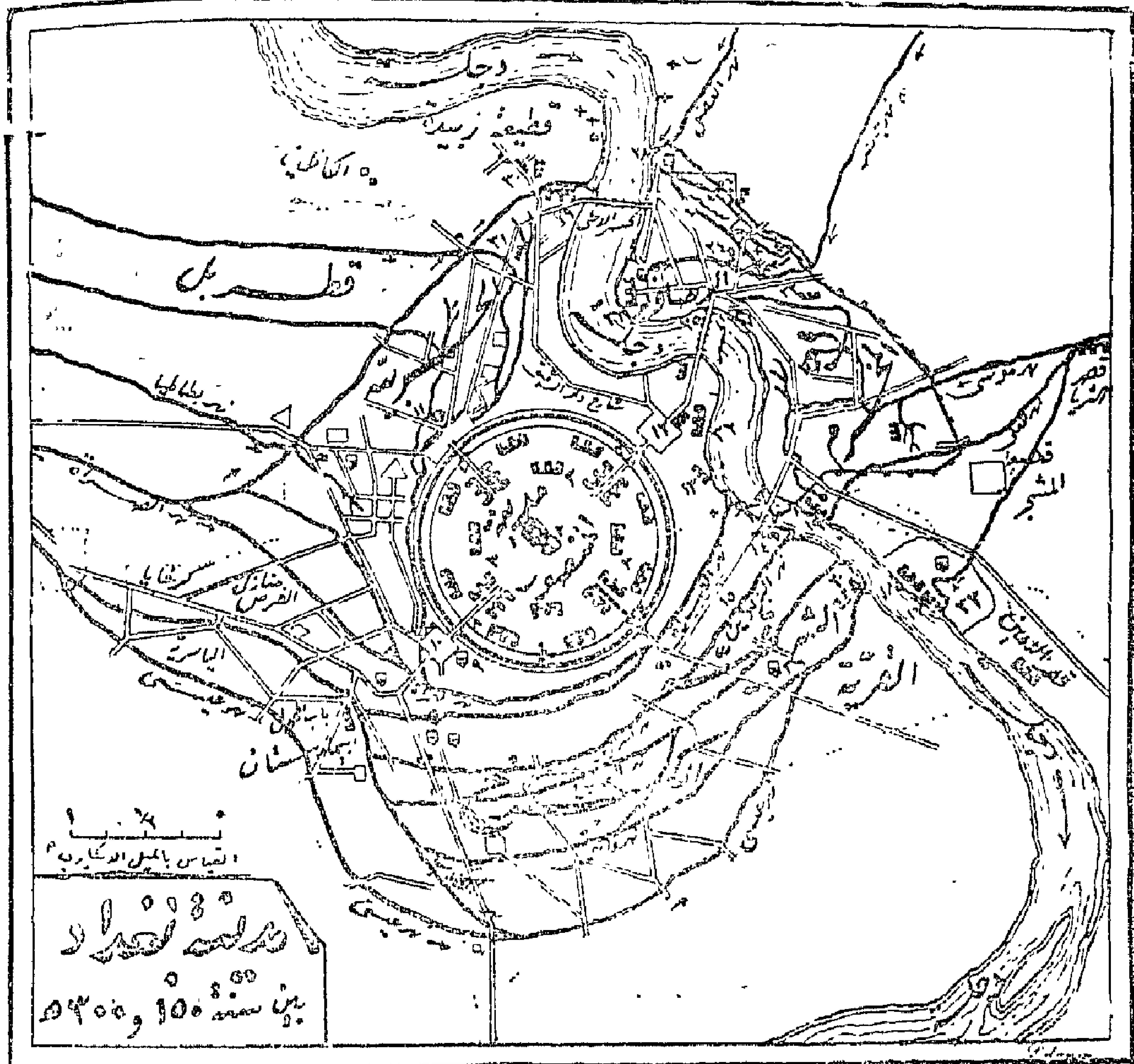
سريراً لملكه كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان أحد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي وأراد توليته امر الخراج فابى فتولاه نوفل بن الفرات ثم رأى بعد حين ان أهل الدواوين مالوا بكليتهم نحو صاحب الخراج فندم وآل الامر الى نفور بينه وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ صرفه وولى يزيد ابن حاتم المهلبي

فترى انه تقلب على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال على ما فطر عليه المنصور من التقلب فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على أمر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ما كان من أمره مع أبي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصلت الخلافة الى يدهم . فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت أمر بقتله ولشدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن أخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد أوصى له بها بعده . وبايع لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

أما يزيد بن حاتم فتولى مصر في أيام المنصور نحواً من ثماني سنين عمل فيها بامانة . وفي امارته ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلي بن محمد بن عبد الله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد. وفي تلك السنة منع يزيد أهل مصر من الحج ولم يحج منهم أحد ولا من أهل الشام لما كان في الحجاز من الاضطرابات بامر بني حسن . وفي سنة ١٤٦ هـ ورد كتاب أبي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من أجل ليلة المسجد

وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحول اليها الخليفة ابو جعفر

المنصور في صفر فلما دخلها امر ان تجتمع اليه العلماء والفلاسفة . وفي سنة ١٤٧هـ حج يزيد واستخلف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته وبعث جيشاً لغزو الحبشة من أجل خارجي ظهر هناك فظفر به الجيش وقدم رأسه في عدة رؤوس فحملت الى بغداد . وفي سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو أول من فعل ذلك . وفي سنة ١٥٠ هـ خرج القبط في سخا فبعث اليهم



ش ٣٣ ـ خريطة بغداد

جيشاً فرجع منهزماً . وفي سنة ١٥٢ هـ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضاً عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم مصر الا ٣ سنين وفي سنة ١٥٥ هـ أبدل باخيه محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولى مكانه موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغييرات الكثيرة في امارة مصر لم يرتح أهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام لاعتقاد كل

حاكم انه عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى في زرع ما رعى لا يستغله كان يسعى فيما فيه نفعه الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة أو يخترع ضرائب جديدة بحيث انه لم يبقَ شيء معفى من الضرائب حتى الفعلة وبائعي البقول وقادة الجمال وكل الصناع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعم البلاء واشتدَّ الجوع فاكل الناس الكلاب ولحم الآدميين

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بئر ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجه لقضاء فروض الحج وكان عمره ٦٣ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام . وهذه صورة من النقود التي ضربت في أيام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظر ش ٣٤)



ش ٣٤ ــ نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ ــ ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ــ٧٨٥ م

فخلفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كأبيه متقلباً متردداً وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزله وأعاد موسى بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن لقمان الجمحي . وفي سنة ١٦٢ هـ صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدله بمنصور بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدله بيحيي بن داود الملقب بابي صالح من أهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من أشد الناس واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فمنع من اغلاق الدروب ليلاً ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعليَّ اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها عليه يوم الاثنين والخميس بلا اردية .

وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولي سالم بن سوادة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ عزله المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فابتنى داراً عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحية بن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذاً ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامره حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزله عزلا قبيحاً في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولى موسى بن مصعب بن الربيع من أهل الموصل . ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم وممن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكره الجند ذلك ونابذوه وثارت قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واسلموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشما . فولى المهدي مكانه اسامة بن عمر وقتياً الى ان انفذ اليها الفضل بن صالح اخا ابراهيم المتقدم ذكره اميراً فاخذ يسعى في اخماد ثورة اهل الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان الفضل يقول انا اولى الناس بولاية مصر لاني قمت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع بالعسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخماد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال الخليفة المهدي من قبيل داخلية المملكة فعكف على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه الثاني هارون الرشيد فتغلب هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها سبعون الف دينار فاظهر هارون شجاعة واقداماً وقعا في عيني ابيه موقعاً عظيما فكافأه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي



٣٥ ـ نقود الخليفة المهدي

وفي ٢٢ محرم سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه عشر سنين وشهران ونصف

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ (انظر ش ٣٥)

خلافة موسى الهادي

من سنة ١٦٩ ـ ١٧٠ هـ او من ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م

فبويع موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه القاضية بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه لكنه لم يأت على ادراك مناه حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

خلافة هارون الرشيد

من سنة ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ أو من ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م

فبويع هارون الرشيد يوم وفاة أخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي أيامه بلغت دولة العرب من العمران والمجد ما فاح ارجه في اقاصي الارض المعمورة ولم تعد ترى عصراً مثل ذلك العصر وكأن شمس الدولة العربية في أيامه بلغت خط الهاجرة ثم اخذت تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعته وُلد له غلام دعاه عبد الله وهو بكر اولاده وولي عهده ولقب بعدئذ بالمأمون

وأقر هارون الرشيد علياً على مصر فاظهر في ولايته حزماً وسياسة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والخمور لكنه عكف على هدم الكنائس المحدثة في مصر فبذل له النصارى خمسين الف دينار على ان يتخلى عن هدمها فأبى . وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتى قالوا أنه اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي

في ٦ ربيع الاول سنة ١٧١ هـ وحالما استلم زمام الامارة أذن المسيحيين بابتناء الكنائس التي هدمت بامر علي بن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ عزل بعد أن تولى الامارة سنة وخمسة أشهر وتولى مكانه مسلمة بن يحيي وفصل بين ادارة الحكومة والمالية أو الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسلمة بن يحي عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولي مكانه موسى بن عيسى ثانية . وفي هذه السنة أوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر وأخوه المأمون في السادسة . وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة وأما المأمون فكان ابن جارية فارسية فغضبت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على أن يكون المأمون حق الخلافة بعده

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ هـ عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولاها في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ هـ تولى امارة مصر عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن زهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ فخلفه اسحاق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه اهل الحوف فحاربهم فقتل كثير من أصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاه اهله بالطاعة وأذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فسر الخليفة مما أتاه هرثمة من النصر فصرف اسحاق بن سليمان وولى مكانه هرثمة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقيا وولى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلاة وارسل معه عبد الله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيد الله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تنحى هذا عن الامارة لموسى بن عيسى وهي المرة الثالثة لامارته . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيد الله بن المهدي ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت امارة مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيه ابن عفير « ما رأيت على هذه الاعواد أخطب من اسماعيل ابن صالح »

وفي ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٨٢ ﻫ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولى الليث بن الفضل البيوردي من أهل بيورد فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ ﻫ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف أخاه الفضل بن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانية بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ ﻫ واستخلف هاشم بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ ﻫ فكان كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جملتها أراضي أهل الحوف فانتقض لهم من القصبة أصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في أربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦ ﻫ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ١٢ منه وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤوس القيسية . ولما عاد الى الفسطاط عاد أهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ ﻫ وطلب اليه الجيوش لانه لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الا بجيش يبعث به معه وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر وخراجها . وفي ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٨٧ ﻫ عزل وأقيم مقامه احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ ﻫ ابدل بعبد الله بن محمد العباسي الملقب بابن زينبة . وفي هذه السنة ابدل عبد الله المذكور بحسين بن جميل التختاخ وفي ايامه امتنع أهل الحوف من الخراج فبعث اليه الخليفة هارون الرشيد يحيي بن معاذ في امرهم . فنزل بلبيس في شوال سنة ١٩١ ﻫ وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٣ ﻫ وولى مالك بن دلهم وفرغ يحيي بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى اهل الحوف أن اقدموا حتى اوصي بكم مالك بن دلهم وادخل بينكم

و بينه في امر خراجكم . فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد أعد لهم القيود فامر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب . وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلا عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٢ هـ ابدل بمالك بن دلهم وكان على الخراج الخصيب ابن عبد الحميد واليه تنسب مدينة منية خصيب

واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ هـ عادت امارة مصر الى الحسين بن جميل الى أن توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنه ٤٧ سنة ومدة حكمه ٢٣ سنة وشهر و ١٩ يوماً . ولا حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر أطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلا وديعاً محباً للعلم والفضل وأهلهما . ولدينا من الاحاديث عن كرم أخلاقه ما يتحدث به العامة والخاصة فنكتفي بانه جعل الخلافة علماً هو مسماها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في أيام الخليفة نفهم بانه حصل في خلافة هارون الرشيد

ومما يحكي عنه انه كان بينه وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء وانه أهدى اليه أشياء كثيرة من اعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ هـ (انظر ش ٣٦)



ش ٣٦ ـ نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الامين

من سنة ١٩٣ ـ ١٩٨ هـ او من ٨٠٩ ـ ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفه ابنه محمد الامين . اما المأمون فكان أبوه قبل وفاته قد وهبه جميع حلله وأسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكما مستقلا عن أخيه الامين . فالامين عند استلامه زمام الخلافة أنكر على أخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والامين أشدهما ضغينة فارسل الى الكعبة فأتى بالكتابين اللذين جعلهما الرشيد هناك ببيعة الامين والمأمون

فأحرقهما وجعل ولاية العهد لموسى بن الامين فلم يبق بعد ذلك باب المصالحة بين الاخوين . وكان الامين محباً للهو ومعاقرة الخمرة . اما المأمون فكان متيقظاً يتحين الفرص فدعا الى مبايعته بخراسان فالتف حوله حزب كبير يدعون الى نصرته لما رأوا فيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواته ويستنصر دعاته واتحد معه هرثمة بن اعين الذي كان اميراً على مصر قبل ذلك الحين فعظم الامر على الامين فولى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ ﻫ استعطافاً لابيه هرثمة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٥٩ ﻫ انفذ الامين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وأرجعهم على أعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عموماً فبايعه أهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الامين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر بن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الآن قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دولة بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الامين وطمع بالفوز على اخيه فجند جنداً آخر مؤلفاً من ٤٠ الفاً لمحاربته وجنداً آخر أنفذه من جهة أخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان أبوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم يلتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السري بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٩٦ ﻫ . وقام في بغداد الحسين بن علي أحد سراتها ودعا الناس الى خلع الامين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الامين ووالدته زبيدة واودعها السجن موثقين . ثم تمكن الامين ببعض الوسائط من تسلق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر لحاتم بن هرثمة بن اعين وأرسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه موقتاً

وفي سنة ١٩٧ ﻫ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد

وحاصراها نحواً من سنة فضجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها نهاية فلم يروا لها حلا الا بخلع الامين فخلعوه المرة الثانية ففرّ وبعد قليل قبض عليه وقتل وجيء برأسه والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون . ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و٣ أشهر وبضعة أيام ومدة حكمه اربع سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً وكفّت بموته الحروب وحقنت الدماء

خلافة عبد الله المأمون

من ١٩٨ – ٢١٨ ﻫ أو من ٨١٣ – ٨٣٣ م

فبويع المأمون مبايعة قطعية في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ ﻫ يوم قتل أخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد أشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في أيام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ ﻫ تخلى العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب ابن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل بالسري بن الحكم . وأخذت السكينة من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الا ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم بنبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن أبي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فلما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له أن يوصي بالخلافة بعد وفاته لعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . الا ان تلك السياسة لم تفد الا زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من أيديهم الى العلويين فثاروا في بغداد سنة ٢٠٢ ﻫ ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . أما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن أهلاً للاحكام فخارت قواه دون ذلك فعجز الذين أقاموه عن استبقائه اكثر من سنة وبضعة أشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ ﻫ وفرّ هارباً . فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ ﻫ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد أسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب

الشافعي وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر اكثر من ٥٤ سنة . وتوفي أيضاً السري بن الحكم أمير مصر وأقيم مقامه محمد بن السري بمبايعة الجند له بقطع النظر عن أوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد أقامه المأمون هناك حاكما فقدم ابنه عبد الله بن طاهر الى مصر واقام في بلبيس

ونظراً لما بين مصر ودار الخلافة من بعد المسافة أصبح الناس لا يعبأون بالاوامر التي كانت تأتيهم منها . وزد على ذلك ان الدولة أصبحت في ضعف شديد لما كان يهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيتها لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة أوامرها حتى عقدوا لعبد الله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ تحصن عبد الله بن طاهر في بلبيس فالتفت عليه عصبة من أهلها وبايعوه فاستفحل أمره فسار الى الفسطاط في ربيع الاول من تلك السنة وانزل عبد الله ابن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر ان يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاخيه المعتصم وأعطاه خمسمائة الف دينار وأمر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه أمر بمثل ذلك أيضاً لابنه العباس . فيكون جملة ما أخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوليد التميمي على الصلاة في ١٧ صفر فخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال أهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانه عيسى الجلودي فحارب أهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب وأقبل المعتصم الى مصر في أربعة آلاف من أتراكه فقاتل أهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منه وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في أول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكه ومعه جمع من الاسارى في حر وجهد شديد . وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلاة فخرج أهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٣ ذي الحجة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ماله فلم يدفع اليه شيئاً فقتله

وصرف عبدويه . وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولي من قبل المعتصم أول سنة ٢١٦ هـ على الصلاة فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها في جمادي الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم وأسرا منهم وقتلا . ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى أن قدم الخليفة عبد الله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل لواءه وأخذه بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد » ثم ولى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انه كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان يمر بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد أهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراياها يتفقد أحوالها . ويقال انه كان يبني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقتلعها الى أن برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون في اثناء تجواله بمصر عن تنظيم أحوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها وأحكامها وأمر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مصر صارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسمادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابه وأصدر أوامره الصارمة باعفاء الكافة أجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرىء على الناس ينبههم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على أثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة أشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة أشهر و١٣ يوماً

أما آثار المأمون فأجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاهما بنفسه ويأخذ بناصرهما وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاه لفات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية او السريانية او اليونانية او الهندية او اللاتينية فهو الذي سعى في نقل أكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضله من هـذا القبيل على أبناء اللغة العربية فان أهالي اوربا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالتها يد الزمان كما ازالت غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبه وملته لـكنه استدعى اليه جماعة من علماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقربهم منه ولم يفرق بين أحد منهم بالاكرام والسخاء . وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفاً على مفارقتهم وهم أشد أسفاً منه على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالسته لمـا كانوا يتمتعون به من لطفه ودعته

وقد نبغ في أيامه علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغاني وعبد الله ابن سهل ومحمد بن موسى وما شاء الله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد أقام بواسطتهم الارصاد الـكثيرة . وكان عالماً بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احياناً في مرصد الشماسية قرب بغداد وأحياناً في المرصد على جبل قيسون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونه سهل بن سابور وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانه ترجم الـكتب الطبية من اليونانية الى العربية (١)

ففي خلافة المأمون وأبيه بلغت دولة العباسيين مجداً عظيماً واتسع نطاق مملـكتهم فبلغت حدود الصين شرقاً فاستولوا على الهند ومنها شمالا الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى أقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحبش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالا في اوربا

(١) راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي

الى ما وراء الاندلس في أرض فرنسا . فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها أمواج الاوقيانوس الاتلانتيكي غرباً والاوقيانوس الهندي والعربي جنوباً ويكاد يمسها الاوقيانوس المتجمد شمالا . الا انها قبل وفاة المأمون أخذت بالانقسام على نفسها فانحطت شوكتها وابتدأ ذلك في غربيها فانفصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها من زمن المنصور وتولتها دولة أموية جديدة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاته) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم بنفسه وجعله ارثاً لنسله من بعده بالاستقلال التام عن بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك فعلت اكثر الامارات اقتداء بمن سار امامها فطلبت كل منها استقلالها . أما مصر فقد كانت مقطعة للمعتصم وظلت تابعة للخلافة ببغداد . وهي لم تبق الا لطامع المعتصم بالخلافة بعد المأمون

خلافة محمد المعتصم

من ٢١٨ - ٢٢٧ ه او من ٧٣٣ - ٨٤٢ م

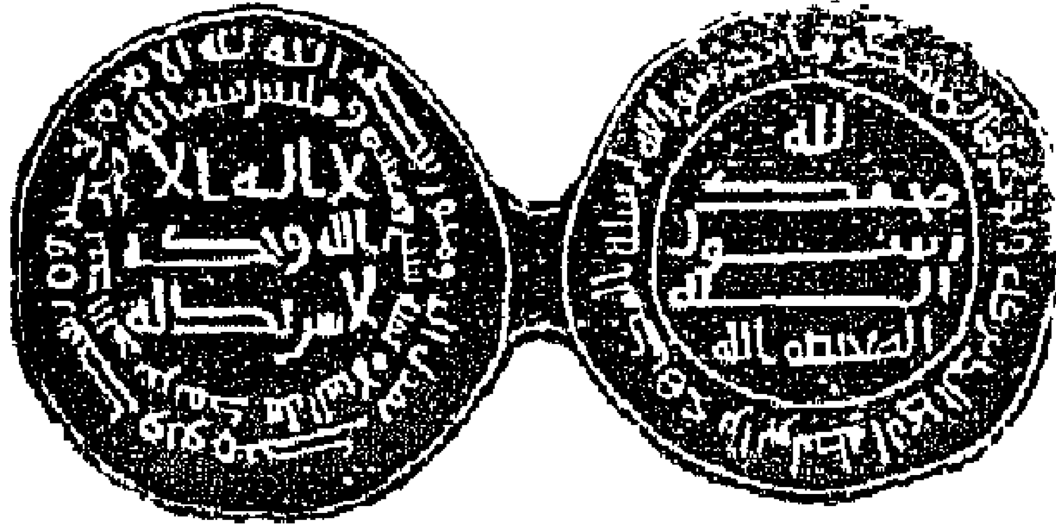
فلما توفي الخليفة المأمون خلفه اخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ ه وهو أول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله

وكان قد أقر امارة مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه يأمره باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ ه توفي كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ ه توفي المظفر وتولى مكانه موسى بن أبي العباس الملقب بالشيباني ويلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ ه استدعى موسى من مصر فاستخلف مالكا الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٢٥ ه عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى أبي جعفر إشناس وهو آخر من ولي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ ه أصيب الخليفة المعتصم بحمى في سامرا وفي ١٨ ربيع أول من تلك السنة توفي . ومن الغريب ما لهذا الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه وبين أبي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة

سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمه ٨ سنين و ٨ اشهر و ٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع اول في السنة الثامنة والاربعين من عمره وترك ثمانية أولاد ذكور وثماني اناث وحضر ثماني مواقع حربية واخيراً وجد في خزينته عند موته ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم . وقد قيل انه بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي « بالمثمن »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التقهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والآداب امياً لا يعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (ليبرا) ويمشي به خطوات وكان مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة وهو أول من جند الأتراك واستعان بهم في الحرب


ش ٣٧ ـ نقود المعتصم بالله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢١٩ للهجرة أو ٨٣٤ الميلاد (انظر شكل ٣٧)

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تترية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في آسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالا الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والاودية والانهار مما لا يسهل تخطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم أو غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالاخرى . الا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافضى الامر الى تزاحم هاتين الامتين فتنازعتا فقامت الحرب بينهما سجالا مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئسار بينهما متبادلا فكان العرب يرسلون

بأسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء ويدعونهم بالمماليك

والمماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم

وقد كان المماليك في بادىء امرهم في ظلمات من الجهل والهمجية وعلى ابعاد من الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم للامراء ورجال الدولة أصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدبير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاة الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثر انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد ينجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعله الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة في ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جمالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيته فابتاع من أولئك المماليك الوفاً فوق ما كان عنده منهم وامر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيثون فيمن حولهم فكثرت التشكيات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامرّا لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة الطغرغر احدى الاربع والعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارا الصغرى فأسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصامي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء أخرى . ففي سنة ٢٠٠ هـ كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فأعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير الستر . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية باماتته واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة وأولاد منهم احمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في

سامرا سنة ٢٢٠ هـ من والدة تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري . وقال آخرون انه ابن المهلبي خادم طولون وان طولون رباه صغيراً والله اعلم

خلافة الواثق بن المعتصم

من ٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م

وقبل أن يترعرع أحمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابو جعفر فلقبوه بالواثق بالله . وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار وأصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم أبوه وكان في نيته اقالة اشناس من امارة مصر لكنه لم يكد يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ هـ فاقام مقامه علي بن يحيي الارمني وبعد نحو سنة أبدل بعيسى بن منصور المرة الثانية . وفي سنة ٢٣٢ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنه ٣٤ سنة ومدة حكمه ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٣ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ أو من ٨٤٧ ـ ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزيراه احمد بن أبي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على أن يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوه بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنه لا يجيز له تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل أخوين من أب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية أبدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاها حاتم بن هرثمة . وفي أيامه ثارت البجة في النوبة بعد أن كانوا عاهدوا المأمون على الصلح فانفذ المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبد الله كتاباً لفه بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي أعناق

الخيل الاجراس فانزعرت جمال البجة ولم تثبت أمام صلصلة الاجراس فركب المسلمون أقفيتهم وأثخنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعده ابن أخيه وبعث يطلب الهدنة فصالحوه على أن يطأ بساط أمير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصولح على أداء الادوات والبقط واشترط عليه أن لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن

وفي تلك السنة أبدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيي الارمني (ثانية) وفي سنة ٢٣٥ هـ أبدل هذا باسحق بن يحيي الجبلي . وفي هذه السنة أوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعتز بالله وبعد هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل مملكته حصصاً فولى المنتصر افريقية وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر وأضاف الى ذلك قنسرين وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرويها دجلة ومكة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وسامرا والكوفة وكل توابعها . وولى المعتز خراسان وطبرستان وفارس وأرمينيا وأذربايجان . وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين . أما المنتصر فلم يقنع بما قسم له وطمع بتوليته الخلافة قبل وفاة أبيه فاخذ يسعى في خلعه

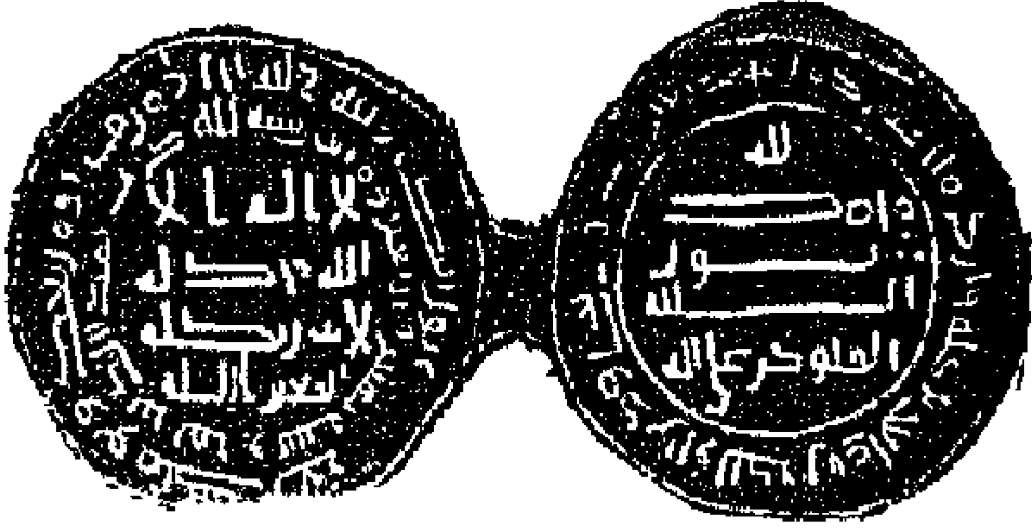
وفي سنة ٢٣٦ هـ أقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيي وفي سنة ٢٣٨ هـ أبدل بعنبسة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون أخرى في دمياط وتنيس وتولى بناءها عنبسة وأنفق عليها أموالا طائلة وقاية من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وأهل الذمة . فلما علم بذلك عنبسة ركب اليهم يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تنيس وتحصنوا في اشموم فلم يتبعهم عنبسة . فكتب يحيي بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الابيات :

أترضى بان يوطأ حريمك عنوة ... وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمارٌ أتى دمياط والروم وثبٌ ... بتانيس رأي العين منه وأقرب
مقيمون بالاشموم يبغون مثلما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة ... بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى أبيه في سامرا وأخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على أبيه واستخلف على مصر يزيد بن عبد الله. وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبد الله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم. وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد سقط بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد أو الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية. وجرت على العلويين في أيام يزيد شدة. هذا ما كان من أمر يزيد

أما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية أن يتخذها مستقراً الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلا الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضه الوخيم فثارت عصبة من الاتراك الجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرح دمشق عائداً الى سامرا. وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فأمر به اليه فوبخه على مسمع من الناس. وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد أحد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موته ٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و ١٠ أشهر و ٣ أيام

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٨)



ش ٣٨ ـ نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ أو من ٨٦١ ـ ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل أن تفارق أباه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه أن يحرم أخويه مما أوصى به أبوه لهما على ما مرّ بك. فحملهما سنة ٢٤٨ هـ على أن يوقعا على صك بحرمانهما من الخلافة ومما أوصى لهما به أبوهما من المدن. وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة أن يلقوا جزاء ما فعلته أيديهم اذا وصلت الخلافة الى أحد

الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن لقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه أصيب بعد توليته بايام بداء أعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بحياته وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ أو من ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فيمن يجب أن يكون الخليفة عليهم فاجمعوا على حرمان أبناء المتوكل ووقع اختيارهم على احمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر واقبوه بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبة يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفراً يسيراً فتفرقوا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

احمد بن طولون

ومن ذلك الحين أخذ نجم احمد بن طولون بالظهور في أفق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في أيام الخليفة المتوكل في الثماني السنوات الاولى فرأى في احمد اللياقة ليخلف أباه على أمارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقياً رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرماً بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة فأحبه جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج أحمد ابنته فجاءه منها غلام دعاه عباساً

ومن الغريب أن أحمد بن طولون شب بين الدسائس والمفاسد ولم يصبُ اليها ولم تحدثه نفسه يوماً باتباعها بل كان يمجها وينفر منها . أما آدابه ومعارفه فكانت تتسع يومياً بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغله لا يترك فرصة تفوته في توسيع دائرة علمه فكان يسير من وقت الى آخر الى طرسوس في اسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفه بالعلم كلفاً بالعلماء . فالتمس من عبيد الله بن يحيي رئيس وزراء الخليفة اذناً بالتوجه الى طرسوس لملازمة دروسه فاذن له مع

استبقاء مركزه ولقبه ومرتباته كالعادة فسار اليها ثم دعته والدته ان يأتي اليها فجاء سامرا في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابه من قتل المتوكل وتولية المنتصر

وبينما كان عائداً من طرسوس هذه المرة وسنه ١٩ سنة هجم بعض أهل البادية على الركب الذي كان هو برفقته يريدون سلبه وفيه ما يساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم احمد بعزم شديد وأعادهم على أعقابهم القهقرى . فلما بلغ الركب سامرا أخبروا الخليفة بما كان من بسالة ابن طولون فنفحه بجائزة الف دينار وأنزله منزلة الامراء ووهبه احدى جواريه واسمها مية وهي التي ولدت له ابنه الثاني « خمارويه » سنة ٢٥٠ هـ وهي أول سني ظهور نجمه

وفي أثناء ذلك ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين وذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة منذ أيام المعتصم لتقلبهم في المناصب العالية فامسوا وفي أيديهم أزمة الدولة يديرونها كيف شاؤا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاؤا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الا التداخل في عزل الخلفاء وتوليتهم . فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستنجدون أحزابهم وينفذون مآربهم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون في خلعه فخلعوه سنة ٢٥٢ هـ بعد أن تولى أمرها ثلاث سنوات و ٨ أشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ او من ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بالله بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل أبيه وعمره اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة أشهر . وكان بعد ان فرّ من سجن سامرا مع أخيه المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود . فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فحلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا الى المستعين واجبروه على ان يتنازل ففعل فنقلوه الى قلعة وجعلوا عليه

حراساً ثم ارسلوه الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقتل في الطريق ويقال ان الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناء على أوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير ان الجهور أجمع على تبرئته من هذه التهمة الفظيعة

والاظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجباره على الاستقالة أمروا بابعاده الى واسط ولم يريدوا أن يصحبه الا من لا يرتاب أحد في امانته له واخلاصه فلم يجدوا انسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليه تلك المهمة فقام بها حق القيام . ثم ان الاحزاب في سامرا مع فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز أوجسوا شراً من بقاء الاول في قيد الحياة فاوعزوا الى الثاني ان خلافته لا ترسخ الا بقتل المستعين . فكتبت فتيحة أم المعتز الى احمد ابن طولون وهو في طريقه الى واسط تحثه على قتل المستعين وتعده بولاية واسط مكافأة له فرفض ذلك احمد بنفس أبية فارسلت حاجباً يدعى سعيداً وبيده أوامر الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرا فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار به في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معه وذبحه في فسطاطه وعاد برأسه الى المعتز ورمى به الارض بين أقدامه

أما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فرأى الجثة بلا رأس فعلم الدسيسة وتكدر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بقتل البريء . ثم همّ الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرا حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائه على مصر وسوريا ما مفاده « وعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فابيت محافظة على القسم الذي قسمته وما زلت في تقوى الله وقد كافأني من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر في اثناء جميع هذه الحوادث ينتابها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبد الله الذي كان استخلفه المنتصر على مصر أصبح عليها أميراً عند ما صار المنتصر خليفة . وبقي يزيد قائماً باعباء مصلحته طول مدة خلافة المستعين بالله . أما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزله في ٣ ربيع اول سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان من أعيان الاتراك الذين ساعدوه في حصوله على الخلافة . ومن اعماله انه اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولى

الشرطة ارجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع . ولم يزل أهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها ارجوز . وأخذ اهل الجامع بتمام الصفوف ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وأمر اهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يستند اليها ومن الحصر التي كانت المجالس في الجامع وامر أن تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل أهل مصر يصلونها ستاً الى رمضان سنة ٢٥٣ ﻫ ومنع من التثويب وامر بالاذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان يغلس بصلاة الصبح ونهى ان يشق ثوب على ميت أو يسوّد وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيه . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ توفي مزاحم فتولى ابنه احمد بن مزاحم . وفي تلك السنة استقال هـذا فعين المعتز مكانه باكباك احد كبار الاتراك . وكان هؤلاء يتولون الامارات اسما بلا رسم لانهم لم يكونوا يبرحون مجلس الخليفة . أما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها . وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منها نائب في الفسطاط وآخر في الاسكندرية وآخر في الصعيد الخ . وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحمد بن طولون من السمعة الحسنة انتخبهُ باكباك المتقدم ذكره وجعله قائداً للقوة العسكرية في الفسطاط . أما الادارة المالية او الخراج فعهد بها الى احمد بن المدبر ودعاه مفتش الخراج

ابن المدبر

وابن المدبر هـذا لم يكن من التدبير على شيء بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع في مصر بدعاً صارت مستمرة من بعده لا تنقض فاحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم مالا سماه المراعي وقرر على ما يطعمه الله من البحر مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي . أما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانهة من الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلا وعنباً وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج

وغيره من طرف الريف . وأما الهلالي فعلى نوعين سماها بالمرافق والمعاون . وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل ما ابتدعه ابن المدبر كما تقدم . فكره الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به وقد كان عالماً بذلك فجعل في حاشيته الخاصة نحواً من مائة غلام هندي ممتازين بالقوة والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد بن المدبر بحاشيته للقائه واهدى اليه هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معه شقير الخادم غلام قتيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي ابن المدبر مائة غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس . فاذا ركب ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف فخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول « قد كنت أعزك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيراً عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة « هذه اخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم » ولم يجد بداً من أن يبعثهم اليه فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيه الى الخليفة يغري به ويحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتم ما في نفسه ولم يبده

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاوعز الى المعتز وعمره اذ ذاك ٢٤ سنة أن يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و ٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فاودعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد ستة أيام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهتدي بالله بن الواثق وعمره ٣٧ سنة

خلافة المهتدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من سنة ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ﻫ أو من ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م

وفي ايام المهتدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدوٌّ آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يده على البلاد التي حوله وقتل كل من كان يحاول مقاومته فانفذ اليه ابن طولون فرقة من جيشه فحاربها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك أتتها نجدة اتحدت معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففر المذكور في البرية ملتجئاً الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معه من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر بسبعمائة وخمسين الف دينار حملاً من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في أصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر

وفي رجب سنة ٢٥٦ ﻫ ذبح المهتدي في سامرا وبويع المعتمد على الله وسنه ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعه الجميع الا ابن شيخ فانه لم يدع له ولم يبايعه لا هو ولا أصحابه فبعث اليه بتقليد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذ للمعتمد وبايعه ثم كتب الخليفة سرًّا الى ابن طولون أن يتأهب الى حرب ابن شيخ وأن يزيد في عدته وكتب لابن المدبر ان يطلق له من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال وأثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهز كل ما يحتاج اليه وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ما أخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فسار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً اخاه موسى ابن طولون على مصر . وبينما هو في الطريق ورد اليه كتاب الخليفة يدعوه الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان وأتى عوضاً عنه لمحاربة ابن شيخ اماجور التركي فلقيه اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فحاربهم اماجور فانهزموا منه وقتل قائدهم واستولى اماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بارمينيا وتقلد اماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

القطائع

أما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن القصر الذي كان يسكنه أسلافه من ولاة الاحكام. ولم يكن هذا القصر داخل سور الفسطاط بل كان في ضاحية العسكر وكان العسكر أشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايات الجميلة وكان كافياً لسكنى رؤساء الجيوش وولاة الامور . أما في ايام ابن طولون فضاق ذرعاً عن سعة مهماته وعبيده وتحفه فاخذ يسعى في البحث عن محل آخر يفي بالمقصود مع قربه من الفسطاط فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود. فاختارها للبناء فامر بحرث المدافن وهدمها واختط في موضعها بناء عظيما دعاه القصر ومحلاً آخر بالقرب منه دعاه الميدان وتقدم الى أصحابه وغلمانه واتباعه ان يختطوا لانفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القواد مواضع متفرقة. فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وسوق الفاميين وهكذا البقالين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع المذكورة مدينة كبيرة أعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من أعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت أحوال ابن طولون وكثرت اصطبلاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك أماجور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد سلطة ابن طولون اليه فاخذ يسعى في خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله ما نصه « ان قوات ومهمات ابن طولون أصبحت أعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم تخضعه الا بعد شق الانفس وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه والامر لامير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر مفتش

الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبه من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالا الى سامرا ويستخلف مكانه من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر همّ الى القيام به وهو لا يدري ما وراء الاكمة فجاء من ذويه من أطلعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرا . فلما علم بدخيلة الامر جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وأرسله مكانه الى سامرا بالهدايا الفاخرة الى الوزير فاستجلب خاطره فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق وأصدر أمراً آخر يزيد مدة ولاية ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك اليوم في سامرا . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حكم على باكباك أمير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون قائداً للقوة العسكرية بقطع الرأس لجناية ارتكبها وعين مكانه برقوق حمو احمد بن طولون وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره بالنيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل على سائر القطر المصري . فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سلمها لعيسى المذكور وأقره عليها فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد بن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولي احمد مكانه والياً عاماً على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ ـ ٢٩٢ هـ أو من ٨٧٠ ـ ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ ـ ٢٧١ هـ أو من ٨٧٠ ـ ٨٨٤ م

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقير الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منهما بحقه . وبعد يسير توفي شقير خوفاً وهم ابن طولون بعزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان أخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنه أما ابن المدبر فكان قد مل مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيده فطلب الى أخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخمارويه بن احمد بن طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع أعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده فالغى الخراج الهلالي الذي وضعه ابن المدبر وقبل الغائه حسب مقداره فبلغ مائة الف دينار سنوياً فأحب أن يستشير بشأنه فتشاور مع عبد الله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتياً طماعاً فقال ان امنني الامير تكلمت بما عندي فقال له قد امنك الله عز وجل فقال « أيها الامير ان الدنيا والآخرة ضرتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه وافعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر لما كان شيء عندنا آثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنه وصار في يده تضييع ولعل الذي حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير أيده الله بما قد

عزم على اسقاطه من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين في هذه السنة لانها سنة ظمأ توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفراً عظيماً فيضاف الى مال الهلالي فيضبط به الامير أيده الله أمر دنياه. وهذه طريقة أمور الدنيا وأحكام امور الرياسة والسياسة وكل ما عدل الامير أيده الله اليه من أمر غير هـذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيي والامير أيده الله على ما عساه يراه »

فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلا من اخوانه الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما أشار عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله عنه فامض ما كنت عزمت عليه » . فلما أصبح انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائه . ثم دعا ابن دسومة واخبره بما كان فقال له « قد أشار عليك رجلان الواحد حي في اليقظة والاخر ميت في النوم وأنت الى الحي أقرب وبضمانته أوثق » فقال له « دعنا من هذا فقد قضي الامر ولست قابلا منك ما تقول »

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما أمعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس أحد غلمانه فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق فتح فتقدم احمد وأمرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيه من المال ما كان مقداره مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب الى العراق يخبر به المعتمد ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فأذن له فبنى منه مستشفى وحصناً وسبيلا وجوامع وفرق قسما منه على الفقراء

اصلاحاته

وأول جامع شاده ابن طولون جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى تنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلا فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيه فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالا أكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك أمر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر

ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ أعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الإسكندرية آباراً مسقوفة بالبناء العقد واحواضاً تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بقال في جزيرة الروضة فرأى المقياس محتاجاً الى اصلاح فأمر باصلاحه اصلاحاً متقناً أنفق عليه عشرة آلاف دينار . وأقام ابو ايوب بعد يسير مقياساً آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبق منها الى ايام المقريزي الا أثر طفيف

وفي أواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنه البكر العباس ثم أمر بترميم منارة الاسكندرية وأقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسمائة قدم

وأمر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في العسكر وقد كانت الفسطاط قبله مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية المستشفى والبنايات الاخرى أطياناً واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضاً دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسه لزيارة المستشفى وتفقد سير الاطباء فيه وعيادة المرضى والمجاذيب . واتفق ذات يوم ان احد المجاذيب في المستشفى همّ بقتله ولولا القضاء لذهب بحياته ولم يكن شيء من ذلك ليثني عزمه عن العيادة . وبنى في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار نفقات بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المقطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنايات رغم التقلبات السياسية التي كان يخشى أن تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

محارباته

قلنا ان ابراهيم بن الصوفي فرّ من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليه جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فسار لمحاربة عبد الرحمن العمري وكان معتدياً على حدود النوبة وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاه ابن ابي الغيث مغضياً عن أبي عبد الرحمن وحاربه ففر من وجهه وسار من طريق عيذاب الى مكة حيث

قبض عليه وأرسل الى أحمد بن طولون فالقاه في السجن مدة ثم صرفه مؤذناً له بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاه الله

أما أبو عبد الرحمن العمري فاستفحل أمره وأقام الاستحكامات في النوبة فشق ذلك على أحمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليه جيشاً آخر تحت قيادة شبه البيكى الى أصوان فلما بلغها رأى أبا عبد الرحمن مشتغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك النوبة والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون أبي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ أبو عبد الرحمن بتكاثر الاعداء عليه فجعل رجاله فرقتين وحارب الفئتين وتغلب على شبه وأعاده على أعقابه صفر اليدين الى الفسطاط فلم يصادف من ابن طولون الا احتقاراً وانتهاراً

وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان يحملان رأس أبي عبد الرحمن العمري فرمياه بين أقدام أحمد بن طولون فسألهما عما أتى بهما اليه وما حملهما على قتل سيدهما فاجابا ان لا غرض لهما الا الحصول على رضا أمير القطر المصري . فقال لهما أحمد « ان ما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابي » وأمر بقتلهما وغسل رأس أبي عبد الرحمن ودفنه بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر أن العبدين لم يقتلا سيدهما بايديهما وإنما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسولت لهما النفس ان يقطعا رأسه ويحملاه الى ابن طولون فينالا جائزة عظيمة وما علما أن المروءة وكرم الاخلاق تأبيان مثل ذلك

ثم ثار أبو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليه عصبة من الاتباع فجاهر بالعصيان ضد ابن طولون فارسل اليه حملة فغلبها فانجدها ابن طولون فغلبته وفر أبو نوعة الى الواحات واضطر أخيراً الى التسليم

وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعه أهالي برقة جميعهم فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤاً وقال له نج المدينة من العصاة فتكون عليها والياً فحاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فجعله ابن طولون والياً على برقة ومتعلقاتها

الموفق والمعتمد

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليه منها وهي محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله أحد ابناء المتوكل على الله وأخو المعتمد على الله الخليفة . وذلك أن صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انه من

سلالة علي بن ابي طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرهما واستفحل أمره فانفذ أمير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم أخاه ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة المهتدي بالله قد بعثه اليها منفياً فقدم سنة ٢٥٧ هـ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعده لابنه المفوض وبعده للموفق وجعل غربي الممالك الاسلامية للمفوض وشرقيها للموفق وكتب بينهما بذلك كتاباً ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط

وكان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه أهلاً لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده شق ذلك عليه وزاد في حقده وكان المعتمد متشاغلاً علاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الامور وفسد تدبير الاحوال وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقلده

وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوض والموفق انه ما يحدث في عمل كل واحد منهما من حدث تكون النفقة عليه من مال خراج قسمه . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما أن لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالكعبة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليه محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناهضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى . فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين به في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوض لانها من الممالك الغربية الا ان الموفق شكا في كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو في سبيله وبعث الكتاب مع تحرير خادم المتوكل ليقبض منه المال

فما هو الا ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليه أيضاً كتاباً سرياً يقول فيه « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصياً على أخبارك وانه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه واحمل المال الينا وعجل نفاذه »

وكان نحرير الخادم لما قدم الى مصر انزله احمد بن طولون معه في داره بالميدان فمنعه من الركوب والخروج من الدار التي أنزله بها حتى سار من مصر وتلطف في الكتب التي أجاب بها الموفق ولم يزل بنحرير حتى أخذ جميع ماكان معه من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق الف الف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر واخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وكان قد أرسل الى أماجور متولي الشام فقدم عليه بالعريش فاسلمه خادم الموفق والمال وأشهد عليه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي أخذها من نحرير فاذا هي الى جماعة من قواده باستمالتهم الى الموفق فقبض على أربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبته

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعه المال كتب اليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول « ان الحساب يوجب أضعاف ما حملت » وبسط لسانه بالقول والتمس ممن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد أحداً عوضه لما كان من دعة ابن طولون وملاطفته وجوه الدولة

كتاب ابن طولون الى الموفق

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال « وأي حساب بيني وبينه أو حال توجب مكاتبتي بهذا أو غيره » وكتب اليه بعد البسملة « وصل كتاب الامير أيده الله تعالى وفهمته وكان اسعده الله حقيقاً بحسن التخير لمثلي وتصييره اياي عمدته التي يعتمد عليها وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقي الاعداء بحده لأني دائب في ذلك وجملته وكدي واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلات والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة وذباً عنها وحسما لاطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها . ومن كانت هذه سبيله في الموالاة ومنهجه في المناصحة فهو حري ان يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ومن كل حال جليلة حظه ومنزلته . فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به والجفاء في المخاطبة بغير حال توجب ذلك ثم اكلف على الطاعة جعلاً والزم في المناصحة ثمناً وعهدي بمن استدعى ما استدعاه الامير من طاعته أن يستدعيه بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا أن يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلا واني لا أعرف السبب الذي يوجب الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير أيده الله تعالى ولا ثمّ معاملة تقتضي معاملة أو

تحدث منافرة لان العمل الذي انا بسبيله لغيره والمكاتبة في أموره الى من سواه ولا انا من قبله . فانه والامير جعفر المفوض أيده الله تعالى قد اقتسم الاعمال وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه وأخذت عليه البيعة فيه انه من نقض عهده أو اخفر ذمته ولم يف لصاحبه بما أكد على نفسه فالامة بريئة منه ومن بيعته وفي حل وسعة من خلفه . والذي عاملني به الامير من محاولة صرفي مرة واسقاط رسمي أخرى وما يأتيه ويسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده . وقد التمس أوليائي وا كثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة رسمه فآثرت الابقاء وان لم يؤثره واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورأيت الاحتمال والكظم أشبه بذوي المعرفة والفهم فصبرت نفسي على أحر من الجمر وأمر من الصبر وعلى ما لا يتسع به الصدر والامير أيده الله تعالى أول من أعانني على ما أوثره من لزوم عهده واتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة والانصاف وكف الاذى والمضرة وان لا يضطرني الى ما يعلم الله عز وجل كرهي له ان اجعل ما أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التي قد ضرست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفاً الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انه أحق بهذا الامر وأولى من الامير . ولو امنوني على أنفسهم فضلا عن أن يعثروا مني على ميل أو قيام بنصرتهم لاشتدت شوكتهم واصعب على السلطان معاركتهم . والامير يعلم ان بازائه منهم واحداً قد كبر عليه وفض كل جيش انهضه اليه على أنه لا ناصر له الا لفيف البصرة وأوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً وما مثل الامير في اصالة رأيه يصرف مائة الف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير أعتاب أو رجوع الى ما هو أشبه به وأولى والا رجوت من الله عز وجل كفاية امره وحسم مادة شره واجراءنا في الحياطة على أجمل عادته عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظه غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة وأشد اهلها بأساً واقداماً فتقدم اليه في صرف احمد بن طولون عن مصر وتقليدها اماجور فامتثل وكتب الى اماجور كتاب التقليد وانفذه اليه فلما وصل اليه الكتاب توقف عن ارساله الى احمد بن طولون لعجزه عن مناهضته . ثم خرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدراً انه يدور عمل المفوض ليحمل الاموال منه ولما علم بتوقف اماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل

الاموال وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف اماجور عليها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقلقه ليس لانه يقصر عن مناهضة موسى بن بغا لكن لتحمله هتك الدولة. وأن يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه الا أنه لم يجد بداً من المحاربة ليدفع عن نفسه ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ الا من جهة النيل فاراد لكبر همته وتدبره أن يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) يكون معقلا لحرمه وذخائره وخاصته ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكره في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربي سوى مايضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجيء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كانه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى أسفل الارض لمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوه بارزاقهم مطالبة شديدة حتى استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم نخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ هـ

هذا واحمد بن طولون يجد في بناء الحصن على الجزيرة وقد الزم قواده وثقاته امر الحصن وفرقه عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعهدهم بنفسه في كل يوم وهو في غفلة عما صنعه الله له من الكفاية والغنى عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدر ان كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدق بمال كثير شكراً لله على ما منّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه الاحدوثة وما رأى الناس شيئاً كان أعظم من عظيم الجد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع له

في الاسحار حتى فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير أحد من الصناع التي كانت فيه مع كثرتها كانما هي نار صبّ عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصناع مالا جزيلا وترك لهم جميع ماكان سلفاً معهم . وبلغت نفقات هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهباً وقال سعيد بن القاضي من أبيات بشأن ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا الى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر
ترى أثراً لم يبقَ من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيه الى الفخر

اما الموفق فلما تفرق جيشه لم يعد يرى بدأً من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاءً وقتياً

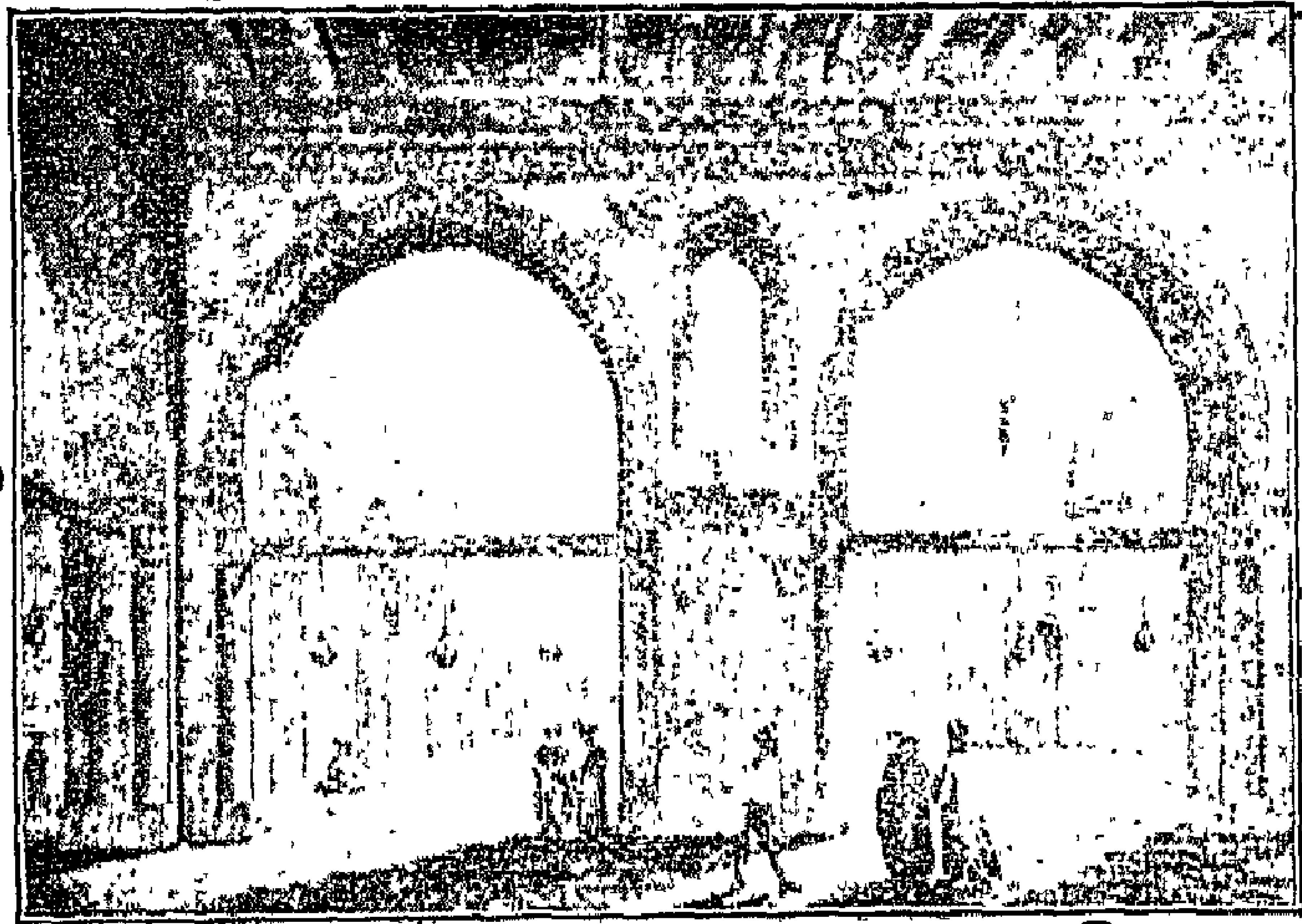
بناء الجامع

وكثر أتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه أن يبتني لهم جامعاً آخر اكثر اتساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبتنيه على جبل يشكر وكان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكليم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد أن يجعل ذلك الجامع أعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمه على ثلثمائة عمود من الرخام . فقيل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا أصر على عزمه لا يترك المسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين أن يتم مشروعه وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرغاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء وقد اودع السجن لتهمة توجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ماكان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلها عمودي القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامرّا . فاعجب ابن طولون كثيراً وأمر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت

امره مائة الف دينار وقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك . وأمر ابن طولون أن يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورغبتي من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع أخذ في زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزة آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهراً الى هـذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عنه برواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن



ش ٣٨ ـ جامع ابن طولون

ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لا يسعه الا التعجب من عظمتها ويقال ان تجاه المنـارة المذكورة الباب الـكبير وجعل للجامع ٣٣ شبا كاً . وأقام بجوار الجامع بناء دعاه دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالستار . وفي الدار المساند الجميلة والطنافس الثمينة . فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هـذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحـكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطره فسدوها . وقدهدم بعض تلك

القناطر وبعض المناره وفي صحن الجامع الميضأة ولا يزال أثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد بن طولون وذريته

وقد استغرق بناء هذا الجامع سنتين فانتهى في رمضان سنة ٢٦٣ هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيه ولكن الفقهاء لم يكونوا يدخلونه لئلا يكون مبنياً بمال لم تكتسب بالحق والعدل فاقسم لهم انه لم ينفق عليه درهماً من الدراهم التي وجدها اتفاقاً فصدقوه فاحتفل بتدشينه في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليه الجماهير من المسلمين . وتذكاراً لذلك الاحتفال نقشوا على ألواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم . وقال المقريزي انهم كانوا يحرقون اقراص الند في أثناء الصلاة فيعبق الجامع بدخانه والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين انشأ محمد بن ربيع مدرسة في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون وأولاده وجميع حاشيته لا يتركون الجامع الا بعد أن يتم محمد تدريسه . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث . وممن كان يحضر عليه أبناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلاميذ كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التدشين عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فمكث مدة طويلة في الجامع يصلي لله ويشكره على ما أولاه من النعم بنجاح أعماله ووهب الجامع عشرة آلاف دينار وخصص له رواتب تدفع من ماله ما بقي حياً . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنه حوضاً وفسقية للوضوء ثم بنى صيدلية يحضر فيها بأمره كل يوم جمعة طبيب يعالج الفقراء مجاناً ولاسيما الذين يأتون للصلاة . وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين الف دينار غير الاوقاف . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرها كنزاً ثالثاً من الذهب النقي . ويقال ان هذا الذي جعله يضرب الدينار الاحمدي الذي اشتهر بنقاوته والمفضل على سائر أنواع الذهب القديم للتذهيب به

وفي اثناء بناء الجامع توفي اماجور الذي كان حاكما في سوريا فخلفه ابنه علي فاغتنم احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والموفق مشغول عنه بمحاربة الزنج فاظهر انه عازم على محاربة الروم جهاداً في سبيل الدين وجمع جيشاً جراراً فيه كثيرون من المتطوعين فكتب الى ابن اماجور يستنصره في تلك الحرب وان يبايعه على سوريا لان الخليفة إقطعه اياها فاطاعه

عصيان العباس

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ برح احمد بن طولون مصر مستخلفاً ابنه العباس وسنه اذ ذاك ٢٣ سنة وعهد بتدبير الاحكام الى وزيره احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش ابن طولون في فلسطين أتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً فأقره في منصبه ولما بلغ دمشق رحب به علي بن أماجور وأمر بان يخطب باسمه فاقره في منصبه ايضاً. وهكذا فعل في حمص وعليها عيسى فاقره عليها ثم استولى على حلب وحماه وكانتا من أعمال انطاكية وحاكمها يدعى سيما الطويل فكتب اليه احمد بن طولون يطلب مبايعته فوعده ولكنه لم يف فأعاد الطلب فوعد أيضاً ولما تكرر منه الوعد والاخلاف تقدم احمد بجيشه الى اسكندرونه ثم هاجم انطاكية من جهة باب البحر فلم يقدر عليه لانه كان منيعاً فهاجمها ثانية وثالثة بلا فائدة وما زال حتى كاد يتولاه اليأس فاتاه بعض أهالي المدينة ينبئونه بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انه سهل المأخذ فسار احمد بجيشه وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الا والمتاريس في يده . وأما سيما فدافع دفاعاً حسناً حتى قتل وجيء برأسه الى احمد بن طولون فشق عليه قتله لانه كان صديقاً له . وأما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت الغوغاء ووضع احمد يده على باياس وأطنة وطرسوس . وبينما هو يهم بالتقدم في فتوحه الى ما وراء ذلك جاءه من مصر ان ابنه العباس الذي استخلفه عليها قد شق عصا الطاعة ومد يده الى الخزائن والاحكام واستبد فيهما فلم يرد أحمد الرجوع الى مصر قبل اتمام عمله في سوريا فسار الى محاربة محمد بن اتامش صاحب الرقة ثم أخيه موسى فأسره ولم يرجع الى مصر الا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح الشام وبعض اسيا الصغرى واستخلف في الرقة غلامه لؤلؤاً

أما العباس فبعد أن نبذ طاعة والده انقياداً لذوي الاغراض شعر بخطائه وخاف سوء العقبى فجمع اليه الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٣٠٠ الف دينار وفر بمن معه الى الجيزة على ضفة النيل الغربية وساق معه احمد الواسطي وزير والده مغلولا . ولكنه خشي ان لا يكون مكانه هناك أميناً فعهد بحكومته فيه الى اخيه ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فلما وصل احمد بن طولون الى الفسطاط ونزل العسكر ورأى من أمر ابنه

ما رأى أحب استقدامه بالحسنى فكتب اليه كتباً كلها نصح واستعطاف وأرسلها مع بكار بن قتيبة فعاد بلا نتيجة وكان ذلك بدسيسة من التف حوله وهم الذين اغروه على كل ما فعل وقد أصبحوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فأوعزوا الى العباس أن يمعن في أفريقية . ففي سنة ٢٦٧ هـ جمع اليه رجال دعوته وسار في داخلية البلاد ساعياً جهده في اجتذاب مشائخ القبائل اليه فلم يفز الا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم بن الاغلب صاحب القيروان ان يبايعه على افريقية مدعياً ان الخليفة قلده اياها وكان سعيه مع هذا باطلا أيضاً . ثم هاجم حصن لبدة ففتحت له أبوابها فدخلها وأمعن أتباعه في النهب والقتل فاستاء الاهالي فكتبوا الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فوعدهم بالمساعدة

وفي أثناء ذلك سار ابراهيم صاحب القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لقتال العباس فقاتله في الليل وكان العباس مشهوراً بالشجاعة والحماسة وكان شاعراً ينشد الاشعار الحماسية في أثناء القتال ومما أنشده قوله

لله دري اذا أعدو على فرسي الى الهياج ونار الحرب تستعر

وفي يدي صارم افري الرؤوس به في حده الموت لا يبقي ولا يذر

ان كنت سائلة عني وعن خبري فها انا الليث والصمصامة الذكر

من آل طولون اصلي ان سألت فما فوق المفتخر بالجود مفتخر

لو كنت شاهدة كري بلبدة اذ بالسيف اضرب والهامات تبتدر

اذاً لعاينت مني ما تبادره عني الاحاديث والانباء والخبر

وفي الصباح التالي وصل اليـاس ومعه ١٢ الفاً من الاباضية مدداً لابراهيم فضمها الى جيشه واستأنف الحرب وخسر العباس في هذه الواقعة اكثر ضباط جيشه وأشجع جنوده وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي أتى بها من مصر . أما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك أباه فانفطر له قلبه رغم عصيانه ومناوأته . وفي أواخر سنة ٢٦٧ هـ انفذ احمد جيشاً الى برقة وبعد بضعة أيام أتى بنفسه الى الاسكندرية في جند كبير قيل انه كان مؤلفاً من مائة الف رجل فأتاه احمد الواسطي وكان قد تخلص من العباس فانفذه ابن طولون بجيش الى برقة ليهاجم من فيها من العصاة فهاجمهم وقتل العدد الاعظم منهم . أما العباس فقبض عليه حياً وجاء به الى ابيه في منتصف سنة ٢٦٨ هـ وبعد بضعة أيام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعه ابنه العباس ولما بلغ الفسطاط اعتقله في قصره

وبعد ثلاثة أشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم والعباس معهم فأمره أبوه ان يقطع أيدي هؤلاء المفسدين وأرجلهم بيده ففعل . ثم التفت اليه وعنفه بكلام تتفتت له الحجارة ثم أمر بان يضرب مائة جلدة أمر بذلك وقلبه يقطر دماً . ثم أعاده الى الاعتقال وأمر بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

اضطرابات خارجية

وما كادت مصر تتخلص من هـذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية أشد وطأة وأصعب مراساً . فان الضغائن بين احمد بن طولون والموفق كانت لا تزال كامنة الى ذلك العهد وما أصاب الاموال من السلب وما تكبده ابن طولون على أثر ذلك من النفقات في الحروب حمله على الاقتصاد في النفقة والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض الذين كانوا يتقربون منه طمعاً بالمال وفيهم غلامه لؤلؤ الذي كان غارقاً بانعامه وقد ولاه بلاداً واسعة فاضمر له شراً بايعاز كاتبه محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبه . فامسك لؤلؤ عن اداء الخراج الى ابن طولون على أن يؤديه الى الموفق ويبايعه على ما في يده فطار الموفق فرحاً . أما القواد الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب العداء فاعلموه بغدره فادرك العواقب الناجمة عن هـذه الخيانة ولـكنه اتخذ الحزم والتأني نبراساً فـكتب الى لؤلؤ يدعوه الى طاعته بعبارات لطيفة فأبى

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فرأى العاقبة محمودة فـكتب الى المعتمد سراً يعلمه انه يخاف خيانة ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوه الى مصر قائلا « ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوه (يعني الموفق) واعادة السلطان اليه » وبعث مع هذا الـكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ وتقدم الى دمشق ومعه ابنه العباس واستخلف على مصر ابنه الثاني خمارويه وجاهر انه قدم لامرين انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانه كان قد انضم الى الموفق في محاربة الزنج

وثارت في أثناء ذلك فرقة من الجند كان قد ارسلها احمد الى سليسيا وعصت قائدها خلفاً فتمكن هذا من النجاة بحياته الى دمشق فاغتنم سكان طرسوس هذه الفرصة لخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمه فحمل عليهم اقتصاصاً منهم .

ثم ورد اليه كتاب من المعتمد اوقفه عن عزمه . وذلك ان الخليفة المشار اليه ادرك ان ليس في يده من الخلافة الا اسمها وان أخاه الموفق أضر بنفوذه ضرراً بليغاً . فلما جاءه كتاب ابن طولون تقبله بسرور وأجابه شاكراً له وشاكياً من تصرف أخيه . والقى اليه ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمته وان يلاقيه في الرقة . فانفذ اليها ابن طولون جيشاً لملاقاته لان المعتمد أحب ان يغتنم اشتغال اخيه بالحرب مع الزنج للقدوم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيته للصيد . وسافر في جمادي الاولى حتى بلغ الى اسحق بن كنداج امير الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليه وزير الموفق بما كان وأمره ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة باكرام واحترام وشيعه

فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الاتباع والغلمان الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداج أصحابه يرحلون . ثم خلا بقواده عند المعتمد وقال لهم انكم قرب عمل ابن طولون والامر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده افترضون بذلك وقد علمتم انه كواحد منكم . وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار ولم يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداج قوموا بنا نتناظر في غير حضرة امير المؤمنين فاخذ بأيديهم الى خيمته لان مضاربهم قد سارت فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم وأخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم . فلما فرغ من امورهم مضى الى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق أخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب كأنه يريد قتله وقتل أهل بيته وزوال ملكهم ثم حمله والذين كانوا معه حتى أدخلهم سامرا

فعلم الموفق بذلك فسرَّ لكنه خشي ان يعود أخوه مرة ثانية الى قصده الاول فارسل اليه من يراقب حركاته ووهب اسحق جميع البلاد التي كانت من أعمال ابن طولون فاصبح حكمه ممتداً من بغداد الى أطراف افريقية وأهداه سيفين ولقبه بذي السيفين اشارة الى تسلطه على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظه فجمع اليه من كان في دمشق من فقهاء بلاده وعلمائها واشرافها وأعلمهم ان الموفق هتك حرمة الاخوة نحو أخيه وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد أصبح في حالة يرثى لها يقضي نهاره بالاسف والكدر الشديدين . وما زال ينهض همتهم ويحرك عواطفهم حتى أقروا على ان يذكر الخطيب بعد صلاة الجمعة حالة الخليفة ويطلب

الى الله ان يحفظه ويكبت أعداءه . وزادوا على ذلك ان الموفق عاص على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرىء من الذمة فوجب جهاده على الامة . فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار وقال ان كتب الخليفة تخالف ما قررتموه لانه أوصى أن يكون الموفق وارثاً للخلافة قطعياً فاجابه ابن طولون ان الخليفة لم يكن حرًّا بما فعل . والقى بكاراً في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على ذلك وانتهى الامر باقرار الجميع على ما سبق ذكره وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير بالصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك اوعز الى اخيه المعتمد ان يخلع ابن طولون . وما انفك حتى اجابه الى طلبه فجاهر على المنابر بعبارة ونصها : « اللهم العنه لعناً يفلّ حده ويتعس جدّه واجعله مثلا للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » فصرح ابن طولون بلعن الموفق في جميع بلاده وارسل جيشاً للاستيلاء على مكة فانفذ حاكمها هارون الى الموفق الخبر فارسل اليه مدداً تحت قيادة جعفر فحاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مائتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بلعن ابن طولون في مسجد مكة

الا ان هذا جميعه لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمه في اعماله الاخرى فانه سار الى سليسيا لاخماد الثورة ومقاصة المعتدين فمر في طريقه بدمشق وبنى قبة فوق مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزينها بالقناديل واقام فيها من يتلو القرآن ثم قدم اطنه لمقاصة بزمار حاكمها لامتناعه عن مبايعته وكان بزمار قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى قتاله بفرقة من الجند فحول بزمار نهر سدنس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياهه وساعدها البرد القارس فاهلكا معظم الجند فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام . فانتقل لنجدة جهات اخرى كان يهددها الروم فسار بفرقة من رجاله الى باياس فانطاكية حيث كان ينتظره القضاء المبرم . وذلك انه شرب فيها مقداراً كبيراً من لبن الجاموس فاضر في صحته فانذره الطبيب الذي كان معه واسمه سعيد بن ثيوفيل فاهمل انذاره وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضه كثيراً فاسرع الى مصر محمولا على الاذرع في محفة لكن الضعف لم يسمح له بالاستمرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم حمل الى الفسطاط في النيل

فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطرة . فنادى اليه الاطباء وهددهم بالقتل اذا لم يبذلوا الجهد في شفائه

فحدث في مصر من القلاقل ما شغل ابن طولون عن الاهتمام بصحته . وذلك ان احد العلويين واسمه احمد بن عبد الله لما بلغه حال احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليه فرقة من رجال الصعيد فانفذ اليها احمد فرقة من رجاله ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

المصالحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنج طويلا فاز بهم لكنه مل الحرب ومال الى السكينة وكانت شعائره العدوانية نحو ابن طولون اخذت على طول الزمن في الخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود . ولم تكن رغبة ابن طولون في المصالحة اقل من رغبة الموفق . والظاهر ان المرض اضعف منه حاسة الانتقام فمال الى صرف القلاقل . وكان الموفق اشد رغبة في صرفها فعهد الى سعيد بن مخلد وجماعة من ذويه ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونه انها منهم بغير علم الموفق يبينون له ان ما حصل انما كان من عواقب التسرع في الحكم وان يتفقوا معه على المصالحة ففعلوا كما امرهم . فلما اطلع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من تدبير الموفق . على ان ذلك لم يمنع قبوله بالمصالحة فوافقه على نسيان ما مضى من سوء التفاهم ووعده باعادة الصلات الودية على ان يصرح الموفق جهاراً بتنازله عن شعائر الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون كشف ضميره فاجابه انه آسف على ما فرط منه وعامل على استئصال جراثيم الحقد وانه يرغب الى صديقه الجديد ان يقبل تلك المصالحة فقبل . اما المعتمد فسر جداً لما دار بينهما وكتب بخط يده الى ابن طولون يحمد سعيه ويطلب اليه ان يبقى مسالماً لاخيه الموفق واخبره انه قد ابطل لعنه . فلم تبلغ مصر رسالته الا بعد وفاة ابن طولون لان صحته كانت تتأخر يوماً فيوماً والالم المعدي المتسبب عن افراطه من اكل لبن الجاموس يشتد عليه مصحوباً بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق ذلك زرب ذهب بما بقي من قواه

فلما احس احمد بدنو الاجل استغاث بصلوات شعبه على اختلاف معتقداتهم . فصعد المسلمون بقرآنهم والمسيحيون بأناجيلهم واليهود بتوراتهم الى المقطم فاقاموا فروض الدعاء الى الله ان يشفي مليكهم . وكان في جملة من حضر الاحتفال الفقهاء

وطلاب العلم وكانت جوامع المدينة غاصة بالجماهير يقرأون القرآن والحسنات تفرق في الفقراء بسخاء فانتفع الناس في موته كما انتفعوا في حياته . ولما تأكد قرب الساعة صلى قائلا « اللهم ارحم عبدك وعلمه قدر نفسه لانه لم يعرف لها قدراً وانصفه برحمتك » واخذ بعد ذلك يكرر الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاته بقليل اخرج بكاراً من السجن لكنه لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الا أياماً حتى توفي ودفن في الفسطاط ولا يزال مقامه معروفاً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠ ﻫ (الموافق ١١ مايو سنة ٨٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتمد وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً ورثاه بقصيدة تدل على ان المعتمد كان شاعراً اكثر من كونه حاكماً . وحكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل سيرة حياته يجد فخره انما كان بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيه الهمة وتحمله على توسيع نطاق مملكته وقد خلف ثروة قدرها عشر ملايين دينار وعدداً كبيراً من الاسلحة والامتعة و٧ آلاف مملوك تحت السلاح و٢٤ الف مملوك بغير سلاح وكثيراً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان غلة مصر بلغت في ايامه مائة مليون دينار سنوياً . وقال آخرون انها لم تبلغ عشر هذا القدر وهو الارجح وكان شجاعاً هماماً حليماً شفوقاً

مناقبه

ومن امثال شفقته انه ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطىء النيل صياداً عليه ثوب خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله وقد القى شبكته في البحر . فلما رآه رق لحاله وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له هذا الغلام (واشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً . فقال فتشه يا نسيم فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فحرض الصبي ان يأخذها فابى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني . فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه

في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اباه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه

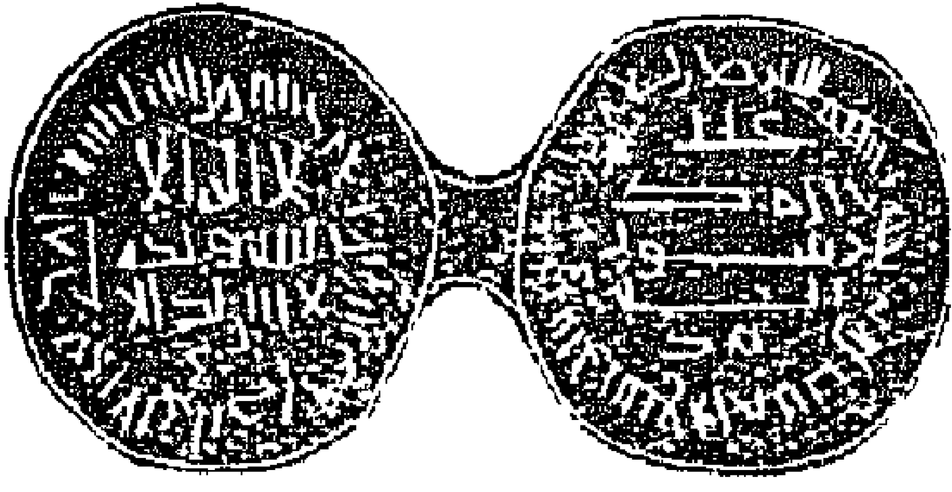
واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر في المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقتبل فيه التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقياً يحترم الشعائر الدينية كثيراً فكان له في قصره حجرة جعل فيها رجالا سماهم المكبرين يبيت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقرأون القرآن تجويداً بالالحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون اوقات الاذان

ومن مناقبه الحميدة حبه لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة فكان ينفق في سبيل ذلك الفي دينار شهرياً سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطابخه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران مما في القدر وكانت تعمل في داره وينادي من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرّه ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متولياً تفريق الصدقات « أيد الله الامير انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا الكف المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم »

فقال « يا هذا من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المشهورة التي ذكرها الله في كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . احذر ان ترد يداً امتدت اليك »

وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً ١٧ ذكراً و١٣ انثى ولم يكن عمره عند وفاته اكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من نسله دولة تخلد ذكره . الا ان هذه الدولة لم تمكث بعده الا ٢٢ سنة

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ وعليها اسمه واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٤٠)



ش ٤٠ ـ نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

خمارويه بن احمد

من سنة ٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ او من ٨٨٤ ـ ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خمارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وسنه ٢٠ سنة واقب بأبي الجيش فسر الناس من توليته . واما العباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان أباه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه وأوصى له بامارة الشام تحت امارة أخيه خمارويه لكنه ما لبث أن اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خمارويه أن يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقرًّا لرجاله

وأول شيء اتاه خمارويه انه قرب قلوب الرعية اليه بنزاهته ونصرته للحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريرك ميخائيل وكان هذا قد عزل الاسقف سكا لسوء سيرته وتعاليمه فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمراً شراً فسعى الى احمد بن طولون فساداً وادعى ان البطريرك وافر الثروة وهو لا يحتاج الى المال . وكان احمد اذ ذاك يتأهب المسير الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريرك المذكور وقال له « ان من كان في مكانك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من الطعام واللباس وقد علمت انك ذو ثروة والبلاد في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع ما لديك الى بيت المال » فاجتهد البطريرك في رفع تلك التهمة عنه فذهب اجتهاده عبثاً . والقي في السجن ومعه أحد شمامسته المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا وابراهيم ابنا موسى كاتب احمد بن طولون على عاتقهما ان يطلق البطريرك بعد أن يدفع مبلغاً يجمعه من رعاياه المسيحيين . فكتب على نفسه صكاً بمبلغ ٢٠ الف دينار يدفعه على دفعتين لكنه لم يستطع الدفعة الاولى الا بعد العناء الشديد والاستقراض وبيع أوقاف الكنيسة لان ما فرضهُ على أبناء

الكنيسة لم يكن وافياً بالمطلوب . فاصبح البطريرك في حالة اليأس وانزوى في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبلغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعه فنسب اليه الاستبداد وهو براء منه . ولما آن وقت الدفع لم يكن قادراً عليه فقيد ثانية الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خمارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيله ويبرىء ذمته مما كان باقياً عليه ففعل وكان لذلك وقع عظيم عند الاقباط

حدائق خمارويه واصطبلاته

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام أبيه فابقى أرباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبد الله وقيادة ما بقي من الجيوش في يد سعيد الايسر . ولكي يتأكد مناعة الشام أرسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهها . ولما اطمأن باله من قبيل ذلك عكف على الداخلية فاقبل على قصر أبيه وزاد فيه وأخذ الميدان فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك . وبنى في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من أصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت . وجعل فيه اوكاراً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على أحسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي يغنينه بما عليهن من اللباس بالوانه وجعل عليهن من الحلي مثل ما اعتدن لبسه

وجعل أمام هذا البيت فسقية ملأها زئبقاً . وسبب ذلك انه شكا الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولا في ٥٠ عرضاً وملأها من الزئبق وجعل في أركان البركة سككاً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير في حلق من الفضة . وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على

تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل هذه البركة

وبنى ايضاً بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً في داره داراً للسباع « عمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغذاء في كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط ما يرميه اليه من فضلاتها . فاذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير واذا كان على الارض فبجانبه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

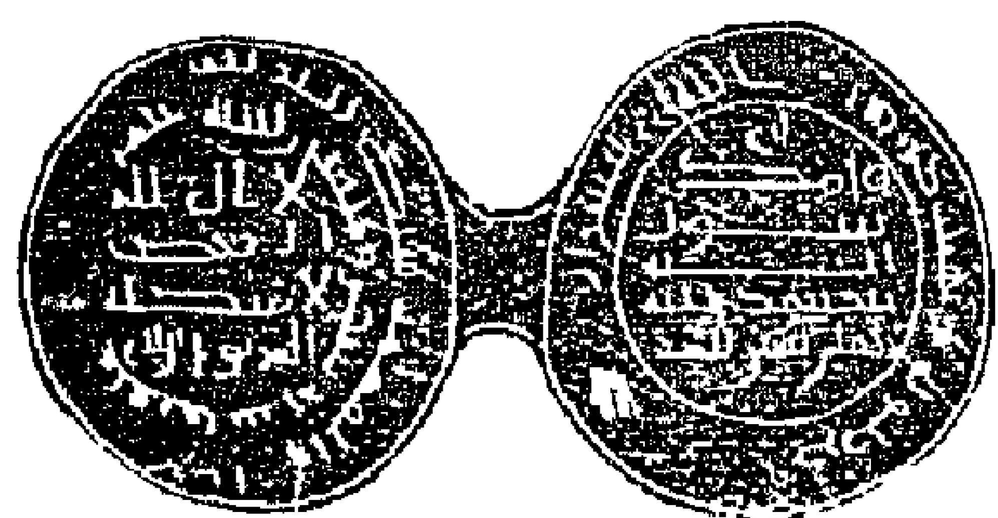
واتسعت أيضاً اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفرداً وعمل للنمور داراً مفردة ومثل ذلك للفهود وللفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجيزة . وكان له أيضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في أيامه تسعمائة الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في أيامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل أخاه وكان ذلك بايعاز أبي عبد الله قائد جيوش الشام ثم خاف أبو عبد الله أن يعود خمارويه الى الانتقام منه اذ يندم على قتل أخيه فعمد الى المكيدة فكاتب الموفق يقول له « ان هذا الغلام خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الا أنها وسيلة للتمتع بالملاهي » وكتب اليه غير ذلك مما شوق الموفق الى الاستيلاء على مصر . وأخذت العداوة تنمو بينهما من ذلك الحين . وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت واقعة عظيمة بين احمد بن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين

واقعة الطواحين

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لولا ما كان في قلبه من البغض لخمارويه لم يستول على دمشق لأن أبا عبد الله سلمه اياها بدون حرب . فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشه قاصداً استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعه سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتمد بالله فسار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فأتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكره وكثرة من معه من الجموع فهمّ بالعود فلم يمكنه أصحاب خمارويه الذين صاروا معه . وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداج وابن أبي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراه ليصل اليهما ففسدت نياتهما معه . ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فملكه فنسبت الواقعة اليه . ثم وصل المعتضد وقد عبى أصحابه وكذلك أيضاً فعل خمارويه وجعل له كميناً عليهم سعيد الايسر . فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت . فلما راى ذلك خمارويه ولم يكن راى مثله قبله ولى منهزماً في نفر من الاحداث الذين لا علم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فنزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر . فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد أن خمارويه قد عاد فركب وانهزم ولم يلو على شيء . فوصل الى دمشق ولم يفتح له أهلها بابها فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس وبقي العسكران يتضاربان بالسيوف وليس لواحد منهما أمير . فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فأقام أخاه أبا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر « ان هذا أخو صاحبكم وهذه الاموال تنفق فيكم » ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال . وسير البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير أنه أكثر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبله . فقال لاصحابه ان هؤلاء أضيافكم فاكرموهم ثم أحضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فله الاكرام والمواساة ومن أراد الرجوع جهزناه وسيرناه . فمنهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها أجمع فاستقر

ملك خمارويه له . وهذه الواقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق ثم عادت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الحادي والاربعين



ش ٤١ ـ نقود عليها أسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق وبايع قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن أخيه . وفي أول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها المعتضد . وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد أن حكم ٤٣ سنة فبويع ابن أخيه المعتضد بالله فاغتنم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين ابن عبد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة أن مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار وانها ستدفع أيضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار . فأجابه الخليفة بتثبيته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته أو امارة أبيه وأرسل اليه أيضاً الخلعة والسيف المختصين بهذا المنصب فدفع خمارويه الدفعة الاولى تماماً لكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على أنه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بينه وبين الخليفة فأرسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بأن يكون الزفاف له . وحصل ذلك على أعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمتها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر أعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فأمر طغج ابن جف أمير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خمارويه مقتولا في دمشق . وذلك أنه نمي اليه أن بين بعض نسائه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عليه فأخذ في تحقيق الامر وتأكيد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نسائه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في

كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته القي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة وبعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقلت جثة خماروية الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة أبيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من أحسن الناس حظاً . وحالموته بويع ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

جيش بن خماروية

من سنة ٢٨٢ ـ ٢٨٣ هأو من ٨٩٥ ـ ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ ه أبى طغج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعد يسير ثارت الجيوش في مصر بدعوى أنهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبياً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلا بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه أو على شاكلته . وبعد تسعة أشهر من حكمه ثار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره وأحرقوا المدينة

هارون بن خماروية

من سنة ٢٨٣ ـ ٢٩٢ ه أو من ٨٩٦ ـ ٩٠٤ م

وأقام زعماء الثورة أخاه هارون مكانه . وقيل أن المعتضد ثبته على مصر لانه وعده بمال يحمله اليه مقداره مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي لؤلؤ وهو الذي كان يسعى بين احمد بن طولون والموفق سعياً آل الى خرب بين الفريقين . وكان لؤلؤ قد ضم جيشه الى جيش الموفق في محاربة الزنج الا أنه لم يأتِ ذلك الضم بفائدة تذكر . ولما وصل احمد بن طولون الى الشام لم يستطع القبض على لؤلؤ نفسه فقبض على ما كان له في دمشق من الاهل وفيهن نساؤه وأولاده وسراريه وباعهم في سوق الفسطاط . فلما بلغ ذلك لؤلؤاً أخذ منه الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليه أن يعطيه جنداً ليغزو به مصر ويمتلكها وينتقم من ابن طولون . وكان الموفق قد عقد صلحاً مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤاً سلباً فوعده بنيل مرغوبه وكرر الوعد مراراً وانما فعل الموفق ذلك على نية أن يستبقيه عنده لعله يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسله

اليه هدية . ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيراً جرده من أمواله وطرده من خدمته فالى مصر حيث بيعت نساؤه واولاده وبقي فيها الى ان مات شر موتة

وفي سنة ٢٨٤ ه اي بعد تنصيب هارون بسنة أخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتقرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كاي لنبذ الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طغج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ ه علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فرأى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد أسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلاً بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها

فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء ألداء فكاتب المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العصيان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها أن يذعنوا لسلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهلها

القرامطة

وفي سنة ٢٨٩ ه زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ ه ويقال في كيفية ظهورها ان رجلاً يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزياديين وكان يغالي في التشيع . فاظهر له يحيى انه رسول المهدي وانه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره وان ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من أهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحيى ابن المهدي اليهم من المهدي . فاجابوه انهم خارجون معه اذا ظهر أمره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوه وكان فيمن أجابه سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته ونصه « قد عرفني رسولي ابن المهدي مسارعتكم الى امري فليدفع اليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين » ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب مفاده ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليه

الخمس . وكان يحيي يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً ويزعم انها من المهدي وانه ظاهر فيكونون على اهبة . وصار امر هؤلاء ينتشر وعددهم يتعاظم حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طغج صاحب دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات الشام وهاجموا القرامطة وشتتوهم بعد أن قتلوا شيخهم يحيي

وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ماكان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد بن سليمان فتملكها حالاً وكانت له مباء ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله ينقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل وقعة . ولم يكن ذلك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس وينمو فيه الخصام بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده وأخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من أحد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيبان هو الذي قتله

شيبان بن احمد

من سنة ٢٩٢ ـ ٢٩٢ هـ أو من ٩٠٤ ـ ٩٠٤ م

وانقضاء الدولة الطولونية

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا أنه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان أن يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل العباسة فلقيه طغج في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط وأقبل اليهم عامة أصحاب شيبان

ولما راى شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه أحد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فأعطاهم الامان فبايعوه . أما شيبان فلم يكن يأمن من سكناه في مدينة أقام فيها مغتصباً منه ففر من المعسكر ليلا فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكنه قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة أيام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد أن حكمت ٣٧ سنة وبضعة أشهر

ويوم الخميس أول ربيع أول من تلك السنة القى محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا وهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك . وأخرجوا ولد أحمد بن طولون وهم عشرون انساناً وأخرجوا قوادهم ولم يبق في مصر منهم أحد يذكر . وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الايام . ثم سيق أصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه . وقتل من السودان بسكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثتهم الشعراء والكتاب . وقد وقفنا على قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثونها بها ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل بن ابي هاشم وسعيد ابن القاضي واحمد بن اسحاق الجفر ومحمد بن طسويه وغيرهم . فمما قاله سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مر بعضها قوله :

جرى دمعهُ ما بين سحرٍ الى نحرِ ... ولم يجرِ حتى اسلمتهُ يد الصبرِ
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسى ... يبيت على جمر ويضحى على جمرِ
تتابع احداث يضيّعن صبره ... وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدعها ... ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن ... امرٌ على الاسلام فقداً من القطر
وكان أبو العباس احمد ماجداً ... جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها ... واشراقها في عصره ليلة القدر
يدلٌّ على فضل ابن طولون همة ... محلقة بين السماكين والغفر
فان كنت تبغي شاهداً ذا عدالة ... يخبر عنه بالجليّ من الامر
فبالجبل الغربي خطة يشكر ... له مسجد يغني عن المنطق الهذر
وتنور فرعون الذي فوق قلة ... على جبل عالٍ على شاهق وعر
بني مسجداً فيه يروق بناؤه ... ويهدي به في الليل ان ضلّ من يسري
وعين معين الشرب عين زكية ... وعين أجاج للرواة وللطهر
بناءٌ لو ان الجن جاءت بمثله ... لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

ولا تنسَ مارستانه واتساعه — وتوسعة الارزاق للحول والشهر
وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا — الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
ترى أثراً لم يبقَ من يستطيعه — من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام ابو الجيش ابنه بعد موته — كما قام ليث الغاب في الاسل السمر
أتته المنايا وهو في امن داره — فاصبح مسلوباً من النهي والامر
وورّث هارون ابنه تاج ملكه — كذاك ابو الاشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبلهُ في محله — ولكن جيشاً كان مستقصر العمر
فقام بامر الملك هارون مدة — على كظظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشحٌ — عقاربه من كل ناحية تسري
فمن يبكِ شيئاً ضاع من بعد أهلهِ — لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبكِ بني طولون اذ بان عصرهم — فبورك من دهر وبورك من عصر

أما القرامطة فاغتنموا غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ماكانوا عليه في سوريا فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفاً في مصر حاميتها وجيش الخليفة . الا ان الامور لم تكن قد سكنت تماماً فثار ابن قلندج وضم اليه عصبة سببت اضطراب الراحة فاستدركها ابن كيغلغ حاكم سوريا فترك دمشق ومعه جيش الخليفة الذي كان تحت قيادته وجاء لاخماد ثورة مصر فاغتنم القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فنهبوها ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة أن تلاقيهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة له بهذا التاريخ

الدولة العباسية للمرة الثانية

من سنة ٢٩٢ ـ ٣٢٣ هـ أو من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من ٢٩٢ ـ ٢٩٥ هـ أو من ٩٠٥ ـ ٩٠٨ م

فعادت مصر الى سلطة الدولة العباسية في خلافة المكتفي فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ وعمره ٣١ سنة و٣ أشهر بعد ان حكم ٣ سنوات و٧ أشهر و٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ أو ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فلم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقر عيسى النوشري على مصر . على أن هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها لمحمد بن الخليج ولم يلبث بضعة أشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات . وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فأقيل واقيم مقامه زكا الرومي أبو حسن الاعور . فتولى مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٧ هـ فأعيد تكين ثانية . وبعد أيام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . أما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد أن حكم ٢٤ سنة و١١ شهر و١٦ يوماً

خلافة القاهر بن المعتضد

من ٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ أو من ٩٣٢ ـ ٩٣٤ م

فبويع أخوه القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاصّ محمد بن تكين على جسارته فولى على مصر أبا بكر محمد بن طغج ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان أبو بكر محمد بن طغج في ذلك الحين حاكماً في دمشق وأصله من اولاد ملوك فرغانة . وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليه من فرغانة جماعة من اقوياء الرجال ووصفوا له جف (جد ابي بكر محمد) وغيره بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من أحضرهم . فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع في سامرّا وفي جملتها قطائع جف فاقام جف في سامرّا (او سرّ من رأى) وجاءته الاولاد وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل الاربعاء في ٣ شوال سنة ٢٤٧ ﻫ وخرج أولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معائش . واتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو اذ ذاك مقيم بديار مضر (في ما بين النهرين) فاستخدمه على ديار مضر ثم انحاز طغج الى جملة أصحاب اسحق بن كنداج . فلم يزل معه الى ان مات أحمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنه خمارويه وبين اسحق بن كنداج . ونظر أبو الجيش خمارويه الى طغج بن جف في جملة أصحاب اسحق فاعجب به وأخذه من اسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق او طبرية ولم يزل معه الى ان قتل أبو الجيش فرجع طغج الى الخليفة المكتفي بالله فخلع عليه وعرف له ذلك . وكان وزير الخليفة يومئذ العباس ابن الحسن فسام طغج أن يجري بالتزاف مجرى غيره . فكبرت نفس طغج عن ذلك فاغرى به المكتفي فقبض عليه وحبسه وابنه أبا بكر محمد بن طغج المذكور فمات في السجن وبقي ولده ابو بكر معه محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليه . ولم يراسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى أخذ بثأر أبيه هو وأخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه حسين بن أحمد بن حمدان

وخرج ابو بكر وأخوه عبيد الله في سنة ٢٩٦ ﻫ وهرب عبيد الله الى ابن أبي الساج . وهرب ابو بكر الى الشام وأقام متغرباً بالبادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانه . ومما كبر به اسمه سريته في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم سنة ٣٠٦ ﻫ وهو حينئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من أمرهم بقتل من قتله وأسر من أسره وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت

فانفذ اليه خلعاً وزاده في رزقه . ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ ه ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليه بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ ه فوردت كتب المقتدر اليه بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاه القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ ه لكنه لم يذهب الى مصر لاستلام المنصب المشار اليه ولم يلقب به الا مدة شهر فقط . ثم عين الخليفة مكانه احمد بن كيغلغ سنة ٣٢١ ه وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بلغ صداها القطر المصري

خلافة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ - ٣٢٣ ه او من ٩٣٤ - ٩٣٤ م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ ه عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وستة ايام . وفي اليوم الثاني بويع ابن اخيه الراضي بالله ابن المقتدر وحال توليته الخلافة عزل ابن كيغلغ عن مصر وولى مكانه محمد بن طغج فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغلغ من تسليمه وتخاصما حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغج وفر احمد بن كيغلغ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

مبدأ الدولة الفاطمية

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعى الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقية ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة أخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد أخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ ه في شمالي افريقيا وغربها في احزاب من الاغالبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني أمية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠ ه استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦ ه رأى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيد الله المهدي وانه آخر الائمة العلويين الذي يدعي انه منهم وانه أحق من سواه

بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعي الاحقية بالخلافة وهم بنو أمية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليه من الثروة والخصب تاقت نفسه اليها وأخذ يسعى في الاستيلاء عليها.

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزيئة عن مصر فجرت بين الفريقين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على أعقابهم وطاردهم المصريون حتى أخرجوهم من حدود مصر . فرأى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنه رأى أيضاً حصونه غير كافية فأسس مدينة دعاها المهدية نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقائم بامر الله وكان اكثر تشوقاً للافتتاح من أبيه

وفي أيام القائم هذا جاء احمد بن كيغلغ مطروداً من مصر يطلب ملجأ عنده وجعل يحثه على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القائم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها فعلم محمد بن طغج ذلك فحصن الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لكن ذلك لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكنوا قدمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا الفسطاط واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد . ثم رأى القائم بامر الله ان جنده لا يقوون على افتتاح العاصمة فأجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها

أما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان امارتها أخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . فاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنو بويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ او من ٩٣٤ ـ ٩٦٨ م

محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ او من ٩٣٤ ـ ٩٤٦ م

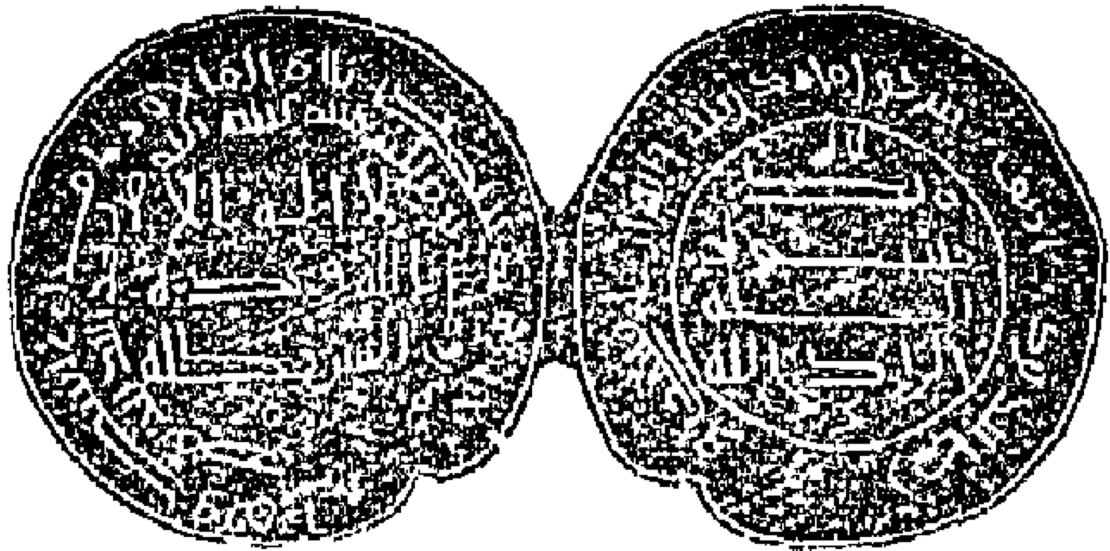
فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على ما تقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تثبيته وملكه فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيده . وفي سنة ٣٢٧ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم ومفاد هذه اللفظة في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان واليمن تبع والحبشة النجاشي الخ . ومن سلالة أبي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة أمر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ أعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له ان يغزو الشام وعليها الامير بدر ابن عبد الله الاخشيدي من قبل الاخشيد فحاربه فهرب بدر فنهض محمد الاخشيد لانجاده مستخلفاً في مصر اخاه الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت الى هناك فتوسط بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي أحسن وتصالحا . فعاد محمد الاخشيد الى الفسطاط وما بلغها حتى انبيء ان محمد بن رائق برح دمشق وفي نيته أن يهاجم مصر . فاسرع الاخشيد حالا الى ما كان عليه فعاد بجيشه الى الشام فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت واقعة شفت عن انهزام جيش محمد بن رائق الى دمشق . فوضع محمد الاخشيد على يده الرملة وأسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق وفي هذه الواقعة

قتل حسين اخو الاخشيد. فاكان من ابن رائق مع ماكان بينه وبين الاخشيد من العدوان الا انه انفذ اليه ابنه مزاحماً ومعه كتاب يعزي الاخشيد فيه على فقد اخيه ويعتذر مما جرى ويحلف انه ما أراد قتله وانه قد انفذ ابنه ليفديه به ان أحب ذلك . فلما بلغ مزاحم محمداً الاخشيد اكرم مثواه وخلع عليه واصطلحا على ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر للاخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل اليه الاخشيد عن الرملة ١٤٠٠٠٠ دينار كل سنة. وبعد ان أتم محمد الاخشيد هذه المعاهدة عاد بجيشه الى مصر سنة ٣٢٩ ه

وفي ٦ ربيع أول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله وعمره ٣٢ سنة وشهور ومدة حكمه ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويع اخوه ابو اسحاق ابراهيم الملقب بالمتقي لله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ ه كما ترى في شكل ٤٢



ش ٤٢ — نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ ه أقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر . ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قتله الحمدانيون فنهض لاسترجاع البلاد التي كان أقام بينه وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل الشام مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ ه تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فأوصى بالحكم من بعده لابنه أبي القاسم محمود الملقب بانوجور

وفي سنة ٣٣٢ ه حصل شغب في بغداد وسببه ان لقب امير الامراء الذي كان يهبه الخليفة لكبار الاتراك أصبح في نظرهم اشرف من الخلافة فناله توزون وجعل يقاوم الخليفة في احكامه حتى اضطر الخليفة الى ترك بغداد وهاجر الى الموصل . فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشاً قوياً وسارا ومعهما الخليفة الى بغداد فهاجموا توزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل فخلع الخليفة على كل من الاميرين الحمدانيين خلعة الشرف وهي غاية ما كان للخلفاء ان يهبوه في ذلك العهد . ثم سار الخليفة من الموصل الى الرقة فلاقاه كتاب توزون يدعوه للعود الى بغداد . فلما رأى الخليفة ان نصراءه من بني حمدان عجزوا عن نجدته لاح له قبول ما دعاه اليه توزون وقبل أن يرم

بذلك جاءه محمد الاخشيد من مصر يدعوه اليها مباء له فرفض فألح عليه الاخشيد وعاهده ان يقوم بكل ما يحتاج الخليفة اليه من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد ويلقي نفسه بين أيدي توزون . فتردد الخليفة بين الامرين . فلما رأى توزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصره عليه فجاءه بنفسه وترامى على قدميه وألح عليه ان يتوجه معه الى بغداد زاعماً انه لا يعرف احداً غيره خليفة على المسلمين . فسار معه ولم يكد يبلغ تلك العاصمة حتى خلعه في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و ١١ شهراً وولى مكانه أبا القاسم عبد الله بن المكتفي واقب بالمستكفي بالله . وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و ٤ أشهر ويومين . فبويع مكانه الفضل بن المقتدر ولقب المطيع لله. وبقي هذا على دست الخلافة ٣٠ سنة وهو آخر من كانت له السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في شكل ٤٣



ش ٤٣ نقود الخليفة المطيع لله

أما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميالا الى مطاوعة توزون في المسير الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر . فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المونسي من قبل الاخشيد فحاربه فاستولى عليها. ثم سار متعقباً ابراهيم الاوكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبه بين سرمين والمعرة واستولى على دمشق وكانت الى ذلك العهد في حكم محمد الاخشيد . فأرسل محمد الاخشيد في الحال كافوراً الى الشام وكان من مواليه وله فيه الثقة التامة وأرسل معه جيشاً كبيراً

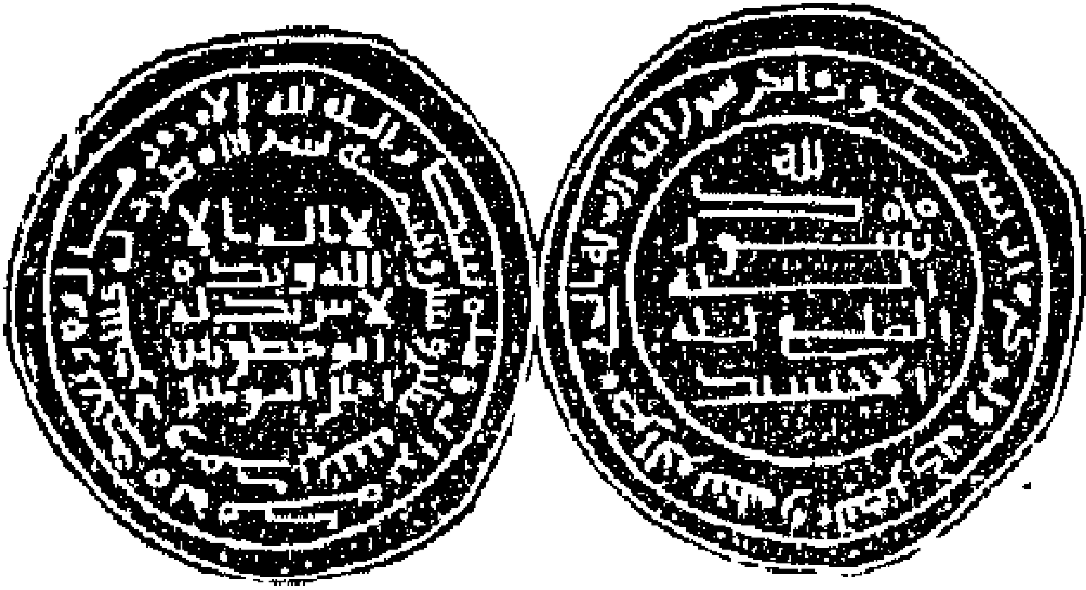
وكان كافور عبداً اسود خصياً مثقوب الشفة السفلى بطيناً قبيح القدمين مثقل البدن جلب الى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع . فباعه لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسله بهدية يوماً الى الامير أبي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذ أحد قواد تكين امير مصر فأخذ كافوراً ورد الهدية فترقى عنده بالخدمة حتى صار من أخص خدمه . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بأن سيف الدولة علي بن

حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى خرج لملاقاته فالتقى الجيشان يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فهجم كافور على معسكرهم وسلب مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعه كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فتبعه كافور وكان سيف الدولة في انتظاره هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينه وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبوره بجيشه فاغتنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية سابحة في الماء وهجم عليهم فأخذ منهم خمسة آلاف أسير وجميع امتعتهم وفر كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى أتى المعرة . فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية بقيادة الاخشيد فهاله الامر ولكنه لم يشأ الفرار فعزم على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس . فأرسل خزائنه وعبيده وحرمه الى ما بين النهرين وتقدم بجيشه لمقابلة الاخشيد فالتقيا في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشه الى فرقتين جعل الرماحة الى الامام وسار هو في عشرة آلاف رجل من نخبة الرجال الى الوراء . فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشتتها أما فرقة الاخشيد فكانت راسخة القدم فلم يقدر سيف الدولة على تشتيتها تماماً لكنه استولى على بعض متاعها . فافترق الجيشان ولم تنته الغلبة لاحدهما . وسار سيف الدولة الى منبج فعبر بحيرتها قاصداً ما بين النهرين . فرض في الرقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك ويفصل الجيشين نهر الفرات وبقيا عدة أيام بدون حرب . ثم اصطلحا على ان تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ومن حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد . وحفروا خندقاً بين جوشنا ولبوه حداً فاصلا بين المقاطعتين حيث لا يوجد هنا حدود طبيعية. وتأييداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلاده . الا أن المصالحة المذكورة لم تلبث حتى نقضت وحصل بين الاخشيد وبني حمدان مواقع آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وعمره ستون سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ أشهر ويومان ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة أخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكا حازماً شجاعاً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد العضل لا يكاد

يجر غيره قوسه . وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم اذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين . وكان لا ينام ليلتين متواليتين في مكان واحد فلم يكن أحد يعلم بمكان نومه . على ان المؤرخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكته باختلاف الازمان وان قالوا انها نحو المملكة الطولونية في زمانها أي أنها تشمل مصر وفلسطين وسوريا الى الفرات وقسما كبيراً من بلاد العرب. وقد شكى المسيحيون من جوره . فكان اذا جرد حملة واحتاج لاعانة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم أو كنائسهم في سبيل ذلك . وقال أحد المؤرخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يرد لهم مايأخذه في سبيل الاعانة . ومما يبرىء ساحة الاخشيد أنه ظفر بمخبأة في بعض الآثار القديمة أصاب فيها أشياء تساوي مبالغ وافر فلم يكن والحالة هذه في حاجة الى سلب مال الاهلين



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٢ ه كما ترى في الشكل ٤٤ .

ش ٤٤ ـ نقود محمد الاخشيد

انوجور بن الاخشيد

من ٣٣٤ ـ ٣٤٩ ه او من ٩٤٦ ـ ٩٦١ م

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير أبيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بأمانة ونشاط يستوجب عليها المدح . فعزل أبا بكر محمداً جابي الخراج لتعدد التشكيات وثبوتها عليه وأقام مقامه رجلا من ماردين يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنه الى مصر فشخص هو الى دمشق واستولى عليها . وأسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ ه أغار ملك النوبة على مصر حتى أتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر وأنفذ عمارة بحرية في

النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فنزلت على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة لتسد على النوبيين السبيل . فتضايق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلا وراء اصوان) في أيدي المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة أيام وولي مكانه أخوه علي الملقب بابي الحسن

ابو الحسن بن علي الاخشيد

من ٣٤٩ – ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ – ٩٦٦ م

وحكم أبو الحسن على مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع أخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للري . وكان في السنة التالية أقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين أبي الحسن وكافور .

وفي أثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا على حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فحاربوه فتجند صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين وأسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاختار الرجوع

كافور الاخشيدي

من ٣٥٥ – ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ – ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفي أبو الحسن علي فخلفه كافور وتلقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع لله ان يثبته في مصر ففعل . وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر . وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها

وبقي كافور في منصبه هذا سنتين و ٤ أشهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مد سلطتهم رويداً رويداً الى سائر

الصعيد . وتوفي كافور في ١٠ جمادى الاولى سـنة ٣٥٧ ه ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

احمد ابو الفوارس بن علي

من ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ه او من ٩٦٨ ـ ٩٦٩ م

تخلف كافوراً احمد أبو الفوارس بن أبي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبته الخليفة في الحكم . أما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدي الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاء القرامطة وأخذوا البلاد من يده ففرّ الى مصر قاصداً اغتيالها من أحمد أبي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن الممالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين أعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فلبوا الدعوة ففرّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق . وأما أحمد أبو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت أيام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و ٢٤ يوماً

الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ او من ٩٦٩ ـ ١١٧١ م

خلافة المعز لدين الله

من سنة ٣٥٨ ـ ٣٦٥ هـ او من ٩٦٩ ـ ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد أبي تميم الملقب بالمعز لدين الله ابن القائم بأمر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على افريقية (يراد بها شمالي افريقية من برقة الى مراكش) ومالطة وسردينيا وصقلية واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتىء هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يعد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه غير مرة ولم يفز . حتى اذا كان الخلاف بين أبي الحسن علي وكافور كما تقدم . فلما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قليلا . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً أرسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بأبي الحسن وعظم محله عنده . وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيره قائداً للجيوش وبعثه في صفر منها في جيش الى تاهرت فأوقع في عدة أقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل الى سجلماسة ومنها الى أن بلغ البحر المحيط (الاتلانتيكي) واصطاد منه سمكا وجعله في قلة ماء وبعث به الى مولاه المعز وأعلمه انه قد استولى على كل ما مرّ به من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس وألح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة . ثم عاد في أخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاخذ مصر وقد تهيأ أمرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه أكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سراً وأطلق يده في بيوت أمواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى

ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولندخلن مصر بالاردية من غير حرب ولننزلن في خرابات ابن طولون ونبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وأمر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وأمر اولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر أهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة افتدى صاحبها ترجله ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهباً فأبى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فمشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع أول سنة ٣٥٨ هـ ودعه أهلها . ومما قاله محمد بن هانىء بهذا الشأن قوله :

رايت بعيني فوق ما كنت أسمع . وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف اودع ولم أدر اذ شيعت كيف اشيع

ومنها قوله :

اذا حل في ارض بناها مدائناً وان سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت العز حيث محله وجم العطايا والرواق المرفع ،
رحلت الى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل بالذي أنت تجمع
فان يك في مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

فما زال جوهر في طريقه الى مصر براً حتى دخلها وسار نحو الصعيد وأسرع جنوباً ليرد هجمات ملك النوبة الذي كان نازلا نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح أهلها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين أبي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فأتاه الاهلون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى مناد فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد من زوال

الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته فرس أصفر ونزل في ما هو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى الفسطاط بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وأزال الشعار الاسود العباسي وألبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير أصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب لمولاه المعز بما أتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة أمر جوهر ان يزاد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم وصل على الأئمة الطاهرين اباء المؤمنين » وفي أيامه صار يذكر بالآذان حي على خير العمل

فساد الاحكام في الدولة العباسية

وكانت الدولة العباسية لا تزال في قبضة المطيع لله وقد فسدت الامور وذهب نفوذ الخليفة وأصبح النفوذ ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير ما يكتسبونه من المال في أثناء نفوذ كلمتهم فأصبح الغرض الاول من عشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملا بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان عشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » وانتبه الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه وأخذوا أمواله ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية . وأصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى أنشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

فلما فسدت الاحكام على هذه الصورة واستبد الوزراء والقواد أراد العمال في الولايات ان يجتزئوا من ذلك في ولاياتهم فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم .

ومنها ما جاءها للتغلب من الخارج ففتحها كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون . وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي

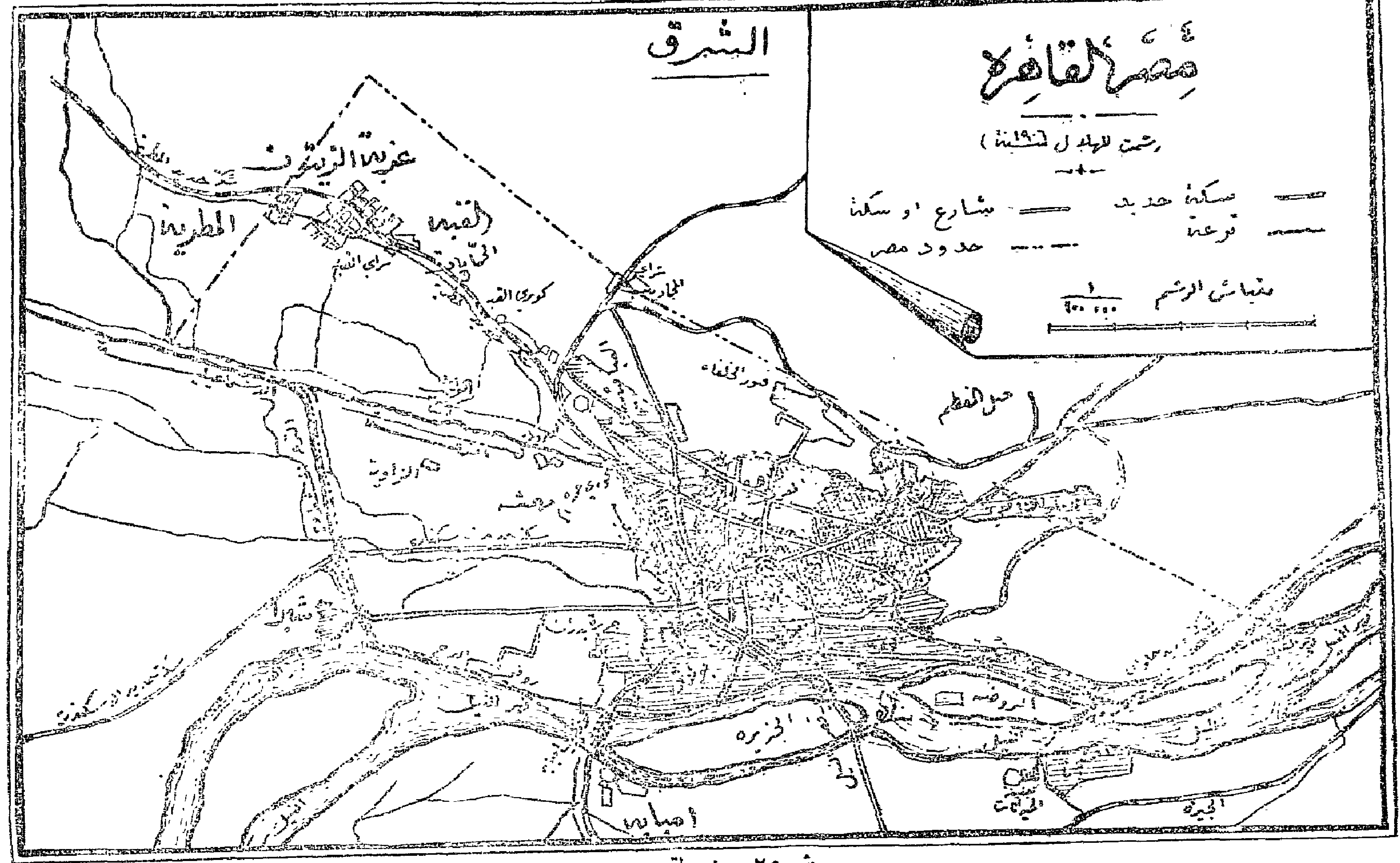
فلم يألُ القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد أخذ على عاتقه صلاتها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ دخل بهما الفساد وساد فيهما الخصام الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فأخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣٤٠٠٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها القاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبني حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاه فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ليفاخر بها بغداد عاصمة العباسيين

بناء القاهرة المعزية

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاختط بقعة من الارض حيث أناخ جماله يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شمالها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالا ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساتين قليلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميها العامة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فأمر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين أحدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلها لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . مكانهما الان محل المحكمة الشرعية المعروف ببيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسين

في نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في أواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني



ش ٢٥ – خريطة مصر

حولها السور وفيه الابواب ولم نزل بعض آثارها باقياً الى هذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها أبوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افريقية وزيره يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد أحوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلس . وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبق له أثر الان فتيامن الناس به وهجروا الباب الآخر حتى جرى على الالسنة ان من مرّ به لا تقضى له حاجة

تاريخ القاهرة المعزية

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط (بين القاهرة ومصر القديمة الآن) فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧ هـ نزل شماليها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليلي وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم وأجروا فوقه قطر الترمواي بين جنوبي القاهرة وشماليها

وكانت تلك البقعة لما عسكر فيها جوهر رمالا يمر بها المسافر من الفسطاط الى المطرية . فلما فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مربعة الشكل تقريباً يحدها من الشرق الجبل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسير فيه السور بموازاة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازاة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقاً الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤٠ فداناً أو ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصراً سماه القصر الكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومساكن الجند والاسطبلات ونحوها . وقد دللنا على مكانها في الخارطة ببقعة بيضاء . وظلت الاسواق وأماكن البيع والشراء ومساكن الاهالي في مدينة الفسطاط . أما الارض خارج المدينة حيث الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية

والاسماعيلية وبولاق فكان أكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تتسع القاهرة في اثناء مدة الفاطميين الا قليلا فصارت مساحتها على عهد أمير الجيوش في أواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠ متر . حتى اذا دالت هذه الدولة ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتملكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ أباح للناس سكنى القاهرة وبنى القلعة في سفح المقطم له ولجنده يعتصم بها من اعدائه لانه كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فأقدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج القاهرة بينها وبين الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وأمر ببناء سور كبير يحيط بها وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً أكمله من جاء بعده فبلغ طوله نحو ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً أو ٨١٦١٦٠٠ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليك وتغير شكل القاهرة في أيامهم ثم نقصت مساحتها واستنزف عمرانها في أيام الامراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة المحمدية العلوية الى النهوض فبلغت مساحتها في أواخر أيام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع وحدودها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقاً الى قرب عابدن ويسير جنوباً حتى يقطع الخليج قرب باب غيط العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال شارع الفجالة وما بعده شرقاً الى باب الشعرية فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل . ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة وقد دللنا على مكانها في الخارطة بخطوط متقاطعة والقاهرة المعزية في داخلها

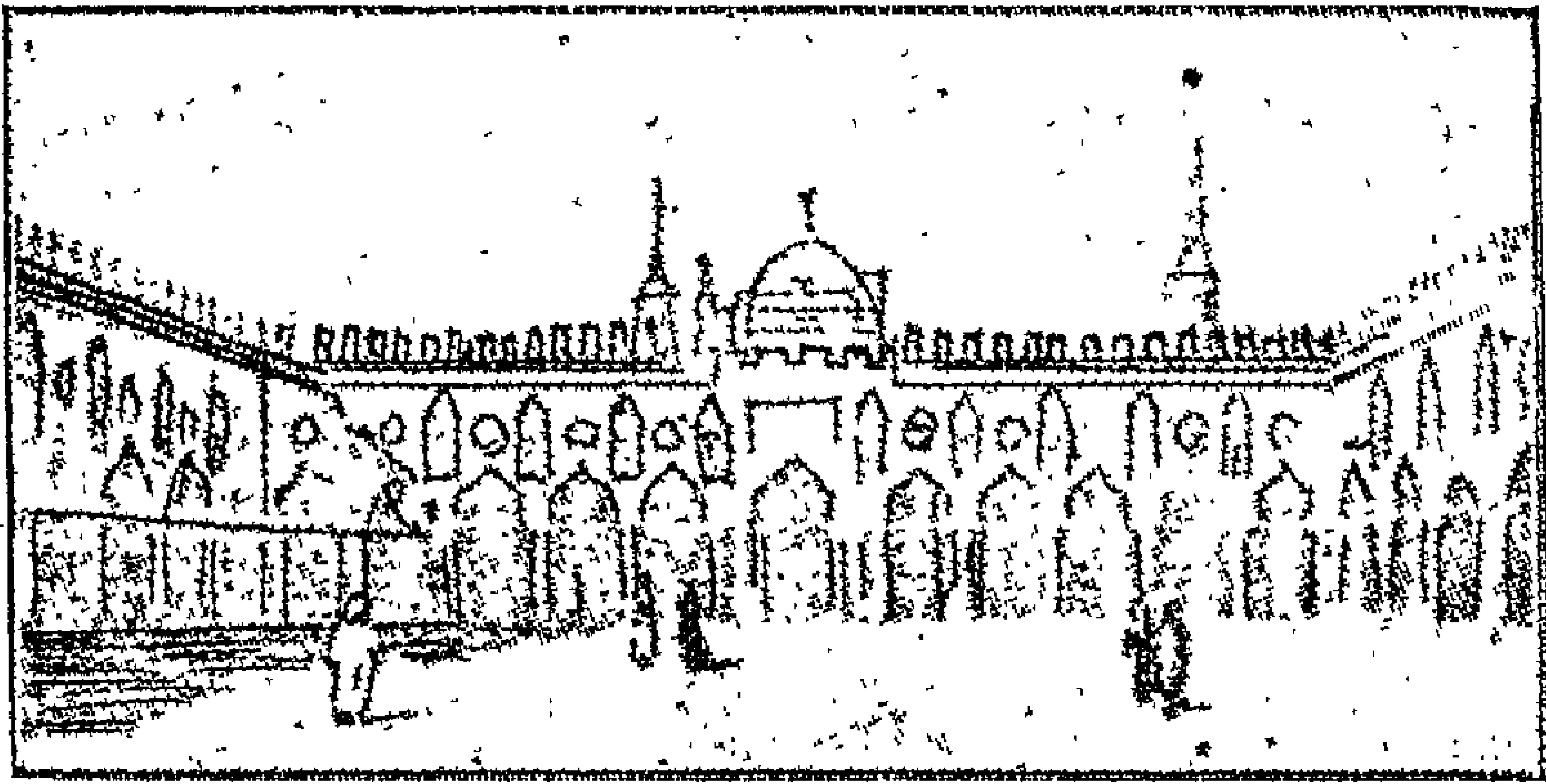
واتسعت مساحتها في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ قبيل الحوادث العرابية ١٢١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي حتى صارت مساحتها الان أكثر من ستة أضعافها قبله وأكثر من خمسين ضعفها لما بناها القائد جوهر بما دخل في حدودها من الضواحي العامرة عاماً بعد عام

دخول المعز قصره

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر

في قصره بأولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف ومثمنات . وبعد ذلك باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولا الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وبعد وصوله بيسير أمر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجداده الذين استحضرهم معه بتوابيت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليلي الان . فلما أنشأ الامير جهاركس الخليلي خانه أخرج ما شاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في أيام كافور الاخشيدي وأسلم



ش ٤٦ ـ الجامع الازهر من داخله

طمعاً بالدنيا فأحبه كافور ورقاه . واشترك مع يعقوب في أمر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعز لهما سجلا بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الالتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكانفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد يفوق التصديق

ثم ابتنى جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو أقدم جوامع القاهرة الا

جامع ابن طولون وأكثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير . وأقام جوهر في الجامع المذكور بأمر الملك العزيز الآتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الآفاق وكان القصد الرئيسي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامرّين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وانشأت القاهرة معقلا لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكم بغير الدين . وكان المصريون يومئذ على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى أخريات أيامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب أيضاً وأما العباسيون فكانوا على مذهب أبي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهان على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي وأجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال . وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتزاحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بأبنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى اصبحت سعته الان نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت أقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٧٦ اسطوانة متفرقة في اجزائه . وصارت ابوابه تسعة

وكانت أعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس أو ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ ﻫ أمر وزيره يعقوب ابن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادىء الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدرجوا من القراءة الى التعليم حتى اصبح الجامع مدرسة كبرى أكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم (سنة ١٩١١) بعشرين الف جنيه

علوم الازهر وبناؤه

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين (نحو مئتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ ﻫ وكان سني المذهب وليس له بدّ من مبايعة خليفة يثبته في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في

الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على أهون سبيل . على انه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب أبي حنيفة ورأى بحكمته وسداد رأيه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فأجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب بحضره أهله . فآل ذلك الى اتساع شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من أربعة اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في أيام السلاطين الايوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الاسلامية الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت أكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم وأهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

على ان فضل الازهر في احياء اللغة العربية لم يكن قاصراً على نشرها في الديار المصرية أو ما جاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية . فقد كانوا يفدون على مدرسته من بلاد الترك والمغرب والشركس واليمن وزنجبار والهند وافغانستان وغيرها . وقد رغب الناس فيه لانه كان يعلم الطلبة مجاناً ويقوم بنفقاتهم من الطعام واللباس والمأوى فضلا عن امتيازه بمهارة الاساتذة . فكان أعظم العلماء المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى ينبغون من مدرسة الازهر وكان المتخرج في هذه المدرسة مزية وفضل على المتخرجين في سائر المدارس الاسلامية وطلابه الان يتجاوزون عشرة آلاف طالب

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء اللذين تولوا مصر بعد المعز . وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايت باي والغوري من سلاطين المماليك . والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كيخيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن كيخيا المذكور جدد فيه أشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دفن فيه . وأخيراً سعيد باشا بن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

نسب الفاطميين

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الآخر منها. ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقائه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » . فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم أحد » قالوا « لم يبق معتبر » فسلّ نصف سيفه وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا

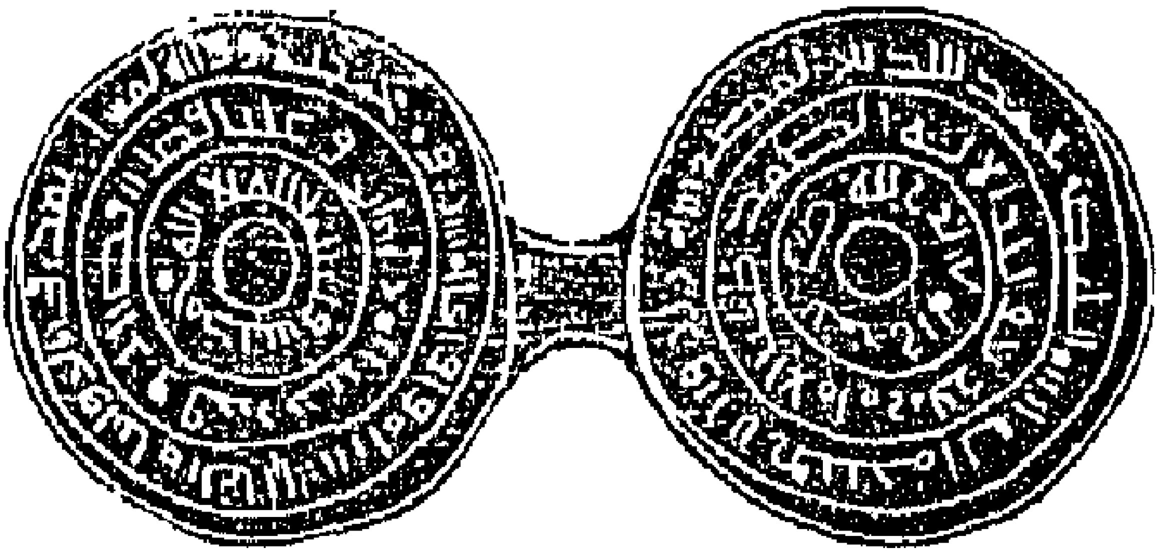
ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلا فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلا حازماً أديباً حسن النظر محباً للنجامة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله :

لله ما صنعت بنا ... تلك المحاجر بالمعاجر
أمضى وأقضى في النفوس ... من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت ببينكم ... تعب المهاجر في الهواجر

وينسب اليه أيضاً :

اطلع الحسن من جبينك شمساً ... فوق ورد في وجنتيك اظلّا
وكأن الجمال خاف على الور ... د جفافاً فمد بالشعر ظلا

وترى في الشكل السابع والاربعين صورة نقود المعز مضروبة بعد دخوله القاهرة بسنة واحدة



ش ٤٧ - نقود المعز لدين الله

خلافة العزيز بن المعز

من ٣٦٥ – ٣٨٦ هـ او من ٩٧٥ – ٩٩٦ م

فلما توفي المعز بويع ابنه نزار بن معد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهدية في افريقية واتسعت المملكة في أيامه حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك أزمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب بن كلس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ أمر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضى الاوامر باسمه وأهداه كثيراً من الغلمان والاموال . فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر المستغلات وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وأرباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق وألف كتباً في الفقه والقراآت وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتسبت نفوذاً عليه فكان يراعي أبناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها حتى اتخذ طبيبه الخاص منهم واسمه منصور بن مقشر وكان يحترمه فاعتل الطبيب يوماً عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وأتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . أقالك الله العثرة وأعادك الى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته »

هفتكين الشرابي

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشرابي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال له الفتكين ابو منصور التركي الشرابي غلام معز الدولة احمد

ابن بويه رقي الخدم حتى غلب في بغداد على عز الدولة بختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات في الحرب . فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين . الا ان أصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فسار بمن معه من الاتراك وهم نحو الاربعمائة الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منه مهابة . وما زال ينتقل من محل الى آخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل

فعلم بذلك العزيز بالله فأرسل اليه جيشاً تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا . اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فنزلها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعة وتأخر عدة . اما هفتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وأدخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فسار الى دمشق . ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سوراً وحفر خندقاً عظيماً وجعل له ابواباً

فتجمع هفتكين برجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختل امر هفتكين وهمَّ بالفرار . ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعه احد — وذلك انه رأى اموالهوقد قلت وهلك كثير ممن كان في عسكره حتى صار اكثر جنده رجالة وأعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فأجابه هفتكين وقد عظم فرحه فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجدَّ في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوه اليها فسار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح ١٧ شهراً ففر جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئاً كثيراً . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد المسير ليمد جوهراً

اما جوهر فلما طال حصاره راسل هفتكين يطلب اليه تقرير الصلح على مال يحمله اليه وان يخرج من تحت سيفه فعلق هفتكين سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه من تحته وسار الى القاهرة . فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير .

فساروا معه وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فسار للقاء العزيز ومعه عدة من رجاله فالتقى الجيشان . فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا هفتكين فاذا هو قد فر على فرس بمفرده فقبض عليه احد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته في عنقه فأمر به فطيف به على العسكر على جمل فأخذ العسكر يلطمونه ويهزون لحيته

ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمه ومن معه وأحسن اليه غاية الاحسان وأنزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله وتطوفي اليه بما غمرني من فضله واحسانه . فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة « يا عم والله اني احب ان أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقي في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ ﻫ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمه (وكان لا يزال حياً) لانه كان يلاحظ بينهما منافسة في التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

مناقب العزيز بالله

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ ﻫ توفي العزيز بالله في بلبيس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة أشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع آبائه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان أسمر اللون أصهب الشعر أشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء محباً للصيد ولا سيما صيد السباع . وكان أديباً فاضلا

ويحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيره وكاتب سره فرفعا الشكوى اليه وطلبا عقاب الشاعر . فاطلع على القصيدة فرأى فيها هجواً به ايضاً فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال هذه الاهانة فشاركاني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيراً اثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه واول من لبس الخفين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح . واول من أقام طعاماً في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان . واول من اتخذ الحمير لركوبه اياها

وكان للعزيز رغبة في اقتناء الكتب مجاراة لمناظريهم من العباسيين فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار . ومئة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عددها من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون بنحو ٢٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فانشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقلّ عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قيّماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه . وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ

ومن آثاره انه أسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم أتمه

خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ ـ ٤١١ هـ او من ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفه ابنه المنصور ابو علي فبويع ولقب بالحاكم بامر الله ولكننا سنرى انه لم يحكم الا خلافاً لامر الله . وكان عمره عند مبايعته احدى

عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير ارجوان فاستأثر بالنفوذ حتى تجاوز الحد

وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها انه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلا وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والقي في السجن وهرب اتباعه . ثم أراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فأركبه جملا واركب وراءه قرداً وطوّفه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه الى ان مات شر موتة

وفي سنة ٣٩١ هـ أمر الحاكم الناس بأن يوقدوا القناديل على الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبه امر حاشيته ان لا تمشي بقربه وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احداً مني فكانت تقترب الناس منه وتحدق به وتكثر من الدعاء له

اطوار الحاكم

وبعد يسير أصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقته الحياة . وظهر في أثناء ذلك متمذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفي الزعيم وخلفه احد تلاميذه المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ وأخته وأب وبناته والام وأبنائها . وجاءوا بأمور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن

فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة أبيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً الى الجبل المقطم حيث ادعى انه يناجي الله كما كان يفعل موسى . وبعد ان كان أشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعبأ بمدعياته فعاد الى نصرة الاسلام فاضطهد النصارى واليهود.

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في أيامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وأدخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد في إبان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لأن مرتكبه أتاه عن حمق او جنون

وقد سوّغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فأخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم في بلاده . وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الدين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن أظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير أو منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدلّ على اختلال في عقله . على اننا قلما نراه أتى أمراً الا لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلا ان معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن أبي طالب يكرهه . وقس على ذلك سائر

ضروب الحماقة والغرابة . ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف او بلا سبب وأمر ببناء تلك الكنائس وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثيرون منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في أيام ابنه الظاهر . ومن أعماله الغريبة انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وأخربها وألزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلا فظل الناس على ذلك دهراً طويلا . فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعد اضطهاده عاراً على الدولة أو الامة

فكان هذا الحاكم حملا ثقيلا على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع أحد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع بأذنه رنة السهم في قلبه

ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلمت أخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلهما فعمدا الى اغتياله قبل ان يغتالهما فأخذا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى أخته ونادت بابنه علي أبي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم زمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

جامع الحاكم

ومن آثار الحاكم بأمر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع أساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فأتم الحاكم بناءه وأنفق في سبيل ذلك أربعين الف دينار ودعاه جامع باب الفتوح لمجاورته له وجعل فيه المفروشات الثمينة والاواني الفضية والذهبية . وكان هذا الجامع عند بنائه خارج سور القاهرة . ثم لما جاء أمير الجيوش وجدد الاسوار كما سيأتي وابتنى باب الفتوح حيث هو اليوم أصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضه بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ فانتدب الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لترميمه وجعل فيه دروساً اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الأئمة الاربعة ودرساً لاقراء الحديث وجعل فيه مكتبة نفيسة وصهاريج للماء وأماكن أخرى . ثم جدد هذا الجامع وبلط جميعه في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس . ويقال ان الشيخ المشار اليه وجد في الجامع حجراً مكتوباً عليه هذه الابيات لغزاً في الحجر المكرم

ان الذي أسررت مكنون اسمه وكتمته كيما افوز بوصله

مال له جذر تساوي في الهجا طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذاك المال الا انه في النصف منه تصاب أحرف كله
واذا نطقت بربعه متكلما من بعد اوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده فيصير منقوطاً بجملة شكله

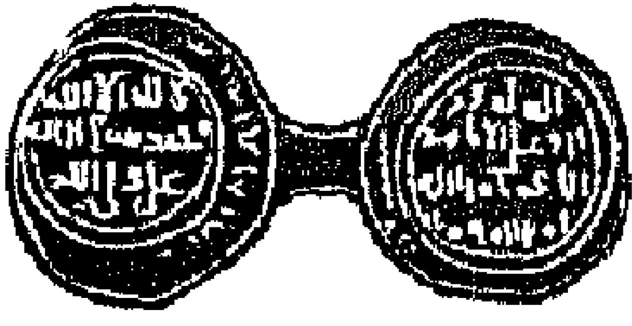
دار الحكمة

ومن آثار الحاكم في خدمة العلم انه أنشأ مكتبة سماها دار العلم أو دار الحكمة وهي غير خزانة العزيز أو خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على أبوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثال الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون أي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد

وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء واجرى لهم الارزاق واباح لسائر الناس الدخول اليها على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا او ينسخوا ما شاءوا . وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائه فاضطر الافضل بن امير الجيوش في أوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للاشباب . فلما توفي الافضل امر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلا ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب . ولما افضت الدولة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار

الحكمة وبناها مدرسة للشافعية

وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في أيام الحاكم بأمر الله (انظر شكل ٤٨)



ش ٤٨ : نقود الحاكم بأمر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ — ٤٢٧ هـ أو من ١٠٢١ — ١٠٣٦ م

وفي أيام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١ هـ خلفاً للطائع واقيم مقامه في بغداد القائم بأمر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة فخرج الى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع وأكل الملوخية وجميع الإسماك فأقبل الناس على اللهو

المجاعة

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فأفضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لا يدخل على الظاهر غيرهم . فأصبحوا يتصرفون بامور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . وأخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق ومنع الناس من ذبح الابقار لقلتها وعزت الاقوات بمصر وقلت البهائم كلها حتى بيع الراس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف في ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه . واشتد الغلاء وفشت الامراض وكثر الموت في الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج . وعز الماء فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس امتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب واخذت اموالهم وقتل منهم كثير وعاد من بقي فلم يحج أحد من اهل مصر . وتفاقم الامر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع يا أمير المؤمنين لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك فالله الله في امرنا » وطرقت عساكر بن جراح الفرما ففر أهلها

الى القاهرة واصبح الناس بمصر على اقبح حال من الامراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الدعار التي تكبس حتى انه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه . ونهبت الارياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت امور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض فحمل بعض اهل الدولة اليه مالا وامتنع آخرون واجتمع نحو الالف عبد لتنهب البلد من الجوع فنودي بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله . وندب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الحان خندقوا عليهم خنادق وعملوا الضروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب اعناقهم . وأخذ العبيد في طلب وجوه الدولة فحرسوا انفسهم وامتنعوا في دورهم وانقضت السنة والناس في انواع من البلاء .

وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان بعد ان تضعضعت الدولة فبويع ابنه معد أبي تميم خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله

وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ انظر ش٤٩




ش ٤٩ : نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ أو من ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م

ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وأمه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه أبو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأت انها في هذا المنصب أتت بسيدها الاصلي وولته الاستشارة . وكانت مده خلافة المستنصر أطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

في سنة ٤٢٩ هـ عقد المستنصر هدنة مع أمبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى أن كانت سنة ٤٣٤ هـ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته .

فاتبعه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلو دار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم أصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فتراجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من أصحابه جماعة وأسر الباقون وسلبوا أحياء ورماهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

ثم سعت أم الخليفة فساداً في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت زمام الامور من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنه الى صدقة العلاجي وهذا قتل سلفه سنة ٤٤٠ ﻫ فحكم عليه بالقتل فابدل بحسين الجرجراي . وفي شوال سنة ٤٤١ ﻫ قبض عليه ونفي الى سوريا وأقيم مقامه أبو الفضل بن مسعود والقاضي اليازوري وقد حاز هذا الاخير على رضا المستنصر فقربه منه بحيث انه كان يعطيه الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمها

وفي أثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاه الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ ﻫ فحاول الاستقلال بها فانفذ اليه الخليفة جيشاً بقيادة ناصر الدولة ابن أبي الهيجاء فكسره . فاسترجعه وارسل عوضاً عنه الاميرين طرفاً ورفيقاً وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال . ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح . فانفذ ابنه وزوجته ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجته بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها في التنازل عن حلب لزوجها

المعز بن باديس

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة أخرى في الغرب وذلك ان المعز بن باديس تمرد في افريقية لمكاتبات عدوانية حصلت بينه وبين الوزير اليازوري فابطل الخطبة للمستنصر واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله . ووردت الخلع والتقليد من القائم بامر الله الى المعز مع كتاب قال فيه « من عبد الله ووليه ابي جعفر القائم بامر الله أمير المؤمنين الى الملك الاوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله قاهراً اعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين وهو طويل » وأرسل اليه سيفاً وفرساً وأعلاماً على طريق القسطنطينية فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل به الى

الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية . فدخلت الاعلام فقال « هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم واستغفر الله لي ولكم » وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت وأحرقت الاعلام . وكان المستنصر مشتغلا في أثناء ذلك بالاضطرابات الداخلية بين قبيلتين من العرب بني زاغ وبني رباح فرأى الوزير أن يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لابادة الآخر فاصلح بين القبيلتين وحرضهما على المعز بن باديس على أن يجعل لهما في مقابل ذلك برقة وطرابلس الغرب

فاستعد ابن باديس لملاقاة أعدائه بجيش مؤلف من ٣٠ الف فارس ولم يكن الاعراب اكثر من ٣ آلاف مقاتل . فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم مونس أن يجالدوا في القتال فأجابوه « أين نطعن هؤلاء المكسوين بالخوذ والدروع » فقال « في عيونهم » ومن ذلك الحين لقب مونس بابي العيون وعادت رجاله وقد ثارت فيهم الحمية العربية وما زالوا حتى انتصروا على المعز في تلك الوقعة . ثم بقيت الحرب سجالا بين الفريقين ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء

أما المستنصر فعمد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبنى فيه منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل وأقام فيه منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مالا من خزينته الخاصة

وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر أميرتان من أغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدة وكلتاهما ابنتا الخليفة المعز لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك . وكان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما ولم يروه فكانت ثروتهن غنيمة باردة للخليفة المستنصر

الفتنة بين الخلافتين

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبآن مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد أصدر منشوراً الى العالم الاسلامي يقدح فيه بانتساب الخلفاء الفاطميين الى علي بن أبي طالب . والثاني ان أمير اليمن علي بن محمد الصالحي أمر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وأرسل اليه هدايا . فسر الخليفة المستنصر لهذين الخبرين اللذين يوازن أحدهما الآخر ولم يبد حراكا لاشتغاله بقحط عظيم نتج عن تقصير

النيل تلك السنة فاشتد الجوع . وكان قد احتكر الحنطة وكان يخزن منها كل سنة بمائة الف دينار يحفظها في خزائنه ليبيعها عند الحاجة بالأثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة بقيمها من الخشب أو الحديد أو ما شاكل . ففي سنة ٤٤٦ هـ لم يف النيل ولم يكن في خزائن الحنطة ما يكفي لغير الخليفة وأهله وحاشيته قوتاً ضرورياً فغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير وأخذ الجوع يتزايد وتبعه الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالث نعني الحرب. وسببها ان الخليفة المستنصر لما أشتد الجوع في بلاده أرسل الى القسطنطينية يستنجد أمبراطورها بالحنطة فرضي الامبراطور ان يرسل له اربعمائة الف أردب ولكنه مات قبل ارسالها. فلما تولت الامبراطورة ولية العهد أوقفت الارسال على أن يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرض فلم ترسل الحنطة فاستشاط غضباً وأمر بالجهاد فانفذ ناصر الدولة لفتح اللاذقية وانطاكية فقبض عليه وتفرق جيشه. فتعاظم غيظ المستنصر واشتد انتقامه فأمر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الروم ومصر

وزاد المصريين رعباً مذنب طويل ظهر في سماء مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يأل جهداً في تدبير الامور بحكمة ورزانة فخفف المصائب واستجلب القوت الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت تزداد في الخارج يوماً فيوماً حتى ان البساسيري قائد جند الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنه خلع خليفته وبايع المستنصر الفاطمي ورفع العلم الابيض على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقتدى به أهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى

فامتدت سلطة المستنصر الدينية الى خراسان وفارس . فرأى السلطان طغرلبك هناك أن تسلط العلويين يضر بغرضه فسار بجيشه الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبه ونصب العلم العباسي واعاد الخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ

وكان المستنصر قد أرسل الى البساسيري مدداً من الرجال وخمسمائة الف دينار ومؤناً وذخائر وثياباً وخيلا ولكن لما علم باعادة بيعة الخليفة العباسي خاف ولم يعد يمده واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقدمه ولولا ذلك لانتشرت سلطة الدولة

الفاطمية الى أقصى ما بلغت اليه الدولة العباسية في عزها

حروب واضطرابات

وجرت في خلال ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر. وذلك ان حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة والعرب من بني كلاب يهاجمونها فاقلقوا راحته وطمعوا به فلم ير طريقة للتخلص منهم الا الالتجاء الى المستنصر فكتب اليه انه لم يعد قادراً على البقاء في حلب على هذه الحال. وطلب اليه أن يرد هذه المدينة الى العباسيين وأن يوليه بدلا منها مدينة لا يكون للعربان يد اليها. فاعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حلب مكين الدولة أحد قواده فخصها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ. ثم سافر معز الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي أعطيت له. وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليما فسعد الشعب في أيامه فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الا ان بني كلاب لم ينفكوا عن مناوأته بقيادة الامير محمود الكلابي ابن أخي اميرهم الاول وكان قد عنف عمه على تسليم أرضهم للخليفة فجاء مدينة حلب وغزاها وقتل حاميتها ودخلها فسلمت له في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ هـ

أما مكين فكان محاصراً في قلعتها ولم يسلم فارسل الى مصر يستنجد المستنصر فأنجده بناصر الدولة أبي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الامير بدمشق وأوعز اليه أن يسير بمن عنده من العساكر الى حلب يمنعها من محمود. فسار الى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها. ثم ان الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب واشتد القتال بينهم فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً الى مصر وملك محمود حلب وقتل عمه معز الدولة واستقام امره بها وهذه الوقعة تعرف بوقعة الفنيدق

فلما وصل ناصر الدولة الى مصر رأى الخليفة ان يكافئه على فشله فولاه دمشق وفي سنة ٤٥٥ هـ أبدله ببدر الجمالي وهو أرمني المولد كان مملوكا لجمال الدولة ومنه لقبه وتقلب في مناصب عديدة اظهر بها ما يدل على ثباته وحزمه. ولم تمض على سوريا مدة تحت ولايته حتى ساد فيها الامن لان الخليفة اذن للامير محمود ان يتولى حلب ولقبه بأمير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة

أما مصر فكانت اقل طمأنينة من غيرها لان الوزير اليازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً ويسومهم أشد العذاب وكان يثير ضدهم الاحزاب

في المديريات والقى القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . أما الخليفة فلم يكن راضياً بذلك فأمر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشق ذلك على الوزير فامر باقفال جميع الكنائس المسيحية في مصر من يعقوبية وملكية فثار مسيحيو القطر فتدارك الخليفة الامر بالقبض على الوزير ونفيه الى تنيس ثم قتله

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث ورافقها ظهور الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيباً استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام حتى شوهدت النجوم واوت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولى الخليفة مكان اليازووي أبا الفرج البابلي وبعد شهرين أبدله بعبد الله بن يحيي ثم بغيره حتى تقلب على وزارة مصر ٣٥ وزيراً في ١٢ سنة ولم تكن تزيدها هذه التقلبات الا تعقيداً . كل ذلك والتشكيات ترد الى الخليفة تترى من رجال الدولة والرعايا فتحير في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فجمع رجالا من جميع الطبقات وكلمهم مليا واستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر له شيء مما كان يسمعه . ثم ازداد نفوذ السوقة على رجال الدول فكانوا اذ اجمعوا على أمر انفذوه ولو كان مناقضاً لاوامر الخليفة . فازداد الخليفة اضطراباً والاخبار ترد عليه متناقضة فلا يعلم أيها يتبع . ورجال القضاء بدلا من ان ينظروا في التقارير كانوا يقضون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من التشكيات . فاشتد خوف الناس في الاقاليم حتى هاجروا منازلهم فازدادت الفوضى وكثر اللغط

وكان المستنصر يحتال في أمر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهراً للحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج وايابهم منه ثم دعيت بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الخمور بدل الماء ثم يعودون الى القاهرة

تاريخ الجند في الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد كان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية بأوائلها مشتركا بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في أولها مشتركا بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك والبربر قوم أشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية في

المغرب كما نصرها الفرس في الشرق . وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين . ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني امية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم - الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال - وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين . لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقيا الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا يساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ ﻫ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢ ﻫ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٣ ﻫ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ ﻫ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ ﻫ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ ﻫ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشترطوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبياً وقد تاقت نفسه الى الولاية فاغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيه وجده فتضعضع البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه امة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد أسود . وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فاتاه أمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا المتقدم ذكره كما سيجيء فقتل أهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد أن كانوا وجوهها واكابر أهلها

الفتنة بين العبيد والاتراك

ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعه الحجاج في المكان المتقدم ذكره افرط أحد الاتراك بالشرب حتى سكر فجرد سيفه على أحد العساكر العبيد من حرس الخليفة فهجم رفاقه على التركي وقتلوه فاغتاظ الاتراك وتجمهروا بكثرة واتوا الى المستنصر وقالوا « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة والا فلا نرضى به » فاجاب الخليفة انه حصل بغير رضاه فانقض الاتراك على السودانيين وكانوا كثاراً . فتخاصم الفريقان طويلا وبعد واقعة هائلة انتهى الامر بعقد صلح على أن يكون القاتل تحت أمر الاتراك ثم عادوا الى القاهرة . على أن الضغينة كانت تتزايد يوماً فيوماً . ولم ينفكوا عن الخصام . وكان السودانيون يطيعون الوزير فيأوون الى ثكناتهم . أما الاتراك فما فتئوا يضمون اليهم جماعات من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . وأخيراً اقاموا عليهم ناصر الدولة الذي فشل في حملته على الشام وكان قد عزل من منصبه في دمشق وأضمر للخليفة ووزرائه شراً واقام في القاهرة يترقب الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلة لتنفيذ مآربه . ثم علم السودانيون انهم يعجزون عن مناوأة الاتراك فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من أهله فاشتد أزرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين الف مقاتل فنزلوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الاتراك في كوم شريك على الشاطىء الغربي لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا البلد بعدئذ في الحملة الفرنساوية حيث

غلمت المماليك) . وكان الاتراك عشرة آلاف وقد كمنوا لاعدائهم حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطئ، فألقوا بعضهم في الماء وذبحوا البعض الآخر وفرّ الباقون وقدّر بعض المؤرخين جملة من قتل وغرق منهم بثلاثين الفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً بنصرة السودانيين مواطنيها فشق عليها انكسارهم فغضبت على الاتراك وحقدت عليهم لانهم قتلوا أحد اصدقائها المخلصين فانفذت الى السودانيين مدداً ساعدهم على الدفاع فجرت وقائع شديدة في أماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العليا والسفلى . والتشكيات ترد الى الخليفة في أمور مختلفة وجوابه الوحيد عليها قوله « ان ما حصل انما حصل بدون علمي فما انا مطالب به »

وبعد طول الخصام ضعف الفريقان فضعفت فيهم حاسة الانتقام فعادوا الى السكينة والقلوب لا تزال على غلّ . وعدد الاتراك يزداد كل يوم وقد صارت اليهم أعمال الحكومة فاقلقوا الخليفة بطلب زيادة مرتباتهم . وكانت قد نفدت ثروته ولم يعد قادراً على اشباع مطامعهم وقد أصبح عبداً لاولئك العبيد الذين ربوا في كنفه ولم يجتمعوا الا لحماية شخصه . وكانت والدة المستنصر تزيد في الطين بلة فتأتيه كل يوم بنبأ جديد تطلب اليه أموراً ما انزل الله بها من سلطان وتصرّ عليها فضاق المستنصر ذرعاً حتى اضطر سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميه الى جامع عمرو يظهر الرغبة عن الملك الى العبادة فلما علم أرباب دولته بمكانه حملوه على العدول عن قصده فعاد قانطاً من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الاتراك وزاد طمعهم في المستنصر وأصروا على طلب الزيادة في مرتباتهم وضاقت أحوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقلّ مال الخليفة واستضعف جانبه فبعثت أم المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج اليهم الاتراك بقيادة ناصر الدولة فاقتتلا مراراً ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم أمره وكبرت نفسه واستخف بالخليفة

أما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثروا حتى صاروا نحواً من ١٥ الف مقاتل فاستولوا على الصعيد وأرادوا النزول الى القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فهاج الذين في الفسطاط بدسيسة والدة

المستنصر فاستشاط ناصر الدولة غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري أو ان ينفصل الامر اما له واما عليه . فجمع رجاله وحارب السودانيين في الفسطاط فظهر عليهم واثخن في قتلهم وأسرهم

ثم سار الى الصعيد فحاربهم وشتتهم ثم تحول الى مصر السفلى فاخرجهم منها ومن الاسكندرية وأقام فيها من يثق به . ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل من وصلت اليه اخباره ودخلت سنة ٤٦٠ هـ والمستنصر يحاول اعادة نفوذه عبثاً فاستشار ذوي شوراه فلم يجده أحدهم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يرون فيه اللياقة لهذا المنصب وكانت الصعيد لا تزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لا تخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على الاسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت سيطرته وأما اوامر المستنصر فكانت لا تكاد تجري على حاشيته . وقد استفحل الاتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة الف دينار بعد ما كان ٢٨ الفاً

حال المستنصر

تلك حال المستنصر في مصر أما في الخارج فلم تكن اصلح لان بدر الجمالي المتقدم ذكره اغتنم الفرصة واستقل بالشام والصالحي أمير اليمن كان قد بايع الفاطميين فقتله أحد قواده ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين والفتن قائمة على الحدود بين امراء الاقسام ومن يعتدي عليهم فيخرجونهم من أماكنهم ويحتلونها فيلجأ اولئك الامراء الى القاهرة . وفي ختام الاضطرابات جاهر الروم بالحرب وزاد الطين بلة أن المستنصر لسوء تصرفه أفسد العلائق بينه وبين الامير محمود صاحب حلب وقد تقدم انه حصل على رضاه حتى لقبه باشرف الالقاب . فلما طلب الروم الحرب كتب اليه المستنصر يستنجده بالنقود لحرب الروم واخراج الاتراك من بلاده فأجابه محمود « أما النقود فلا وجود لها عندي لاني اقترضت المال لاسترجاع حلب لسلطاني واصحاب المال يطالبونني . أما الروم فقد عقدت معهم صلحاً فأقرضوني مالا لسد حاجتي وأخذوا ابني رهناً عليها فلا أرى معاداتهم . أما الاتراك فانهم أقوى مني فاذا اردت طردهم طردوني » فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وكتب الى بدر الجمالي صاحب الشام يعهد اليه الاقتصاص من أمير حلب العاصي فلم يصدق بدر الجمالي ان جاءه هذا الامر فجند الى حلب

وخرج ناصر الدولة في أثناء ذلك من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد

فلاقى منهم مقاومة لم يلاق مثلها لحاربهم مراراً وقد غلبوه في كل مرة فكتب الى الخليفة يشتكي أمر السودانيين ويلقي التبعة على والدته بانها تهيجهم وتعدهم بالعدة والمال سراً على يده . فأجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يتكلم عن نفسه ويقسم أنه لم يدخل في هذا الامر أولا ولا آخراً . فاشتد ناصر الدولة ورجاله وضموا اليهم مدداً وعادوا فهاجموا مهاجمة اليأس ففازوا بهم واثخنوا فيهم فمن نجا من القتل لم يرَ سبيلا للنجاة الا في الفرار فتبعثروا وتلاشت قوتهم من ذلك الحين

فأصبح ناصر الدولة حملا ثقيلا على عاتق الخليفة وأتم ذلك النصر أسباب ضعفه فغدا وقد ذهبت هيبته ونفوذه من عيون رجاله الاتراك فلم يعودوا يكترثون بأوامره ولا بشخصه وأصبح صعلوكهم يقول عليه بكل سوء وتجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك . ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في أكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلاته وأصاب الوزراء نحو ذلك فتنازلوا عن الوزارة

منهوبات قصر الخليفة وخزانة الكتب

وكانت مطاليب الاتراك تحكماً منهم لانهم نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم . فضلا عن قلة المال فبعثوا يطالبونه فاعتذر بعجزه فلم يعذروه وقالوا « بع ذخائرك » فاخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي اشتغل الفاطميون بجمعها منذ تأسيس دولتهم . وصاروا يقوّمون ما يخرج اليهم باقل الاثمان ويأخذون ذلك مما لهم واقتسموها بينهم كما تراءى لهم لا فرق في كونه حقاً أو تعدياً . وكان الخليفة ووزير ماليته ينظرون الى المزاد قائماً على امتعتهما بلا قياس ولا يبديان حراكا . وقد بالغ المؤرخون في تقدير تلك الامتعة الثمينة وقد ذكرها المقريزي وهي :

قبة العشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجراي في سنة ست وثلاثين واربعمائة وكان فيه مائة الف وسبعة وستون الفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفان وسبعمائة دينار وعمل أبو سهل التستري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة

الصناعة ولطلاء بعضه الفان وار بعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وانفق على العشاريات التي برسم النزهة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار

ولما نهبوا القصر على ما تقدم كفوا عن مطالبته بزيادة المعاش بعد ان علموا أنه لا يملك شيئاً لكنهم دخلوا مدفن اجداده واخرجوا منها كل ما وجدوه بها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فاخرجوا منها آلافاً من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ ختمة قرآن في ربعاته بخطوط منسوبة محلاة بذهب . وذكر بعض الذين شاهدوا النهب سنة ٤٦١ هـ قال « فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتب محمولة الى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بايجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين وان حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار . وذكر لي من له خبرة بالكتب انها تبلغ أكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن ابي كدينة وغيرهما هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة مع ما صار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب . وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار اليه بالابتياع والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرق ورقها تأولا منهم انها خرجت من قصر السلطان وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها مالم يحرق وسفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب

وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتف ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد الى ان يحط من نفوذه الديني ويقيم من يخالفه ولم يكن ذلك ممكناً ان لم يأت بحجة تجنيح المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق وهو خارج من بيت الوزير أن رجلا طعنه بخنجر فهمّ به ناصر الدولة وخنقه حالا لان جرحه لم يكن بليغاً

ورأى تلك فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر اغرى هذا الرجل على قتله وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يستحق الخلافة . وكان ناصر الدولة قد اتفق مع الشريف أبي طاهر — وكان بدر الجمالي قد طرده فأتى الى القاهرة وجمع اليه عصابة يشد بها ازره وكان معروفاً بالتقوى والتدين . فوعده ناصر الدولة ان يوليه الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يقتل بدر الجمالي صاحب الشام قبلا وكان هذا مستقلا هناك وناصر الدولة يخاف قدومه الى مصر. فانضم الى الشريف أبي طاهر أميران من عرب سوريا فأخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للنفقات وسافر الثلاثة الى الشام والتف حولهم عدد وافر من الاحزاب . وكان بدر الجمالي ساهراً على حكومته فلم يلبث المؤامرون ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل الشريف أبو طاهر سلخاً

ناصر الدولة

أما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً في مراده . واصبحت القوة العسكرية شطرين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض الخليفة . فلم ير الخليفة بداً من خطة الدفاع باظهار القوة . فكتب الى ناصر الدولة ينذره وينصح اليه بما نصه « تقربت منا وطلبت حمايتنا فحميناك وبذلنا لك العطاء فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا الا قحة فافسدت بين جيوشنا وتواطأت مع ذويك على مناوأتنا فالآن اخرج من بلدنا ونحن نضمن لك الامان ونؤذن لك بأن تحمل معك ماشئت الى حيث شئت وان لم تذعن اوقعنا بك عقاباً صارماً » فأجابه ناصر الدولة ساخراً فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبه وبينهم دكز وهو من ألد أعداء ناصر الدولة (مع انه حموه) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطلب اليهم مبايعته ثانية فبايعوه .

فرأى ناصر الدولة عدد رجاله قليلا فبرح القاهرة الى الجيزة ونهبوا داره ودور حواشيه وقتلوا كثيرين منهم. ثم ركب المستنصر جواده ولبس درعه وأحاطت به الاعلام ففر من تحتها جميع من في القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من رجال ناصر الدولة . وسار الموكب حتى أتى بين القاهرة والفسطاط فنودي بالنصر للخليفة المستنصر . أما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجاله ونفاد ماله فر الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى أهله أن يقدموا ثم عمل على بث اغراضه في

مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل الاعراب لحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعة القائم بأمر الله العباسي .

الجاعة والغلاء

أما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن تلك القلاقل لان الجوع تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات . وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً للري . ثم توالت القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة . فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جداً فبلغ ثمن الاردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكلب ٥ دنانير ان وجدت. ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين فلم يبق من يزرع . وشمل الخوف من في العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات براً وبحراً الا بالخفارة الكثيرة. ولما استفحل أمر الجوع جاء المستنصر الى والي القاهرة وانذره مقسما برأسه انه اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه. وكان الوالي عالماً بخابيء كثيرة من الحنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء وأوقفهم في رحبة عمومية وأمر بقطع رؤوسهم بدعوى انه لم ير سبيلا لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء. وقال انه لن ينفك عن القتل حتى يشبع الناس فخاف الاغنياء الذين كانوا قد أخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد حصر حبوب مصر السفلى ومنع شحنها الى القاهرة وجهاتها وجاء القاهرة وحاصرها بعد ان أحرق كل ما مرّ به من القرى والمدن فاضطر الخليفة بعد طول المقاومة أن يفتح أبواب المدينة لناصر الدولة وأتباعه . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مطامعه وادعى ان له على الخليفة مرتبات متأخرة وبالغ في احتقاره

ويحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في قصره جالساً على حصير بال ليس عنده من الفرش غيره وقد أصبح لا حاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة فطلب الرسول دفع المتأخر فالتفت اليه الخليفة قائلا « أما يكفي ناصر الدولة ان أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير ؟ فليأخذ اذن هذا الحصير وهؤلاء العبيد وهذه الأثواب التي لا تكاد تستر عورتي ولينصرف عني »

فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة وأخبره فتأثر من هذا القول واحمرّ خجلا وتنازل عن طلبه وخصص المستنصر مرتباً يومياً ينفقه على حاجات بيته

وفي سنة ٤٦٥ هـ تصالح ناصر الدولة مع حميه دكز ولـكن هذا لم يزل في ريب من مقاصد صهره فعمد الى الايقاع به فاصطحب بعض خاصته وجاؤا الى دار ناصر الدولة التي تعرف بمنازل الغز وهي على النيل . فدخلوا من غير استئذان الى صحن داره فخرج اليهم ناصر الدولة في رداء لانه كان آمناً منهم. فلما دنا منهم ضربوه بالسيوف فسبهم وهرب منهم يريد الحرم فلحقوه وضربوه حتى قتلوه وأخذوا رأسه . ومضى رجل منهم يعرف بكوكب الدولة الى فخر العرب أخي ناصرالدولة وكان فخر العرب كثير الاحسان اليه فقال للحاجب « استأذن لي على فخر العرب وقل صنيعتك فلان بالباب » فاستأذن له فأذن له وقال لعله قد دهمه أمر . فلما دخل عليه أسرع نحوه كانه يريد السلام عليه وضربه بالسيف على كتفه فسقط الى الارض فقطع رأسه وأخذ سيفه . وكان ذا قيمة وافرة وأخذ جارية له اردفها خلفه وتوجه الى القاهرة . وقتل أخوهما تاج المعالي وانقطع ذكر الحمدانية بمصر

بدر الجمالي أمير الجيوش

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شر ووقع في آخر لان دكز لم يكن أقل معاكسة له من صهره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكره فكتب اليه سراً أن يأتي بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر مشترطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من أهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصبة من رجال قد اختبر شجاعتهم وأمانتهم طويلا وسار الى عكا ومنها بحراً الى مصر . وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل ذلك الفصل لانه برح عكا في أول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر أحد به ونزل بين تنيس ودمياط. فاستقبله سليمان كبير أهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة فنزلوا في قليوب وبعثوا الى الخليفة أن يقبض على دكز قبل دخولهم فقبض عليه واعتقله في خزانة البنود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا من اضافه فلما انقضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى وليمة اعدها لهم في منزله وبيّت مع أصحابه « ان القوم اذا اجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » ووكل بكل واحد واحداً من اصحابه وأنعم عليه بجميع ما يتركه

ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكته وعظم امره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم . فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابه لقب « أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » . وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحد حتى قتله . وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة . ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتة واستصفى اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيراً . ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول سنة ٤٧٩ هـ ثم صار الى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الاموال ما لا يعرف قدره كثرة فصلح حال الاقليم بعد فساده

وكان يسعى جهده في اسعاد المصريين لينسيهم ما قاسوه طويلا فنشط الزراعة وأباح الارض المزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت حال الفلاحين واغتنوا . وسهل سبل التجارة فتقاطر التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها في ايام الشدة وأمر بانشاء البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة قرب المقياس . وكان المقياس قد اختل فأصلحه اصلاحاً يصح ان يقال فيه انه بناه ثانية . وبنى دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعده من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني أيوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وأسكنها السلطان الملك الصالح ولده . ثم ارصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة

وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد ان قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانه الغطاء

الابيض [١] وعليه اسم المستنصر بالله ولقبه . وبقيت مصر بعد ذلك ٢٠ سنة لم يحدث فيها ما يهم التاريخ ذكره — وأقل الامم ذكراً في التاريخ أسعدها

أما سوريا فان الامير اتسز احد الامراء التركانيين اغتنم غياب بدر الجمالي فقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم تحول الى مصر في ٢٠ الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة . وكانت الجيوش المصرية مشتغلة في اخماد ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب أهل القاهرة ولم ير بدر الجمالي بدأً من مصالحة اتسز التركماني على ١٥٠ الف دينار يدفعها له بعد خروجه من مصر . فقبل اتسز بتلك الشروط لكنها لم تدم أكثر من ٥٠ يوماً تمكن امير الجيوش في أثنائها من حشد جيوشه من الصعيد واجتذاب قلوب بعض كبار العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة اتسز وبعض رجال التركمان الذين أتوا معه . فلما صارت الجيوش المصرية بقرب القاهرة كتب أمير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت الى الحج كتاباً ونصه : « ان الجهاد اعظم ثواباً عند الله من الحج فانضموا الى جيوشنا » فأطاعوه ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على اتسز ذات صباح بغتة وأحكم في رجاله السيف فانهزموا وقد قتل جانب كبير منهم فتبعهم الاعراب والمصريون الى مسافة بعيدة . ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحواً من عشرة آلاف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان على أثر تلك المعركة جميع البلاد التي افتتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة المستنصر . ومات اتسز في دمشق أشقى موتة

اصلاحات امير الجيوش ومناقبه

فلم يعد أمام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن . وزاد عند باب النصر أيضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر . وجعل السور من لبن وأقام الابواب من حجارة . وبنى باب زويلة وعلى ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من أن يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة . لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة

(١) اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى أيام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فأمر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير . وكان احدها في أيام المقريزي لا يزال موجوداً قرب قبو الخرنفش . وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصبة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ ﻫ أحصى أمير الجيوش الاراضي المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فرأى ان الخراج الذي كان يستخرج منها قبله لم يتجاوز مليونين وثمانمائة دينار أما في أيامه فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار لاعتنائه الخصوصي بالزراعة وتنشيط التجارة وكانتا رائجتين في أيامه . وما زال عاملا بنشاط الى أوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ ﻫ فتوفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد أن حكم في مصر عشرين سنة حكما مطلقاً . وكان الجميع يحترمونه وفي يده أزمة الاحكام يديرها بحكمة ودراية وثبات فتكاثرت ثروة البلاد وخصبها الى حد لم تبلغه قبلا . وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء . وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها . منها نحو عشرين الفاً من البحيرة ومثل ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الا أنه عمر البلاد واصلحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من أهلها . ولا يزال أمير الجيوش معدوداً لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وكان محباً للادباء يقرب الشعراء ويطرب لسماع الشعر . ومن الشعراء الذين مدحوه علقمة بن عبد الرزاق الفليمي وقد حدث بعضهم عنه قال « قصدت بدر الجمالي بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه ـ قال ـ فبينما انا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرج علقمة في أثره وأقام الى أن رجع من صيده فلما قاربه وقف على نشز من الارض وأومأ برقعة في يده وانشأ يقول

نحن التجار وهذه أعلاقنا   درٌّ وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك انما   هي جوهر تختاره الاسماع
كسدت علينا بالشآم وكلما   قل النفاق تعطل الصناع

فاتاك يحملها اليك تجارها ومطيها الآمال والاطماع
حتى اناخوها ببابك والرجا من دونك السمسار والبياع
فوهبت ما لم يعطه في دهره هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا فالناس بعدك كلهم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الورى ولجوا اليك جميعهم ما ضاعوا

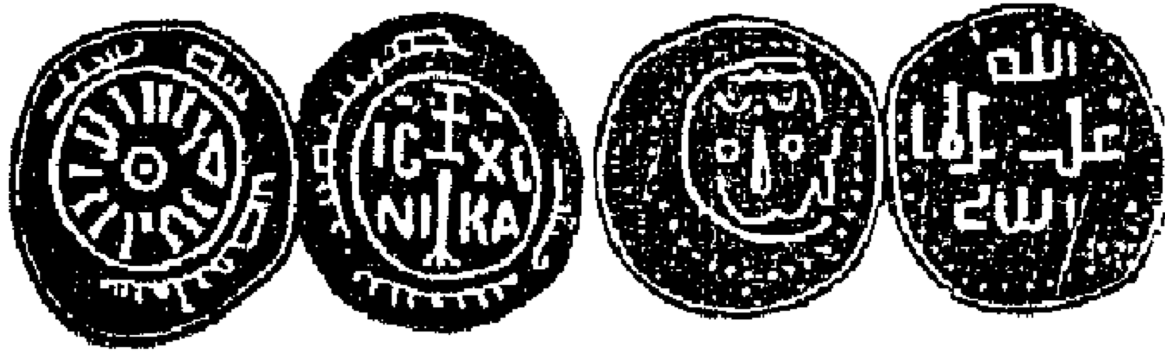
وكان على يد بدر بازي فالقاه وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الابيات وهو ينشدها الى أن استقر في مكانه . ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته « من أحبني فليخلع على هذا الشاعر » فخرج من عنده ومعه سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وأمر له بعشرة آلاف درهم فخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء » ولما مات بدر قام بما كان اليه ابنه الافضل

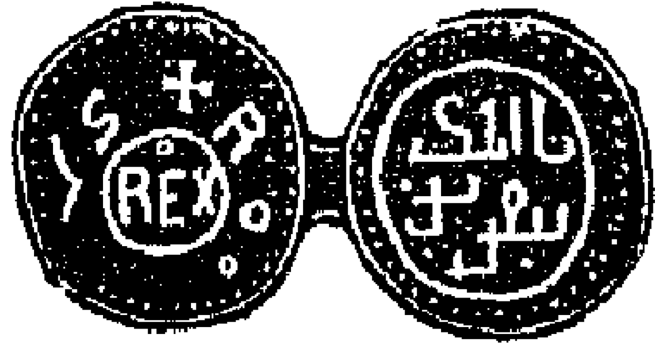
صقلية

وبعد وفاة أمير الجيوش ببضعة أيام توفي الخليفة المستنصر في ١٨ من الشهر نفسه وسنه ٦٧ سنة وخمسة أشهر قضى منها ستين سنة في منصب الخلافة ولم يكن أهلا لادارة الاحكام لضعفه وقصر حجته وتصديقه كلما يقال له مهما كانت حقيقته . فكان لقب الخلافة له اسما لغير مسمى . ومع طول مدة خلافته لم يحدث فيها غير تلك الضيقات العظيمة . ولم تكن مصر وحدها في ذلك العذاب فان صقلية كانت من أغنى بلاد الفاطميين تربة وكانت قبلا في حكم الاغالبة ونظراً لبعدها عن كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة . وكان الولاة الذين يرسلون اليها يحاولون الاستقلال. ففي أيام الخليفة المعز لدين الله كان على هذه الجزيرة وال يقال له أحمد رأى الخليفة منه ميلا عن الطاعة فنفاه الى أفريقية واقام مقامه غيره وغيره وساروا كلهم على خطة واحدة . فتعددت القلاقل وانقسم أهل الجزيرة على أنفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من يغزوهم من الافرنج وزد على ذلك ان جيرانهم الافرنج سكان الجزيرة نظراً لما كانوا يعاملون به من الاستبداد كانوا يودون الخروج من سلطة المسلمين فجعلوا يكاتبون أبناء ملتهم من الدول الاخرى . وكل هذا جرى في أيام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من سلطة المسلمين

وذلك ان مسلمي هذه الجزيرة كانوا حزبين متضادين يرأس احدهما ابن ثمامة فتحاربا فانهزم ابن ثمامة برجاله والتجأ الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنساويين من سنة ٣٧٢ هـ فاستبشر الفرنساويون بقدومه فاكرموا وفادته وأمدوه بالعدة

والرجال أما الحزب الآخر فكان قد استمد المعز بن باديس فامده بفرقة من أفريقية فجرت بين الحزبين واقعة احتدمت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال المعز بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنساوية تحت قيادة روجر الاول من الجهة الاخرى . وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهزام من كان في الجزيرة من المسلمين فدخلها روجر وقد نفذ سهمه . فأخذ يسعى في تمكين قدمه فبايعه أهلها سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت صقلية في حوزة روجر حتى مات فخلفه ابنه ولقب روجر الثاني سنة ٤٩٥ هـ فتتبع خطوات أبيه في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في أيامه تقدماً عظيما لم تبلغه في سائر أزمانها فنسيت الازمان التي مضت عليها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . أما المسلمون الذين اختاروا السكوت في الجزيرة فظلوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية والسياسية والدينية





ونرى في الشكل الخمسين صور النقود التي ضربت على عهد ملوك صقلية الاقدمين في بالرم عاصمة ايطاليا اذ ذاك

ش ٥٠ : نقود ملوك صقلية القدماء مضروبة في بالرم

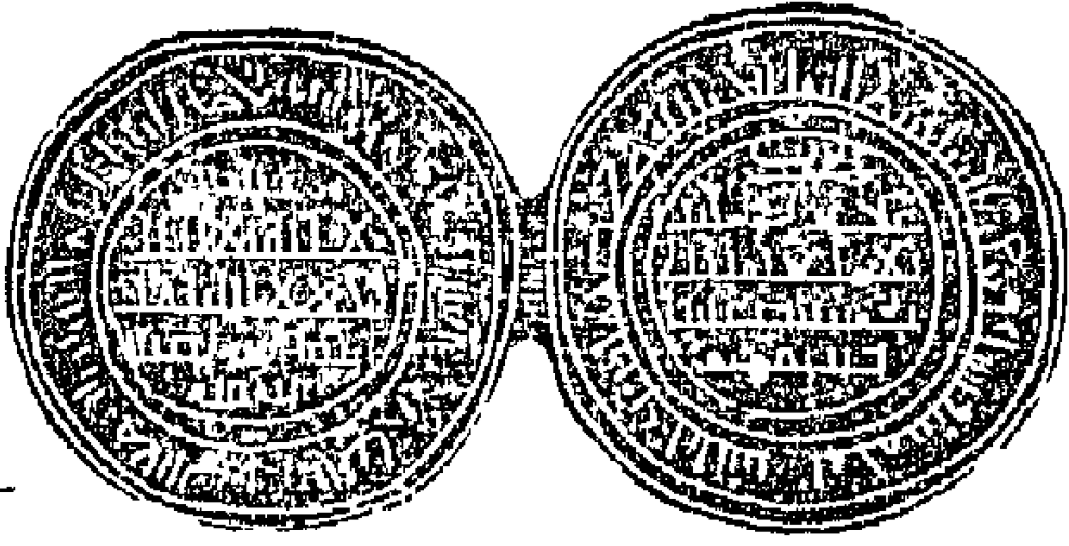
وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من بني العباس . وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل أمير الجيوش كما تقدم . وكانت وفاتها خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة ونرى في الاشكال ٥١ و ٥٢ صور النقود الذهبية التي ضربت في أيام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في مستقبل المملكة فأوصى بتدبيرها لولده الثاني شاهين شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم)



ش ٥١ : نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

أما هذا فكان فاضلا حكيما وكان قبل وفاة أبيه لا ينفك عن ملاصقته والاقتداء بمناقبه فتدرب على يده وكان يساعده في آرائه فرأى فيه أبوه رجلا يليق بادارة

الاحكام واستلام زمام الامور . ولما تولى شاهين شاه الوزارة لقب بالافضل وبجميع الالقاب والامتيازات التي كانت لابيه أمير الجيوش



ش ٥٢ : نقود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ ﻫ

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ ـ ٤٩٥ ﻫ أو من ١٠٩٤ - ١١٠١ م

أما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاءا اليه فاذا أخوهما قد جلس على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فأمرهما الافضل بتقبيل الارض وقال لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتنعا من ذلك وقال كل منهما ان اباه قد أوصى له بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو أصغر مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وانا أحضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى لا يدري به أحد وتوجه الى الاسكندرية . فلما ابطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبراً فانزعج لذلك انزعاجاً عظيما

نزار وأفتكين

وكان الافضل حاقداً على نزار لاسباب منها أنه دخل يوماً من باب وهو راكب فصاح به نزار « انزل يا ارمني » . فحقدها عليه وصار كل منهم يكره الآخر . فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلا كبيراً هماماً وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة اخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه . وكان من جملتهم محمود بن مصال فبعث الى نزار واعلمه بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان استدعاء الافضل له ولاخيه لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية أبيه له بالخلافة سار من القصر متنكراً ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة أفتكين أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليه ليلا

وأعلماه بما كان من الافضل وترامیا علیه ووعده نزار بأن یجعله وزیراً مكان الافضل فقبلها أتم قبول وبایع نزاراً وأحضر أهل الثغر لمبایعته فبایعوه ونعته بالمصطفى لدين الله

فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ ﻫ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وأفتكين وكانت بين الفريقين وقائع شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معه منهزماً الى القاهرة . فقوي نزار وأفتكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظم واستولى على الوجه البحري وأخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربته ودسّ الى أكابر العربان ووجوه أصحاب نزار وأفتكين ووعدهم . وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً وألح في مقاتلتها

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفرّ في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وأفتكين اليه يطلبان الامان فامنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وأفتكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فانه قتل في القصر بأن اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . وأما أفتكين فقتله الافضل بعد قدومه

فعاد السلام الى المملكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخلت في حوزة دولة الارتقيين

دولة الارتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان السلجوقيين خرجوا من بلاد التتر قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التقوا في غربيها بقبائل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فأخرجوهم من ضواحي بحر قزوين وساقوهم الى حدود سوريا . فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نيل رزقهم فاستخدموا قوتي الهجوم والدفاع حتى أصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان أصبحوا كذلك حتى كانت الدولة السلجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم أمامها فتقهقروا الى غربي سوريا وانتشروا فيها وفي فلسطين . فأمير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتق بن اكسك استولى على اورشليم فاسس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ ﻫ توفي ارتق عن ولدين الغازي وسقمان فحكما

معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي أيام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والسلجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار اميرالجيوش الافضل لانقاذ بيت المقدس من الارتقيين فطلب اليهم التسليم فابوا فضربها بالمنجنيق فهدم بعضها فسلمت وفر الارتيقون الى شرقي سوريا . فسار سقمان الى الرها وأقام لنفسه حكومة فيها وضم اليها ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وأنشأ مملكه في ماردين

الحروب الصليبية

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في أول نشأتها نعني أيام التعصبات الدينية العمياء التي يخجل التاريخ من ذكرها . فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت الناس من الراحة — ان ذلك التعصب ساق أهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الا اهلاك العباد المقصود انقاذهم . فمن نجا من السيف لم ينج من الاستعباد . واننا لنمسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع الذي يسود القلوب ويشوه وجه الانسانية

فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات كيف كانت منقسمة بينها . فقام أهل أوربا جميعاً وجاهروا بمحاربتها واحتشدوا في القسطنطينية بأمر الامبراطور ألكس كمون الاول والسلجوقيون يزحفون في آسيا يفتتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناطول فأصبحوا يهددون المسلمين في مصر كما يهددون النصارى في القسطنطينية . وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى أدركوا شاطىء البوسفور الشرقي فلم يبق بينهم و بين القسطنطينية الا ذلك البوغاز . وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعه المسيحيون في كنيسة ايا صوفيا على الجانب الاخر

ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وعددهم عظيم . فقابلهم السلطان قليج ارسلان السلجوقي بن سليمان شاه مؤسس الدولة السلجوقية فحاربوه وارجعوه وجيشه الى الوراء واستولوا على نيقية ثم انطاكية . فجاء المسلمين مدد من كتبوغا امير الموصل ودقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص . ومع كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هؤلاء ودافعوا دفاع اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يبق ما يوقفهم عن التقدم . فاستولوا على المعرة

بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشر جنودهم في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالامواج المتلاطمة فلاقتها جيوش مصر هناك . وكانت بيت المقدس في حكم الخليفة المستعلي الفاطمي منذ استخلصها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يوماً ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ ﻫ (يوليو « تموز » سنة ١٠٩٩) بعد مذبحة استمرت أسبوعاً فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى . وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من ٧٠ الف نفس واغتنم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر



ش ٥٣ — قتال بين الصليبيين والمسلمين في القرن الحادي عشر الميلاد
نقلاً عن صورة مرسومة على زجاج نافذة بكنيسة القديس دنيس

فاضطربت مصر لتلك الاخبار وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك فحشد امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جنداً وافراً تحت قيادة سعد الدولة . فساروا وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند أسوار عسقلان فحاربوها فارجعوها على أعقابها . فلما رأى الصليبيون أنفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقاً الى ما بين النهرين . فالتقت فرقة منهم بكمشتكين امير ملاطية وسيواس فكسرها ولم يوقفهم عن مرادهم . فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى سروج ومن الجهة الاخرى حتى استولوا على ارصوف وقيصرية

ومرت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ ﻫ في مثل هذه المناوشات . وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٩٥ ﻫ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد أن حكم ٧ سنوات وشهرين

وله ولدٌ اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً على أبيه قبله . وكان قد عهد اليه أن يلقبه عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الآمر بن المستعلي

من ٤٩٥ – ٥٢٤ ﻫ او من ١١٠١ – ١١٣٠ م

وكان الصليبيون في أثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هذه الحال أن يتحدوا يداً واحدة لمقاومة أعدائهم لكنهم جاؤوا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتتت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبيين لم يضيعوها لان الكونت سنجيل بعد أن استولى على طرسوس وحمص وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ ﻫ وحاصرها براً وبحراً . وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه من أتباع أمير الجيوش . وطال أمد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر

ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خلف بن ملاعب الكلابي . وكان والياً على حمص أخرجه منها تتاش صاحب دمشق زوراً سنة ٤٨٥ ﻫ فاتى مصر وعرض نفسه لخدمة الخلفاء الفاطميين . وكان قد طاف أنحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع أحوالها شأن المحب لمعرفة حقائق الاشياء . فوصل مصر والخليفة في احتياج الى خدمته وذلك أن افامه في غربي سوريا كان قد تملكها السلطان رضوان فخر الدولة السلجوقي وأقام عليها والياً من قبله . فكتب هذا الوالي لامير الجيوش سراً انه مستعدٌّ لتسليم المدينة لمن يرسله خليفة مصر . فتقدم الامير خلف لهذه المهمة فقبل فسار الى افامه وتملكها . ولم ترسخ قدمه فيها حتى نبذ الطاعة وأوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع لما كانت عليه سوريا من القلاقل والفتن . فانف قاضي تلك المدينة وأعيانها من البقاء على تلك الحال . فبعثوا الى والي حلب يطلبون حمايته فجاءهم فسلموا له المدينة وقتلوا خلفاً وبعض أهله . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ ﻫ وأول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي أثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصراً لطرابلس الشام وقد شخص اميرها الى بغداد يستمد الخليفة المقتدر العباسي والسلطان ملك شاه السلجوقي فلم يمداه بشيء فاستجار أهلها بخليفة مصر فاجارهم وبعث الافضل أحد اوليائه الى طرابلس فتملكها باسم الخليفة الآمر وأرسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع الصليبيين عنها فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا بعض أهلها واستعبدوا البعض فسببوا بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببه الحرب

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس قصبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد الا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين وكل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ أمر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . وانشأ الافضل ايضاً مرصداً عظيما كلفه مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف قديماً بالجرف ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالرصد

البدوية وابن عمها

على ان الهمة التي كان يبذلها الافضل أمير الجيوش في سبيل مصالح البلاد لم تكن تحرك من الخليفة الآمر باحكام الله ساكناً . وكان منغمساً بالملاهي لا يسمع بغانية جميلة الا استقدمها . وكان له شغف خصوصي بالجواري البدويات . ومن أقاصيصه انه بلغه ان في الصعيد جارية من اكمل العرب وأظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزي بداة الاعراب وصار يجول في الاحياء حتى انتهى الى حيها وبات هناك في ضائفة وتحايل حتى عاينها فما ملك صبره أن رجع الى مقر ملكه وسرير خلافته فارسل الى أهلها يخطبها فاجابوه الى ذلك وزوجوه بها . فلما صارت الى القصور شق عليها مفارقة ما اعتادته وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها داخل أسوار المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج . وكان على شاطىء النيل بشكل غريب . الا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه وهي في قصر الخليفة الآمر تقول :

يا ابن مياح اليك المشتكى　　مالك من بعدكم قد ملكا

كنت في حيٍ مرءًا مطلقاً   نائلاً ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر موصد   لا ارى الا حبيساً ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا   حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى   حيثما شاء طليق سلكا

فاجابها

بنت عمي والتي غذيتها   بالهوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها   لو غدا ينفع منا المشتكي
مالك الامر اليه يشتكي   هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داودٍ غدا في عصرنا   مبدياً بالتيه ما قد ملكا

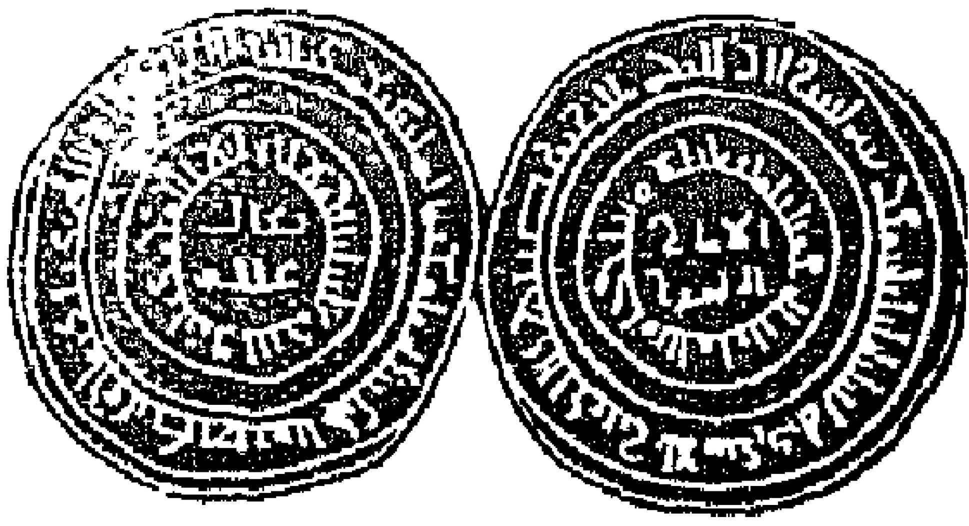
فبلغت الآمر فقال « لولا انه أساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيه وزوجتها به »

وفي أواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهلها وأحرق جوامعها . وهمَّ بمصر فداهمه مرض حمله على العود حالا فعاد الى بيت المقدس فمات قبل أن يدرك العريش فنزعوا أحشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في ارض رملية وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى أيامنا باسم رمال بردويل . أما جثته فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجت مصر من فتح عظيم . وبقي الصليبيون سبع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لاشتغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا . ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صلحاً واذنوا المسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حمله . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر فخاف خليفتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليه الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي أثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان رئيسهم يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية مشغولة بالحرب في أنحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى إن انتهى الامر فاقام حكومته بين

ظهرانيهم وابتنى حصوناً منيعة أرهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من فتكه بحياتهم فانه كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ هـ سعى أمير الباطنيين في قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢ ذي القعدة من السنة المذكورة وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية وسنه ٣٥ سنة وحكمه ٣٠ سنة تقريباً

وترى في شكل ٥٤ صورة نقود الامر باحكام الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ هـ (انظر شكل ٥٤)



ش ٥٤ : نقود الآمر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

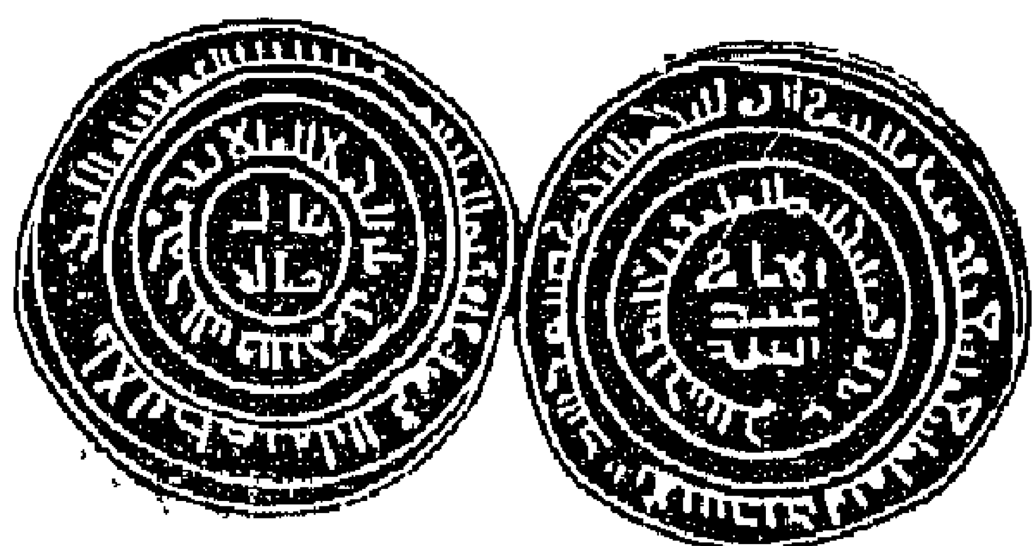
من ٥٢٤ – ٥٤٤ هـ او من ١١٣٠ – ١١٤٩ م

ولم يكن للآمر أولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم ابن محمد ولكن أرملة الخليفة كانت حاملا فلقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد ويرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حساده فقتلوه . فاستوزر وزيراً آخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام ولكنه لم يلبث أن قتل في أواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك أن يتولى اعباء الوزارة بنفسه

وفي خلال ذلك لم يكن في مصر اضطراب الا من حيث مشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تكد ترتاح من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجراً بين مطرقتين : فعدوها في الشرق الصليبيون واما في الغرب فملك صقلية روجر الثاني . وقد تقدم انه تولى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون قد علموا بذهابها من ايديهم فلم يأسفوا عليها لبعدها عن مركز حكومتهم . فلم يقنع روجر بما ناله فحملته مطامعه ان يطلب الفتح فجرد عمارة من مائتين وخمسين

شراعاً وتقدم نحو افريقية سنة ٥٣٩ ﻫ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سـنة ٥٤١ ﻫ وضع يده على طرابلس الغرب واستولى في سنة ٥٤٣ ﻫ على المهدية مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهلها لجوع مدقع حل بهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . فوقعت مصر في حيرة وقد أصبح هذا العدو في عينها أشد وطأة من الصليبيين لاشتغال هؤلاء عن مصر بما كان يهددهم به زنكي واتابك محمود الملقب بالملك العادل نور الدين

وفي أثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ ﻫ بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل له موسى الطبيب النصراني طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه خرج الريح من مخرجه ولهذه الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سن الحافظ عند موته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا التوقيع على الاوامر في تثبيت الامراء على اماراتهم شأن الدول عند وشك انحلال ملكها الا أن تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٥٥ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ ﻫ وهي السنة التي توفي فيها



ش ٥٥ : نقود الحافظ لدين الله

خلافة الظافر بن الحافظ

من ٥٤٤ – ٥٤٩ ﻫ او من ١١٤٩ – ١١٥٤ م

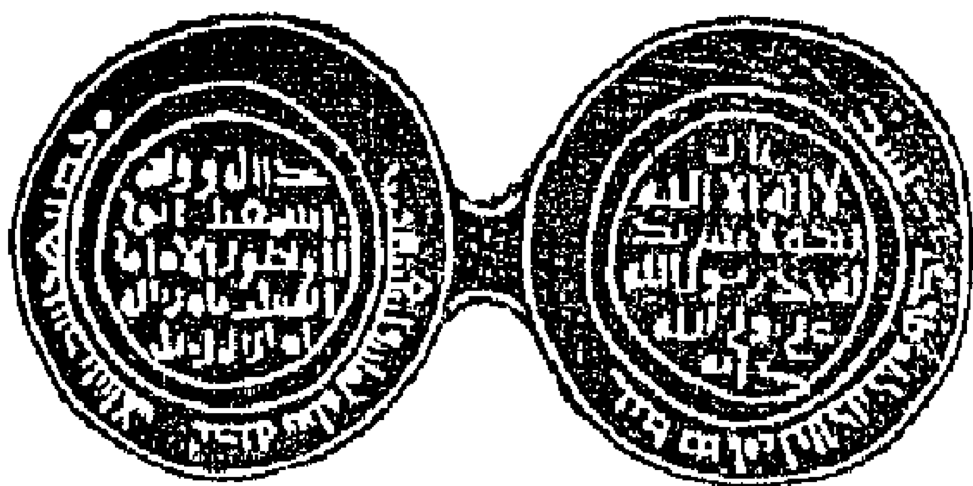
واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بأمر الله لكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو أصغر أولاد ابيه سناً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقلية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما

يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يبدي حراكا

وفي السنة الرابعة من خلافته وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من أعمال الفاطميين ونظراً لوقوعها على حدود مملكتهم كانت عرضة لهجمات الصليبيين وكان الوزراء في أيام الخلفاء السالفين يعززونها بمهمات الدفاع . وفي أوائل خلافة الظافر توفي وزيره ووقع الخلاف بين ذوي شوراه فشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا أمر عسقلان فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مع خبر آخر أشد وطأة منه وهو ان العمارة الصقلية نزلت على سواحل مصر وأحرقت مدينة تنيس في بحيرة المنزلة ونهبت الفرما لكنها لم تتقدم اكثر من ذلك فأخذت ما امكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكا بالشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر أن يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضها من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار أبيه سراً ولم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها وأخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى أبيه العباس واخبره بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل لهم انه لم يبت هنا فتطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انتما قتلتما إمامنا . وما نعرف حاله الا منكما فأصرّا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما حالا لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنه

ونرى في شكل ٥٦ صورة نقود الظافر بأمر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ



ش ٥٦ : نقود الظافر بأمر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من ٥٤٩ ـ ٥٥٦ هـ أو من ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وأمر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد مولاكم وقتل عماه اباه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا بأجمعهم « سمعنا وأطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

الملك الصالح

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبقَ على يده يد وأما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر وأخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني ـ وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الأمامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناء على رؤيا رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب (المنيا)

فلما صار أهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيرة من أتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع أول سنة ٥٤٩ هـ . أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرّفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور

وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر أحواله . وأما عباس فان أخت الظافر كاتبت صليبيي عسقلان بشأنه وشرطت لهم مالا جزيلا اذا أمسكوه فخرجوا عليه والتقوا به فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا مالهُ وولدهُ وانهزم بعض اصحابه الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة ٥٥١ ﻫ واحرقوه

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ ﻫ توفي . وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ ـ ٥٦٧ ﻫ او من ١١٦٠ ـ ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز أخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة فهم بمبايعته فجاء أحد اصدقائه وهمس في أذنه « ان سلفك في الوزارة كان أحسن تدبيراً منك لانه لم يسلم نفسه لخليفة عمره أكثر من خمس سنوات » فرنت هـذه العبارة في أذن الوزير فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده . فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله أقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت أعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمة الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت أولاد الراعي فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط الى الارض على وجهه وحمل جريحاً لا يعي الى داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ ﻫ وكان شجاعاً

كريماً جواداً فاضلا محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقلٌ وسياسة وتدبير . وكان ذا هيبة في شكله عظيما في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلاة وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع صنف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على اهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجلدين في كل فن فنه في اعتقاده :

يا امة سلكت ضلالا بيناً حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى ان المعاصي لم يكن الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلاً ان يكون الهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

ولم يمت الصالح الاّ بعد ان انتقم من عمة الخليفة بامر الخليفة نفسه لانه لم يكن يحبها . ثم استوزر ابنه محيي الدين رزيك واقبه بالملك العادل وكنيته ابو شجاع وهذا استخلف شاور

مشهد الحسين

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انه علم بوجود مشهد الحسين في عسقلان . وكان امير الجيوش أثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن رأس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى فوقه مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليه من الصليبيين فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه على أن يجعل فيه المشهد . فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه لا يليق ان يكون ذلك الأثر الشريف خارج سور المدينة وأبى الا أن يجعله في بعض أجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك وفي سنة ٧٤٠ ﻫ احترق المشهد فأعيد بناؤه مراراً وأخيراً اقيم في جواره جامع حتى اذا كانت أيام الامير عبد الرحمن كخيا أحد أمراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد وبعد ذلك أعيد بناؤه برمته في أيام الخديوي اسماعيل ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على ما نشاهده الان وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة بالقاهرة

* *

ضرغام

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد أنشأ في وزارته أمراء يقال لهم البرقية . وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الاشبال . فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب . فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبه اياها فجمع رفقته . وتخوف شاور وجمع اليه رجاله . فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور . وبعد تسعة أشهر من وزارة شاور أي في رمضان سنة ٥٥٨ ﻫ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام . وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولخشي فانه كان رفيقاً له في تلك الكرة . واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته لانه كان فارس عصره وكان كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلا كريماً لا يضع كرمه الا في سمعة ترفعه أو مواراة تنفعه الا انه كان أذناً مستحيلا على اصحابه فاذا ظن في أحد شراً جعل الشك يقيناً وعجل بالعقوبة . فبلغه بعد حين ان رفاقه البرقية يسعون في خلعه واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادته من التعجل أرسل اليهم وكانوا نحواً من سبعين أميراً سوى أتباعهم وأحضرهم الى دار الوزارة ليلا وقتلهم بالسيف صبراً فذهبت لذلك رجالة الدولة واختلت أحوالها وضعفت اكابرها وفقد أصحاب الرأي والتدبير منها

أسد الدين شيركوه وصلاح الدين

وفي أثناء ذلك قصد الصليبيون بلاد مصر فخرج اليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ونزلوا على حصن بلبيس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فما هو الا أن قدم رسل الصليبيين على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة في كل سنة وهو ٣٣ ألف دينار

ثم جاء الخبر بقدوم شاور ومعه أسد الدين شيركوه بن شادي — وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من أشهر قبائل الاكراد من مدينة دوين من أعمال أذربايجان . وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين أيوب في خدمة الاتابك نور الدين صاحب دمشق منذ مدة طويلة وأظهرا من اللياقة ما مكن ثقته فيهما . فلما سار شاور الى دمشق استنجد اتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يده . فنور الدين لم يغفل عن هذه الفرصة التي تجعل له يداً بامور مصر فأرسل معه أسد الدين شيركوه

في كثير من المماليك (الغز) وسار معهما يوسف ابن أخيه نجم الدين بن أيوب وكان صغير السن ولم يكن ابوه راضياً بسفره في هذه الاخطار اصغر سنه . ولعل التقادير ساقته الى مصر ليكون سلطاناً عليها فان هذا الغلام صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الايوبي . أما مولده فقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار الاتابك نور الدين بنفسه مشيعاً جيوشه الى حدود مصر وقصده من ذلك ايهام الصليبيين الذين في طريقه انه آت لمحاربتهم فانحصروا في مدنهم ومر جيشه بامان ولا معارض حتى أتى مصر

قتل ضرغام وعود شاور الى الوزارة

فلما علم ضرغام بقدوم شاور ومن معه ومطاليب الصليبيين اضطرب وأصبح الناس في ٢٩ جمادي الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على أنفسهم وأموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في أول جمادى الاخرة فسار الى بلبيس وكانت له وقعة مع شاور انهزم همام فيها . وصار الى شاور وأصحابه جميع ماكان مع عساكر همام وأسروا عدة ونزل شاور بمن معه الى التاج (قليوب) بظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الاخرة

فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية من الجند بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج أياماً ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربه فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر (الفسطاط) وأقام بها أياما

فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فكرهه الناس واستعجزوه ومالوا مع شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في منظرة اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينه وبين اصحاب ضرغام وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه انهم عون له فانحل أمر ضرغام فأرسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملته وفترت همة اهل القاهرة وأخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فأمر ضرغام بضرب الابواق والطبول ما شاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليه أحد وتفرق عنه الناس فسار الى باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف

وطلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه وأقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد وظل واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وانج بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور ففر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه وادركه القوم فأردوه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا رأسه في غاية جمادى الاخرة وفرّ منهم أخوه الى جهة المطارية فأدركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوه الاخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارته ٩ أشهر وكان من أجلّ اعيان الامراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة وأشدهم رمياً بالسهام وكان له مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة .

ولما جيء برأسه الى شاور رفع على قفاه وطيف به فقال الفقيه عمارة

أرى جنك الوزارة صار سيفاً يجز بحده جيد الرقاب

كأنك رائد البلوى والا بشير بالمنية والمصاب

وهكذا أعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع للاتابك نور الدين ثلث محصولاتها مقابلة لما بذله في اعادتها اليه . الا ان الاتابك لم يكن هذا حد مطامعه في مصر فقد كان له بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاور لانه قصده مستنصراً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانه كان يبلغه انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك

شاور وشيركوه

ولما أقيم شاور على مصر عقد بينه وبين أسد الدين شيركوه اتفاقاً سرياً بشأن تسليم مصر الا ان الشيطان وسوس لشاور انه قادر على دفع جيوش نور الدين فينال السلطة لنفسه فكتب الى شيركوه ان يسير الى سوريا . فاعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه . فلما رأى ذلك ارسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور الى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكانوا قد أيقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها . فلما أرسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في

تملك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك اعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشد . فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقين الى مصر . وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الصليبيين في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعانوا بهم فأعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم في البلاد لحفظها . فلما قارب الصليبيون مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا اسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا ما يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً . فبينماهم كذلك اذ اتاهم الخبر بهزيمة الصليبيين على حارم وتملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس . فحينئذ سقط في ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فأجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عنده وخرج من بلبيس في ذي الحجة

فلما وصل الى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين الى سنة ٥٦٢ وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . فلما كانت هذه السنة تجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفي فارس وكان كارهاً لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام . فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الصليبيين الى يمينه . فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل الفسطاط وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفاً وخمسين يوماً

وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد أرسل الى الصليبيين يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها وخوفاً من أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين . فالرجاء كان يقودهم والخوف يسوقهم .

فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والافرنج وراءه فأدركوه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أرسل الى المصريين والصليبيين جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعُددهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم . الا انه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هـذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق . فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له « ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجيء وبمن نحتمي وكل من في هـذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا »

فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب الشقيف وكان شجاعاً وقال « من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من أقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هـذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مصر الى الـكفار والحق بيده » فقال أسد الدين « هذا الرأي وبه اعمل » وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الـكلمة على القتال

فاقام أسد الدين بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون . وهو على تعبية وجعل الاثقال في القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد . وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه « ان المصريين والصليبيين يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة

فلما تقاتل الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيراً وانهزموا من بين ايديهم غير متفرقين . فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين من الصليبيين الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والاسر . فلما عاد

الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوماً والارض منهم قفراً فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

ولما انهزم المصريون والصليبيون من أسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه . وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان

وأما المصريون والصليبيون فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم وجموعهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر اهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الصليبيين والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب الى ذلك وشرط على الصليبيين ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة

الصليبيون في القاهرة

واما الصليبيون فانهم استقر بينهم و بين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار — هذا كله استقر مع شاور لان العاضد لم يكن له معه حكم وقد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها . وعاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهي محبته وولاءه ويعرض الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا ويبذل مالا يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلا فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الصليبيون مصر سنة اربع وستين وخمسمائة

مضت على ذلك سنتان والافرنج (الصليبيون) لهم شحنة (ضابطة) في القاهرة وقد تسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائراً وركبوهم بالاذى العظيم . فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم ارسلوا الى ملكهم بالشام وهو مرى ولم يكن للصليبيين

منذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهوّنوا امرها عليه بقصدها وتملكها فقال لهم « الرأي عندي اننا لا نقصدها ولا طمعة لنا بها واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الصليبيين واجلاؤهم من ارض الشام » فلم يقبلوا قوله وقالوا له « انها لا مانع فيها ولا حامي . والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص . فلما سمع نور الدين شرع ايضاً يجمع عساكره

وجدّ الصليبيون في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر سنة ٥٦٥ هـ ونهبوها وقتلوا فيها واسروا . وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصرة عداوةً لشاور . منهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوي جنان الصليبيين وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة في ١٠ صفر وحصروها فخاف اهلها ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس . فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه . فلو ان الصليبيين احسنوا السيرة في بلبيس لملكوا الفسطاط والقاهرة . ولكن فشلهم في فتحها عاد على الفسطاط بالدمار لان شاور امر باحراقها تاسع صفر المذكور وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد . فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الصليبيين عليهم بيوم خوفاً من ان يملكها الصليبيون فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً

شاور والصليبيون

وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين وارسل في الكتب شعور النساء وقال « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الصليبيين » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . واما الصليبيون فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على اهلها

وشاور هو المتولي الامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم . فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبته له قديماً وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح واخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين . فأجابه الى ذلك على ان يعطوه ١٠٠٠٠٠٠ دينار مصري يعجل البعض ويمهل بالبعض . فاستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الصليبيون ان البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين . فاجابوا كارهين وقالوا « نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً . وجعل شاور يجمع لهم المال من اهل القاهرة ومصر (الفسطاط) فلم يتحصل له اكثر من خمسة آلاف دينار لان اهل الفسطاط كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلاً عن الاقساط . واما اهل القاهرة فالاغلب على اهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال . وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيماً عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم

وكان نور النور الدين لما وصله كتاب العاضد بحلب فارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج الرسول في طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه . وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضاً في المعنى . فسار الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك . وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر الفي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها آخر صفر ورحل الى رأس الماء . واعطى نور الدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف الى اسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن ايوب اخي شيركوه على كره منه — وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم — احب نور الدين مسير

صلاح الدين وفيه ذهاب بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد خبر ذلك

مقتل شاور

وسار اسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الصليبيون الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . واما اسد الدين فانه وصل القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة . ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه . وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ماكان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه . ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له « والله لئن عزمت على هـذا الامر لاعرفن شيركوه » فقال له ابوه « والله لئن لم نفعل هـذا لنقتلن جميعاً » فقال « صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الصليبيون فانه ليس بينك وبين عود الصليبيين الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد » فترك ماكان عزم عليه

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف ابن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور. فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله

فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام وكان قد مضى ليزور قبر الشافعي فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه وأعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي . فقال نمضي اليه . فساروا اليه جميعاً فسايره صلاح الدين وجرديك والقوه الى الارض

عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيراً فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا أسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر . ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم « امير المؤمنين (يعني العاضد) يأمركم بنهب دار شاور » فتفرق الناس عنه فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم يرَ فيها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره

وأما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وودت انه بقي لأحسن اليه جزاء لصنيعه

حضارة الفسطاط

قد علمت ما كان من احراق الفسطاط بأمر شاور فيجدر بنا ان نذكر ماكانت عليه من الحضارة والثروة . وقد تقدم سبب بنائها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . وأخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدلّ في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احنّ الى الفسطاط شوقاً وانني لأدعو لها ان لا يحل بها القطرُ
وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ

بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخمارويه

واشتهر من تلك الابنية دارٌ ضرب المثل بعظمها وغنى أهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها في اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه ابن احمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها ٧٠ (كذا) صانعاً قلّ من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم . ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلا من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم — قال القضاعي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقريزي وغيره في كلامهم على الفسطاط

موت أسد الدين ووزارة صلاح الدين

فسرّ الخليفة العاضد جدًّا لنجاته من شاور . فاستلم أسد الدين الوزارة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ وفرق العطايا في جيوشه التي رافقته الى مصر وأمر النصارى بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من ارخاء الذؤابة التي تسمى بالعذبة . فكتب المهذب بن أبي المليح زكريا وكان مسيحياً الى أسد الدين بقوله :

يا اسد الدين ومن عدله   يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا   فما الذي أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته ولا مكنه من ارخاء الذؤابة وعند ما يئس من ذلك أسلم

ولم تطل مدة وزارة اسد الدين فعاجلته المنية في ٢٢ جمادي الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة أيام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول . وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة . وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته . وكان يعدُّ نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه . وبعد وفاته أحب العاضد أن يبين حبه له فولى مكانه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً

وذكر ابن الاثير في سبب مجيء صلاح الدين الى مصر نقلا عن صلاح الدين نفسه قال : لما اتت كتب العاضد الى نور الدين يستغيث به من الافرنج ويطلب ارسال العساكر أحضرني وأعلمني الحال وقال « تمضي الى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير » ففعلت . وخرجنا من حلب فما كنا على ميل منها حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى فأمره نور الدين بالمسير . فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي اليَّ فقال لي « تجهز يا يوسف فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه ابداً » فقال لنور الدين « لا بد من مسيره معي » فامرني نور الدين وانا أستقيل . وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبقَ غير المسير فقال لي نور الدين « لا بد من مسيرك مع عمك » فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق الى الموت فسرت معه وملكها . ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه . اه

وأما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعد اسد الدين منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين . وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها . فارسل العاضد الى صلاح الدين أحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه . وكان الذي حمله على ذلك ان أصحابه قالوا له « ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأي أن يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه » فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه

أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لأنفسهم ولا خدموه

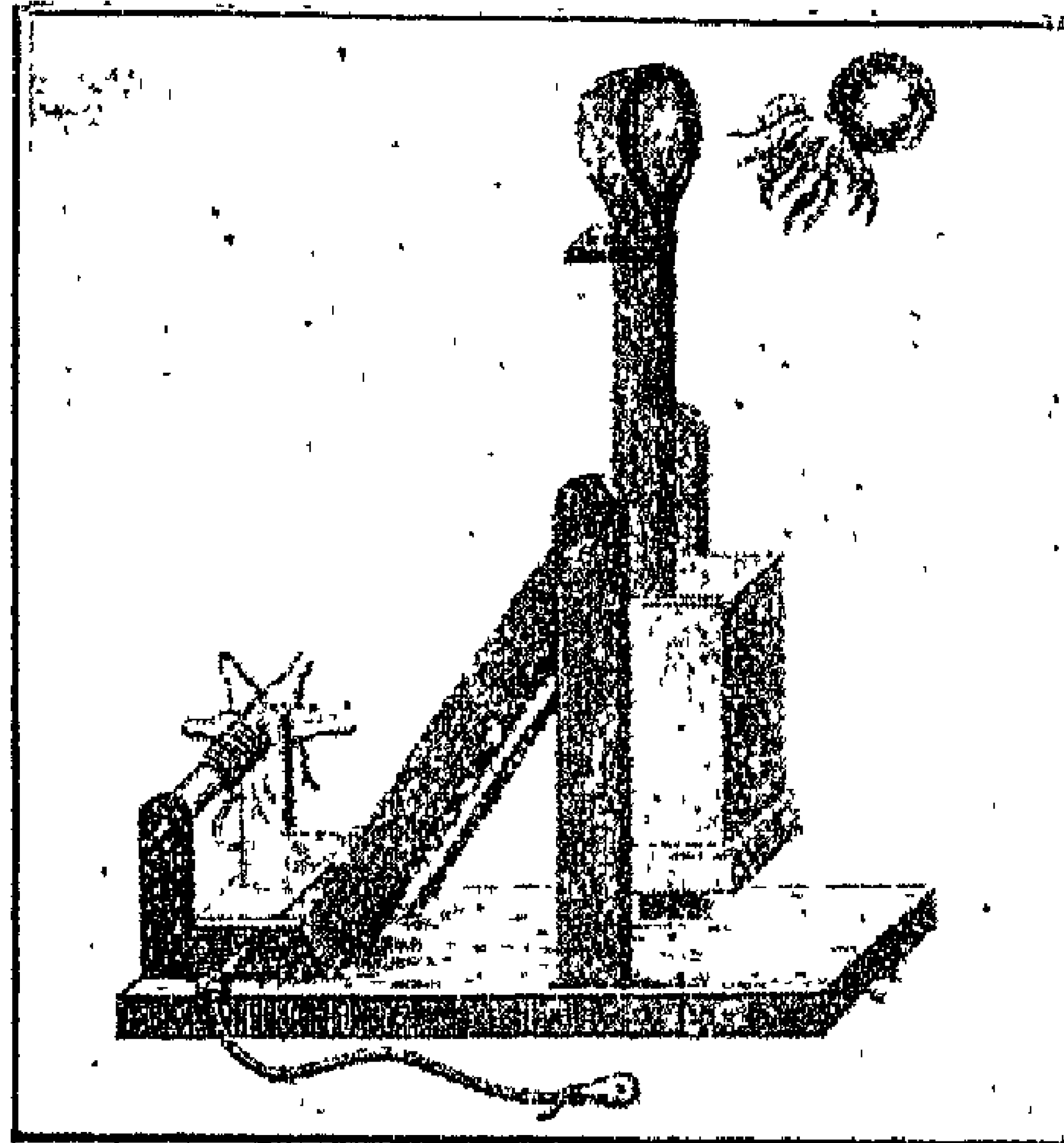
وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له « ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرها » ثم قصد الحارمي وقال « هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك » فمال اليه ايضاً . ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال « انا لا اخدم يوسف » وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء . فثبت قدم صلاح الدين ـ ومع هذا فهو نائب عن نور الدين . وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب « الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا » واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه وأحبوه وضعف أمر العاضد . ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل اليه اخوته وأهله . فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك . وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها أهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حباً وطاعة

مؤتمن الخلافة وصلاح الدين

فلما أجمع المصريون على حب صلاح الدين ظهر حساده واكبرهم مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد واليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه . فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه . وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركماني فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه « لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة » وارتاب به وبهما فاتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه . وكان غرض مؤتمن الخلافة ان يتحرك الصليبيون الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والصليبيون من بين يديه فلا يبقى لهم باقية . فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل

عن كاتبه فقيل رجل يهودي فأحضر فأمر بضربه وتقريره فأسلم وأخبره الخبر . وأخفى صلاح الدين الكتاب لكن مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ولا يظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك

فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه . وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . وهو خصي أبيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بامره . فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين الفاً . وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضاً وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين



ش ٥٧ : آلة رمي قارورة النفط مشتعلة للاحراق

وكان العاضد في هذه الوقعة يشرف من المنظرة . اما اهل القصر فلما رأوا كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فامر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين وأخذوا في تطييب قارورة النفط ووضعوها في الآلة وصوبوا بها على المنظرة التي فيها العاضد فخاف العاضد على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال « امير المؤمنين يسلم

على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم » فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقفيتهم الى ان وصلوا سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم . وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جار في الدولة يجري عليهم . فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلا . ومروا الى العبيد فصار هؤلاء كلما دخلوا مكاناً احرق عليهم وقتلوا فيه . الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلق فحوصروا هناك واستمر فيهم القتل يومين . ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك . فايقنوا انهم قد أخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد : وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهراً والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهراً الملقب بمؤتمن الخلافة

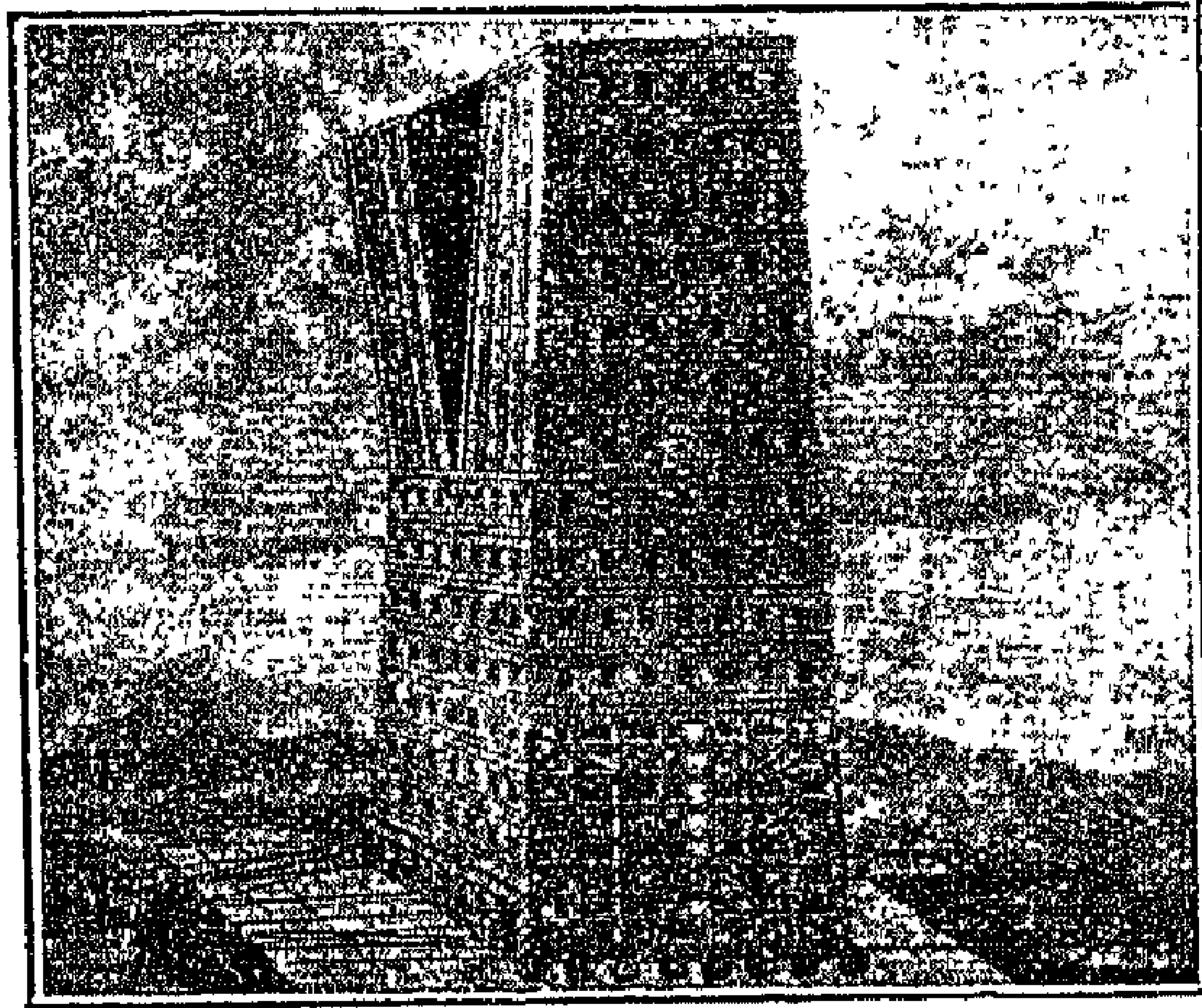
فلما انتهت هذه الواقعة واستئصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولى أخاه طوران شاه قوص وأصوان وعيذاب مكافأة لما أظهره من البسالة في واقعة العبيد . وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة أبريم فسبي وغنم ثم عاد بعد أن أقطع ابريم بعض اصحابه . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه

حصار دمياط

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سبباً لاضطراب الصليبيين . أما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا ليمنع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر . فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريرك صور فريدريك مع

يوحنا أسقف عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وصقلية وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم . غير ان امبراطور القسطنطينية أرسل عمارة من مائة وخمسين شراعاً مملوءة بالذخائر والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا براً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما جدوا السير حتى أتوا دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك امري فظن انه يقدر على أخذ دمياط بالهجوم لكنه رأى منها مقاومة ودفاعاً ألزماه على اقامة الحصار فاقامه ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان اهل دمياط كانوا كثيرين ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعددهم وطال الحصار حتى نفدت مؤونة الصليبيين فأرادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم سدٌ أقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد مشدود بمتاريس دمياط والطرف الآخر



ش ٥٨ برج من أبراج الحصار

ببرج هائل منيع الجانب من ابراج الحصار . وكانت الامدادات ترد لحامية دمياط من القاهرة بسهولة . أما الصليبيون فكان انتظارهم المدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق بين الفرنساويين منهم وهم الذين كانوا في سوريا والروم الذين أتوا بالمدد من الاستانة . واشتد ذلك الاختلاف حتى أفضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويعضغون افنان النخيل . ومما زاد شقاءهم تكاثر الامطار وهبوب الزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى أصبحوا كأنهم في طوفان عظيم . وحصل من تكاثر

الاعصار نوء في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة اخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فأحرقت ما بقي منها

فلما شاهد الافرنج ذلك لم يروا بداً من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليدين بعد ان تعاقدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين قد أعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك وعنف الامراء الذين سمحوا لهم بالرجوع ثم عاد الى القاهرة

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين على سوريا لمحاربة الذين ضافوه السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم امري وهو في عسقلان انه حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى على قمة جبل وعر على اربع اميال من غزة اتخذه الصليبيون معقلا فاسرع الملك امري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان صلاح الدين قد علم بقدومه فسار لملاقاته فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزة فاستولى عليها . واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالثأر فتركوا في غزة حامية وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في أواخر السنة المذكورة

ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج احتلوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعه عصبة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة ركب تلك المراكب وأنزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع الاول من السنة المذكورة براً وبحراً وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة

وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الا اسما لغير مسمى ولم يعد لديه إلا السلطة الدينية . فلاح لنور الدين ان يتخلص من سلطة الفاطميين فاوعز الى صلاح الدين ان يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسي

الخطبة العباسية بمصر

وفي سنة ٥٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلا من الفاطمي. ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين السنيين

وخرجت من سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبتت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من أعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه . فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيء بالله العباسي. فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية ويأخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه . فلما أعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاماً لا فسحة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه لم يمكنه الا الامتثال امر نور الدين

وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وان احداً لا يتجاسر ان يخطب للعباسيين قال «أنا ابتدىء بالخطبة له» فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

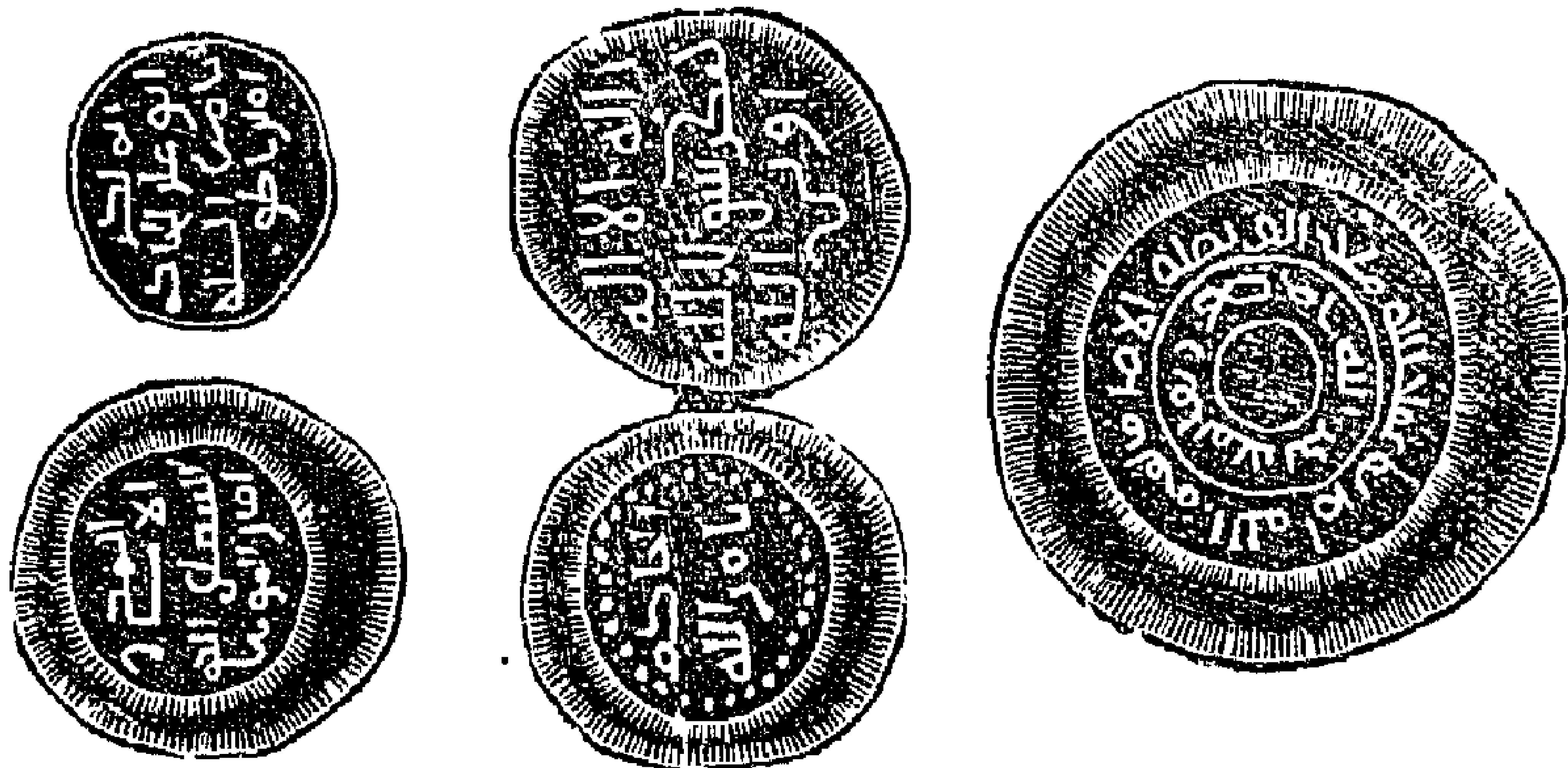
موت العاضد وانقضاء الدولة الفاطمية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبه قبل موت العاضد

فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم — فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع أصابع في عرض عقد كبير . ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد

وقد احتاطوا بالحفظ . فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المعدومة المثل مالا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل أهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يكن بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه . فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه

ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين قتل العاضد بيده الا ان الجمهور على خلاف ذلك . على أننا لا يسعنا الا لومه لتطرفه في احتقار الخليفة وتجريده اياه من ذات يده ومن متاعه . وقد بالغ بذلك حتى انه علم بجواد كريم كان يركبه الخليفة لترويح النفس في حديقته فطلبه منه فلم يسع الخليفة الا اعطاؤه اياه والتوقف عن الرياضة التي لم يبق لديه من ثروة الخلفاء سواها . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة واذا رأى سنياً استحل دمه . وترى في الشكل التاسع والخمسين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية أيام احتياجها المال وقلة الذهب . وحالما تولى صلاح الدين ألغاها وضرب نقوده المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليه



ش ٥٩ : نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

حضارة الدولة الفاطمية

انقضت هذه الدولة بموت العاضد الفاطمي والخطبة للمستضيء العباسي سنة ٥٧٦

فيجدر بنا ان نأتي على ما كان من مبلغ حضارتها لولا ما نخافه من التطويل وقد افاض المقريزي في ذكره مفصلا فنأتي على مثال من بذخهم وترفهم وقد ذكر شيء من ذلك

أدوات الترف

كان الفاطميون يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج وأخذت الدولة العباسية بالتقهقر فناقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فان العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر وكالوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل ونابأه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده . وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكآت فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش . وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة

وكان للفاطميين في القاهرة دور يخزنون بها أدوات الترف يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الادم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة

الحلي والجوهرات عند الفاطميين

فمما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله

(سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان لا قيمة له وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من أقداح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش و١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كأس بادزهر وأشباهها على اكثرها اسم هارون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وأنصابها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة أزيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و١٠٠ قاطرميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعممات بجواهر من أيام المعز . و يت هارون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضاً ويطول شرحه . وخزانة مملوءة بانواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد . والكلونة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح

والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لا قيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و٣٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج والخز وسائر أنواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها وأطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله . و٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله وفيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه الخارطة الجغرافية وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير وقد كتب في آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المال في الحصول عليها

وقس عليه ماكان في سائر الخزائن من التحف . ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة آلاف دينار . وفي خزانة الخيم أنواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المذكي

والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من أشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط مايبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بامر الله اهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهب منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في الاعصر الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ ﻫ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً من قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو ١٧ مثقالا . انا لا أشك فيه لاني رأيته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع اصابع في عرض عقد كبير »

الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ – ٦٤٨ ﻫ أو من ١١٧١ – ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ – ٥٨٩ ﻫ أو من ١١٧١ – ١١٩٣ م



ش ٦٠ : السلطان صلاح الدين الايوبي

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الى بهاء الدين قراقوش أن يخفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم القى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن العاضد ولي العهد ويدعى بالحامد لله وأخواه أبو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه أبو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . أما مماليك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرق البعض الآخر في أرباب دولته

هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات

عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناه جوهر عند ما اناخ في موضع القاهرة والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور أخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاخرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باماكن مختلفة من القاهرة. وقلما بقي من تلك الآثار على حاله. ولكن هناك أثراً عظيما لا يمحوه كرور الايام نعني به القاهرة فانها من بنائهم كما علمت. وللفاطميين أحاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم أرباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر أنواع الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن أحب الاطلاع عليه فليطالعه في خطط المقريزي

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من أحسن المؤلفات. ولا يزال قسم منها الى الان في مكتبة ليدن بالمانيا

نور الدين وصلاح الدين

ثم أسرع صلاح الدين الى تبليغ اتابك نور الدين انه انفذ أمره وان الخليفة مات. واتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتها منفرداً بالخلافة على سائر المشرق. فخلع على اتابك نور الدين وبعث اليه سيفين اشارة الى توليته على سوريا ومصر. وخلع ايضاً على صلاح الدين وبعث اليه بالاعلام السوداء يجعلها على المنبر وبعد أن كانت القاهرة عاصمة من عواصم الاسلام أمست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد

فلما رأى نور الدين نفسه سيداً على سوريا كلها تقريباً وعلى بعض جزيرة العرب وعلى آسيا الصغرى وما بين النهرين عزم على الاستقلال بها وبمصر. أما صلاح الدين فكان في نيته الاستقلال بمصر لنفسه منذ أول توليته فيها وكان بينه وبين نور الدين مكاتبات سرية مآلها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الدينية ريثما يتأتى لهم الاستقلال فكان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعياً في اتمام مقاصده التي كانت تحت طي الخفاء. فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك. فشعر نور الدين فبعث اليه على أثر وفاة العاضد يستقدمه وفرقة من رجاله مظهراً استنجاده على الصليبيين في الكرك. وقصده الحقيقي أن يخرجه

من مصر ويبقيه عنده تحت مراقبته فيأمن طائلته . فادرك صلاح الدين غرضه الحقيقي لكنه لم يستصوب مخالفة أمره لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره برح القاهرة في فرقة من الجند لملاقاة جند نور الدين في الكرك . فوصل نور الدين اليها ولم يجد فيها أحداً فانتظر فلم يقدموا . ثم ورد اليه كتاب من صلاح الدين بانه برح القاهرة بجنده يطلب الكرك فعرض له في الطريق ما الجأه الى العود حالا الى مصر

دهاء نجم الدين أيوب

فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فاقرّ على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين . لكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يهدده بالعزل اذا لم يبادر الى ما أمر به فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي وسائر الامراء . فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه أحد . فنهض تقي الدين عمرو بن شاهين شاه أخي صلاح الدين فقال « ان الرأي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه من البلاد » ووافقه غيره من أهلهم . فشتمهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين « انا أبوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هؤلاء من يحبك ويخلص لك اكثر منا ؟ » قال لا . فقال « اعلم يايوسف اننا والله لو رأينا نورالدين لم نمكث أن نقتل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نورالدين وحده لم يجسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما هنا من يمنع »

وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا . ثم خلا أيوب بصلاح الدين فقال له « باي عقل فعلت هذا ؟ أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا نقوى عليه ؟ وأما الآن اذا بلغه ما جرى وما اظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها . ووالله لو أراد

نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته انا عليها حتى أمنعه او اقتل » ففعل صلاح الدين ما أشار به ابوه

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما نصه ابوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاته فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتيه بها بزمن قريب

وثوب المصريين بصلاح الدين

اذعن المصريون لصلاح الدين وفي قلوبهم غل فتآمر جماعة من اصحاب الخلفاء الفاطميين على الوثوب به وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن ابي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر ووافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده — اتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال . فاذا قصدوا البلاد وخرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين . وأن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له . وقال لهم عمارة « وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفاً من ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده »

فأرسلوا الى الصليبيين في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الصليبيين . وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة . الا ان بني رزيك قالوا ان الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد اول بأول . ففعل ذلك وصار يطلعه بكل ما عزموا عليه

ثم وصل رسول من ملك الصليبيين بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة . وكان صلاح الدين يرسل اليهم بعض النصارى

تأتيه رسلهم فأتاه الخبر من بلاد الصليبيين بجلية الحال . فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين في هـذه الحادثة ومنهم عماره وعبـد الصمد الـكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم

وقيل في كشف أمرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يخدمه ويتقرب اليه فلقيه يوماً فلم يلتفت اليه . فقال القاضي الفاضل « ما هذا الا لسبب » وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فاحضر علي بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال « أريد ان تـكشف لي الامر » فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل الى الجانب الآخر فـكشف الحال وحضر عنـد القاضي الفاضل وأعلمه . فقال « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال اليه » فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال . فقام وأخذ الجماعة وقررهم فاقروا فامر بصلبهم وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقـال لصلاح الدين « يا مولانا لا تسمع منـه في حقي » فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة « انه كان يشفع فيك » فندم ثم أخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في اجنـاد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله . وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم

وأما الصليبيون فـكانوا يتألفون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هـذه حتى لم يعد أمامهم الا عدوان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامه فـكان يغتنم فرصة اشتغال نور الدين بالمحاربة في ما بين النهرين ويسـير الى غزو سوريا وحالما يعلم بقدومه اليها يعود الى مصر حالا

وفاة نور الدين ومناقبه

فآل ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهمّ نور الدين بحشد الجيوش وتسييرها الى مصر لاخراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى هجوم الصليبيين عليها . وبينما هو على أهبة الرحيل فاجأته المنية بعلة الخوانيق فمات في دمشق في شوال سنة ٥٦٩ هـ وسنه ستون سنة ومدة حكمه ٢٩ سنة . وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية ومصر والموصل وديار الجزيرة . وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين . وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن . وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقلتها قال « ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن المسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك » وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلباً للاجر . وأما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها . وأحضره انسان الى مجلس الحكم فمضى معه اليه وأرسل الى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول « قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم » وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي أحضره وقال « أردت ان أترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه » وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم من الظالم ولو أنه ولده او أكبر أمير عنده وأما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف » فقال له نور الدين « ومن محمود

حتى يقال له هذا أمن قبلي من حفظ البلاد والاسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الا هو » وأما ما فعله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع البلاد ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجالسهم معه ويتبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه

استقلال صلاح الدين بمصر والشام

فانتقلت مملكته بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من العمر . فاقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائباً له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى همّ افراد اسرته بتنزيله لكنهم لم ينجحوا وحاول الملك امري غزوه فعاد خائباً . اما الامراء الذين كانوا على الامارات في مملكته فحاول كل منهم الاستقلال بذاته فأحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستنجده فاوقفه اولئك الامراء . وفي خلال ذلك ورد اليهم والى نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان له وأرسل نقوداً مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبه للامراء قوله « لو علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا أشك انه كان يعهدها اليه وهي اجمل وأخصب ولاياته واعلموا ايضاً انه لو لم يفاجئه القضاء لاقامني وصياً على ابنه وأرى انكم تحاولون اخراج يدي ولكنني سأذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافضال العظيمة التي حملنيها ابوه . اما انتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم لاني أعدكم من اهل الفتنة »

وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبه بقليل واخرج منها سيف الدين غازي بن اخي نور الدين . وكان قد وضع يده عليها وأعادها للملك الصالح ثم أسرع في استرجاع الاماكن التي كان قد استقلّ بها بعض الامراء الصغار من اسرة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافاً منهم بسلطة الملك الصالح . فاسترجع منهم حمص وحماة وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعلبك وارها . الا ان هذه

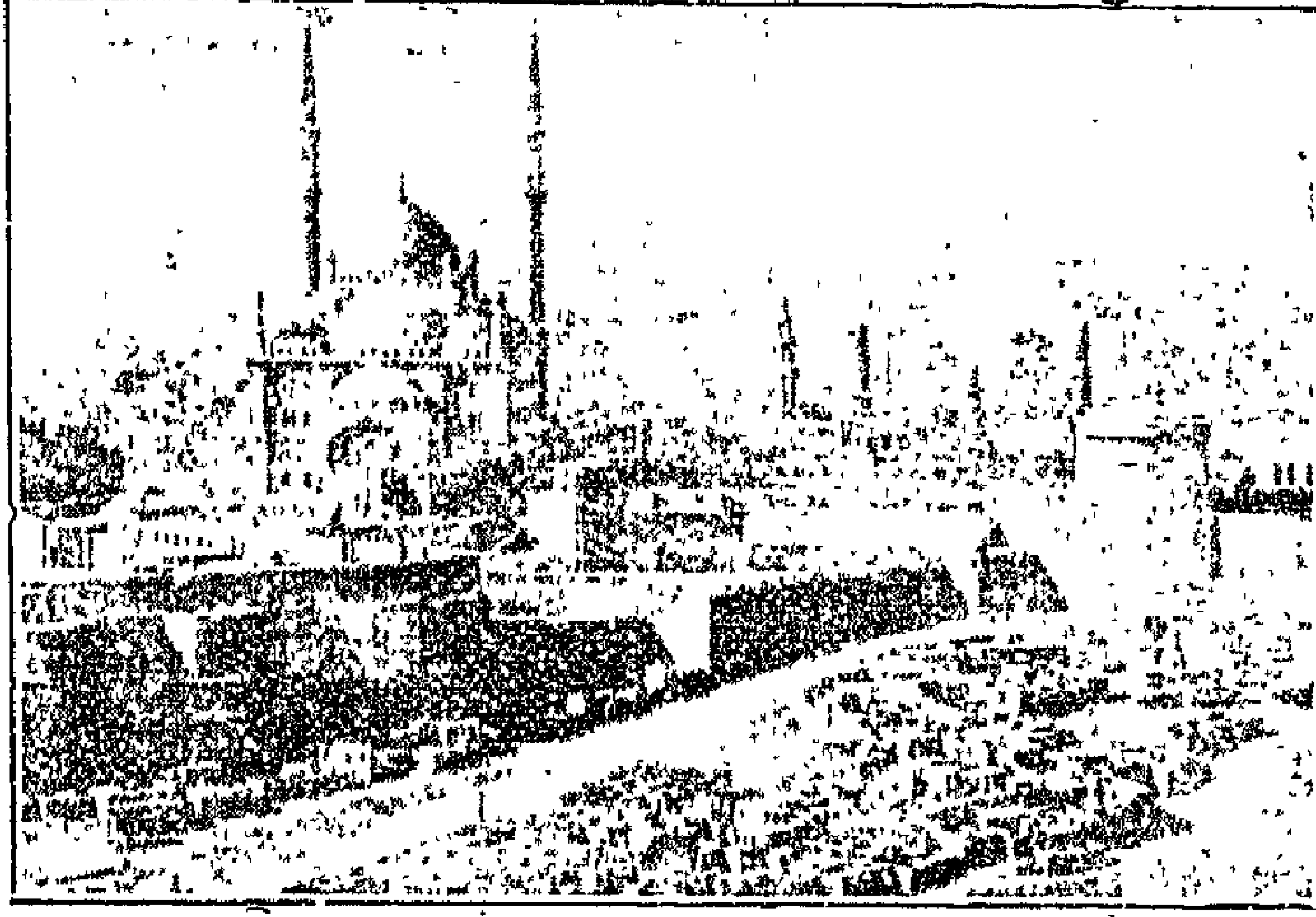
الفتوح لم تجد الملك الصالح نفعاً لانها دخلت في سلطة صلاح الدين ولم يعطِ منها شيئاً للملك الصالح . فاستنكف منه وخافه . ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرجه الى شرقي البلاد السورية واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازي وكان قد ولاه الموصل فأمدّه . فاتحد الجيشان وهاجموا صلاح الدين قرب حماه في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ ﻫ فتغلب عليهم وسلب منهم امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسه

فرأى صلاح الدين اذ ذاك من قوانه والاحوال المحيطة به ما يؤهله لبلوغ ما طالما كان يتمناه من الاستقلال بالملك . فصرح بسلطانه في مصر وسوريا وكان كذلك . فاصبح الصليبيون اعداءه مباشرة . اما هم فاغتنموا اشتغاله في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون بأهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض . فحاربهم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يقوَ عليهم . فبلغ ذلك اخوه وكان قد استقدم جنداً مصرياً . فأنفذ بعضهم فأرجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحه فحارب سيف الدين غازي وفاز به واستولى على بوزاع ومنبج وعيراز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلهما بيده وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقتلاه . وختم صلاح الدين فتوحه بمعاهدة عقدها مع سيف الدين غازي والملك الصالح تقضي باستبقاء جميع البلاد التي فتحها تحت سلطته وان لا يكون للملك الصالح دخل فيها

اصلاحات صلاح الدين بمصر

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ ﻫ بعد ان استخلف أخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي الذي تقدم ذكره . فعهد اليه تدبير الاحكام وأمره ان يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد اهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فمهد الطرق واحتفر الترع واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام

الجيزة وغيرها من أبنية المصريين القدماء . وأنشأ طريقاً يمتد طولا على ضفة النيل فيقيها من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة



ش ٦١ : قلعة القاهرة الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلا لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه . وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه وأقام القلعة في مكانه وأتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر أمنع موقعاً من القلعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل وقلعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقة جداً تسع كل ما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا تزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمه فالبئر تدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صلاح الدين الذي أمر باحتفارها . والغالب ان هذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وما بقي من القصر

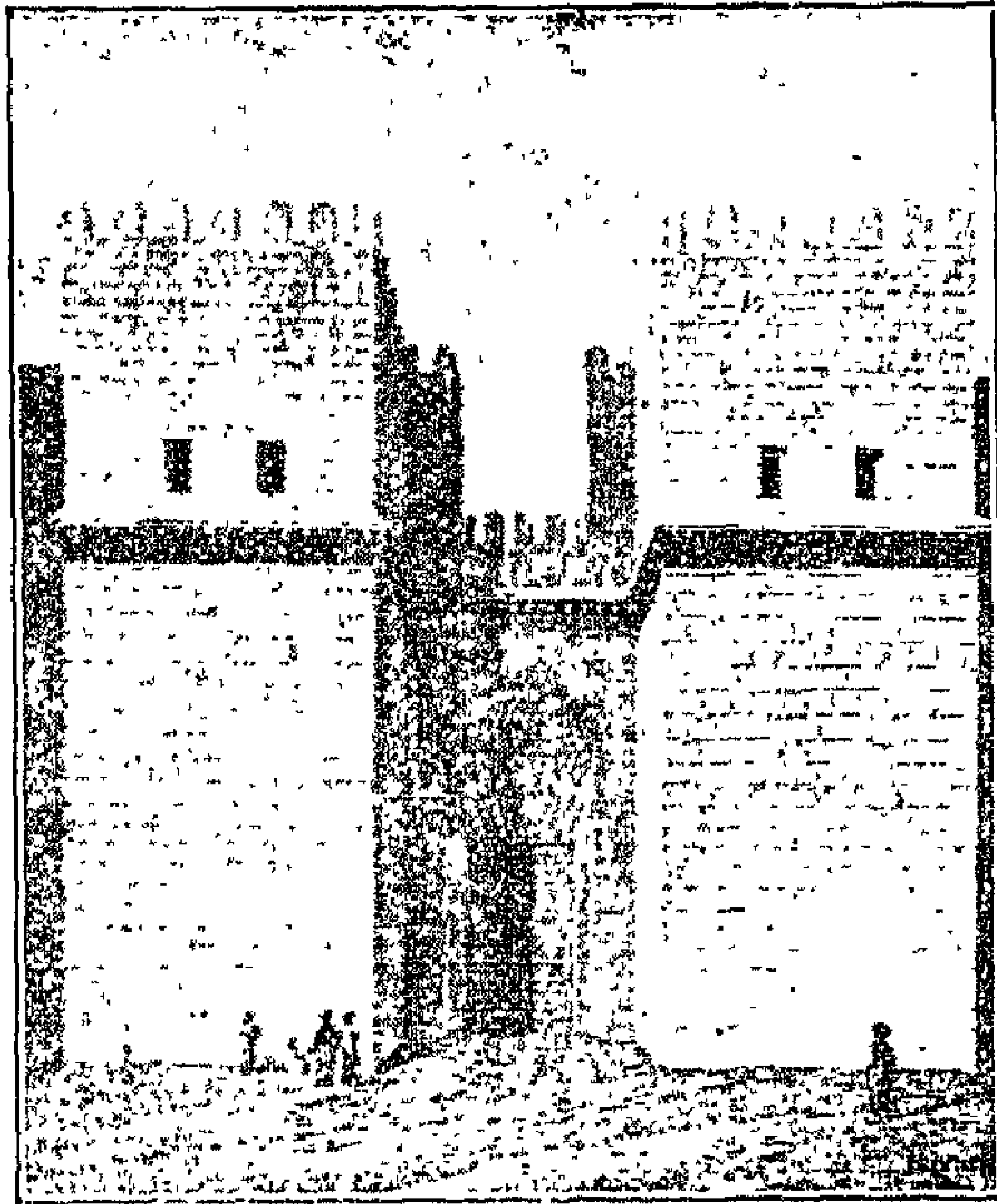
يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين . وابتنى هذا الوزير أيضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف الصديق

سور القاهرة

وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة أخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدأ بعمارته السلطان صلاح الدين سنة٥٦٦ه وهو يومئذ على وزارة العاضد . فلما عهد الى بهاء الدين اعامه عمل له رسما عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينهما من الارض . الا انه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا الى هدم جوامع وبيوت وقبور كثيرة كانت في مكان السور . ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وبعضهم لايزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش أي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يعبرون بهذا الاسم عن الاستبداد والعسف وينسبون اليه احكاماً عجيبة في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الفاشوش في احكام قراقوش وفيه اشياء يبعد وقوع مثلها منه . والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان رجلا مسعوداً وصاحب همة عالية

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بناه بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيه القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر . وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من وجه البركة الى محطة السكة الحديد . وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوّة تحت القلعة والى الآن آثار الجدر ظاهرة للمتأمل فيما هو آخر السور الى جهة القلعة . وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الاذرع الهاشمية

وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلا على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هـ وجعل في مكان ذلك البرج حديقة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس . ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبني بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن



ش ٦٢ : باب النصر كما هو الآن

وفي سنة ٥٧٣ هـ عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين واقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم لما حدث بين رؤسائهم من الانشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ توفي شمس الدولة طوران شاه في ثغر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركويه صاحب حمص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ هـ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح

كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فاراد هذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به أيضاً ان أمراء الموصل تآمروا عليه سراً مع الصليبيين فأسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها والرقة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران ثم أتى فعسكر أمام الموصل ولم يبق غيرها الملك الصالح فحاصرها وبعد أخذ ورد سلمت سنة ٥٨١ ﻫ وأصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في أنحاء سوريا ثم بعث عز الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لأنهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل وسائر البلاد التي أرجعت للاتابك الملك الصالح . وان يعترف صاحب الموصل انه تابع لصلاح الدين وعليه تقديم العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

واقعة حطين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ ﻫ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً مايحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على أتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على أمل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلتهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الا فرقة منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى ان ألجأهم الامر للقتال يأساً فأسرت مقدمتهم وقتل الباقون

وكان في جملة المأسورين الملك جفري وأخوه البرنس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وأمر بتحضير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفري فأمر له بشربة من جلاب ثلج فشربها وكان في غاية الظمأ ثم أعطى البرنس ارباط أخاه فشرب

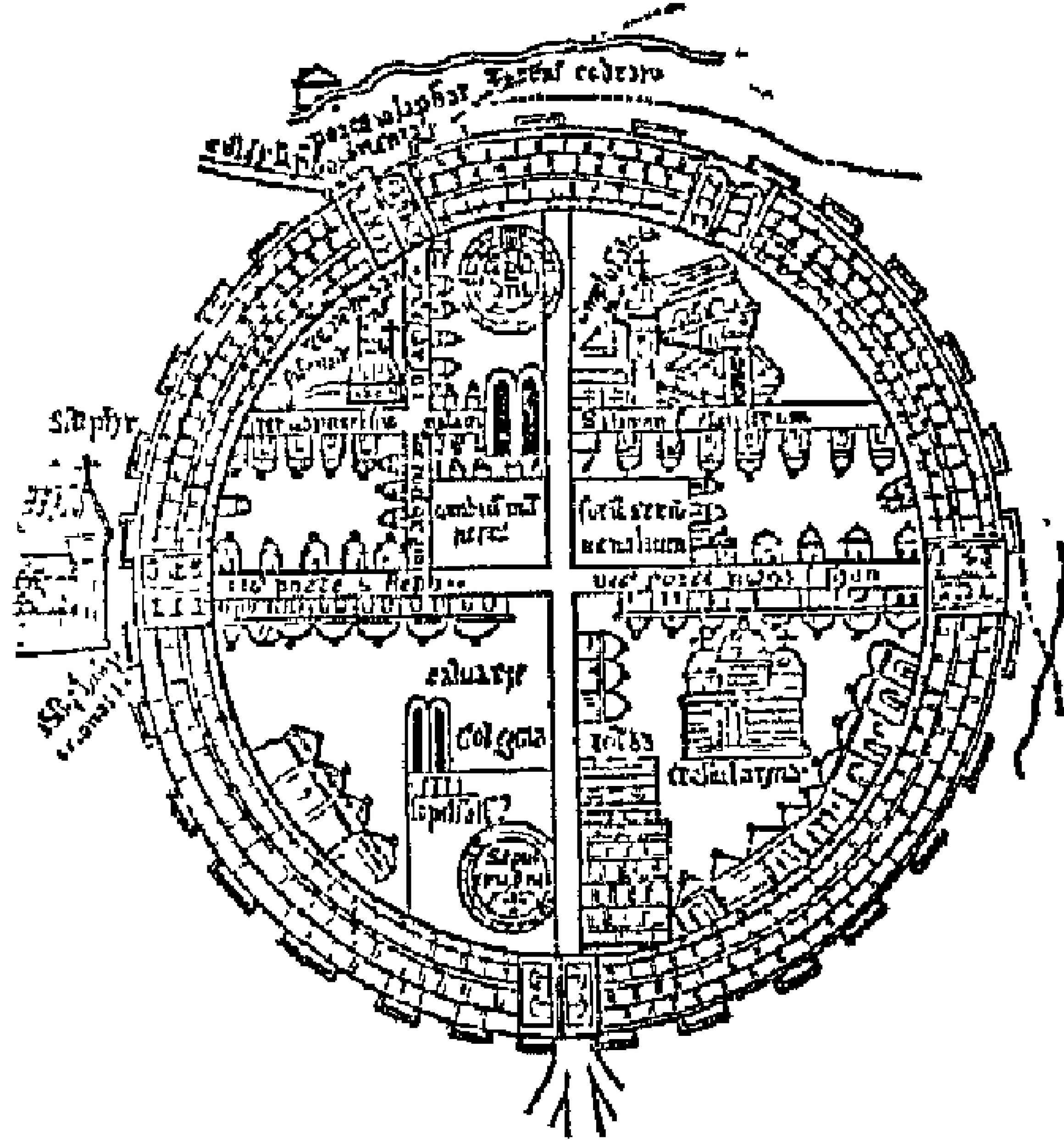
وقال السلطان للترجمان « قل الملك انك أنت الذي سقيته أما أنا فما سقيته » اذ كان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل أو شرب من مال من أسره أمن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري قد أمن أما أخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديه على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سلمية لغير داعٍ فسبق من السلطان قسم انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شربا أرسلهما المائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان فأخذ بيده سيفاً وتقدم



ش ٦٣ : ريكاردس قلب الاسد

الى البرنس ارباط قائلا « ها أنا أنتصر لمحمد » ثم عرض عليه الاسلام فأبى فضربه بالسيف فحل كتافه وتم قتله من حضر ورميت جثته على باب الخيمة . فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال له « لم تجر العادة أن يقتل الملوك الملوك أما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الانبياء » وفي أثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قلعتها ثم رحل طالباً عكا فبلغها يوم الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وأنقذ من كان فيها من اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة . وسار هو يطلب تبنين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعاً ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمة



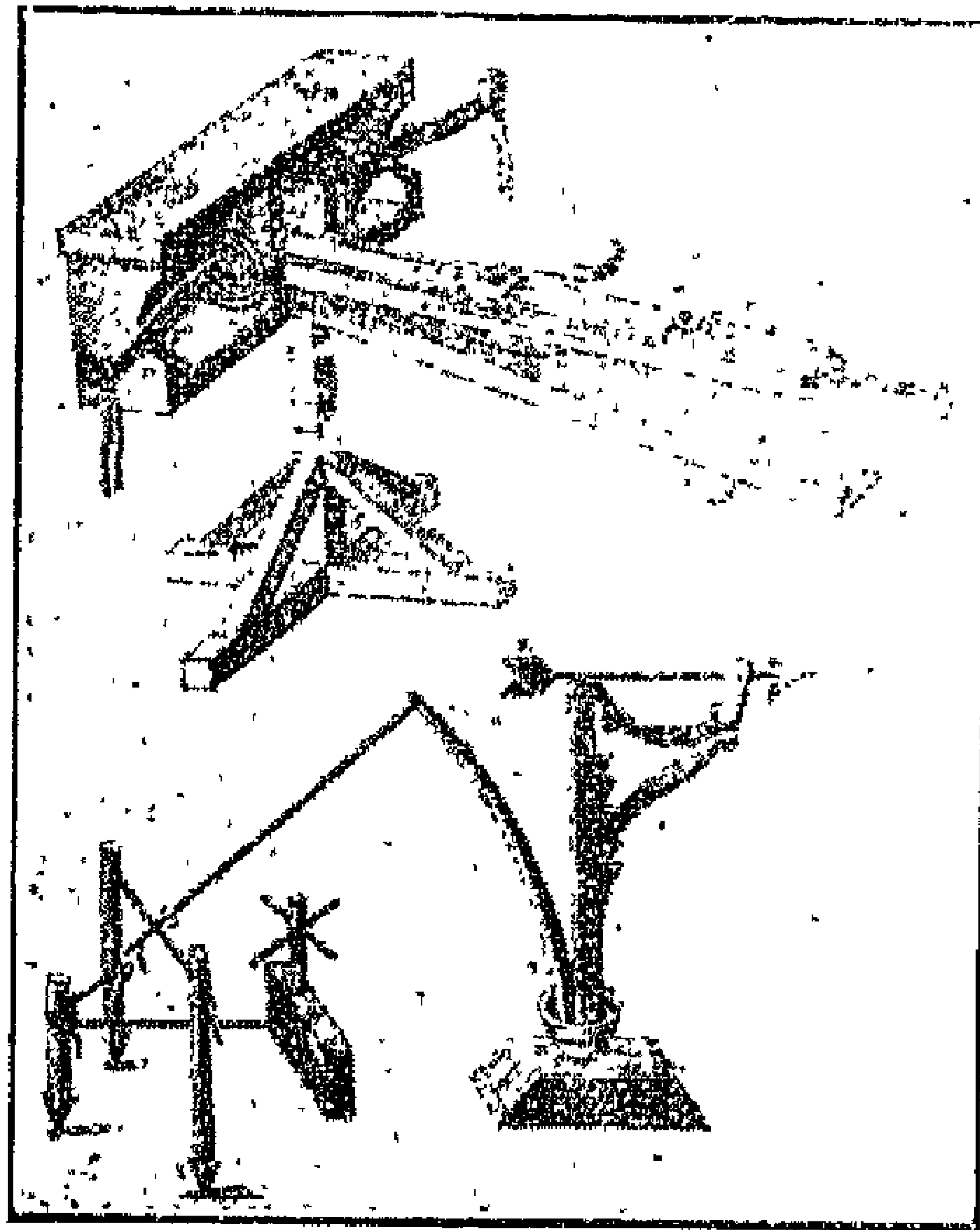
ش ٦٤ : شكل بيت المقدس وأسواره لما حاصره صلاح الدين

فتوحاته جنوباً قاصداً عسقلان فمر على مواضع كثيرة كالرملة والداروم فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتلها قتالا شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

فتح بيت المقدس

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى أتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم . وبه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك . وبه ايضاً من خلص من فرسانهم من حطين .

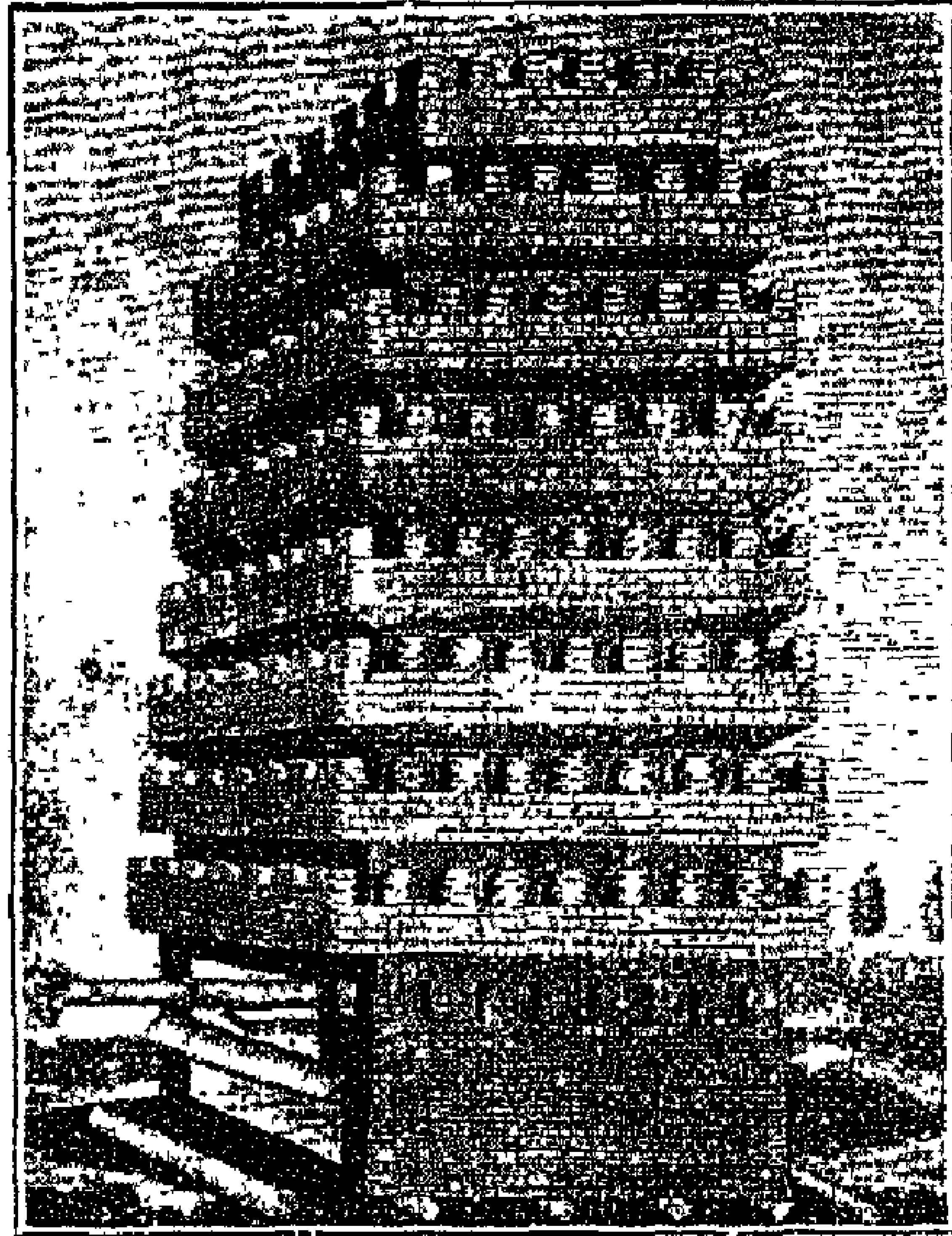
وقد جمعوا وحشدوا . واجتمع أهل تلك النواحي من عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون بيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا . وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والدفاع عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من



ش ٦٥ : منجنيقات لرمي النبال

الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه .وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فأهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب . فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب الصليبيون على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من

الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين . وممن قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد . فازالوا الصليبيين عن مواقفهم فادخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة بحمونهم والمنجنيقات



ش ٦٦ : آلة لنقب الاسوار وهي برج يجر على محادل أو عجل نحو السور . وفي اسفله رجال ينقبون السور بعمود طرفه كرأس الكبش وفي البرج رجال يشغلون حماة السور برمي النبال

توالي الرمي لتكشف الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون . فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال « لا أفعل بكم الا كما

فعلتم باهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها » .
فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه . فلما آيس من ذلك قال له « ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً »

شروط التسليم

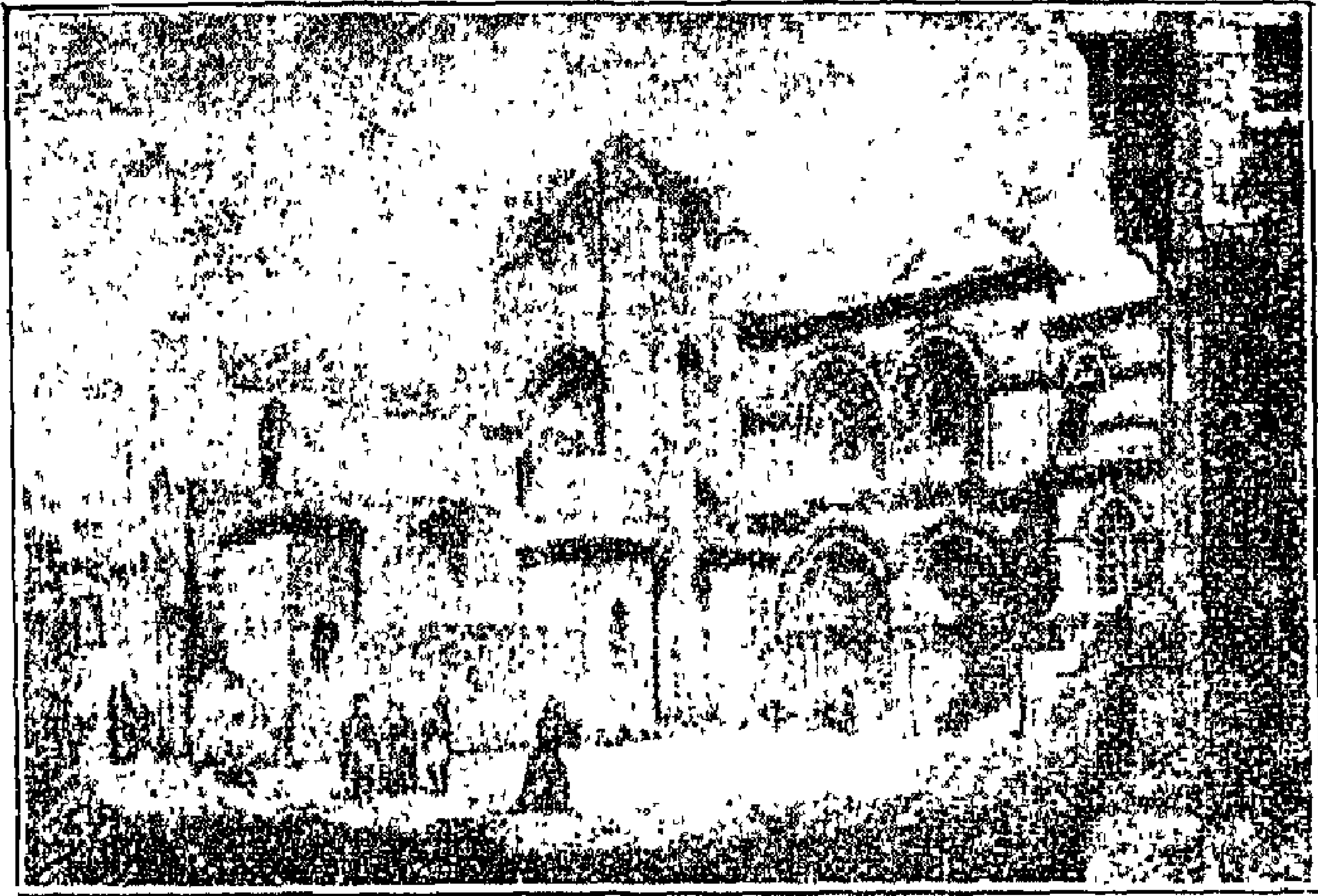
فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن أي شيء تنجلي وقالوا « نحسب انهم أسارى بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك في اربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب . وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوارها ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم . فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه الامانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدي سبا . ولو أديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون الف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من

عسقلان وغيرها والدارون والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس . وكان الانسان لا يقدر أن يمشي . ومن الادلة على كثرة الخلق ان اكثرهم وزن ما استقر من القطيعة . واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل وزن عنهم ثلاثين الف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ويعطي وأخذ أسيراً ستة عشر الف آدمي ما بين رجل وامرأة . ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية أقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ قطيعتهم

وكان جماعة من الامراء يلبسون الصليبيين زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون فيهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل . وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها . واطلق ايضاً ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الصليبيين بسببها وكان يقوم بالملك نيابة عنها . وأطلق مالها وحشمها واستأذنته في المسير الى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فأتته وأقامت عنده

واتته أيضاً امرأة للبرنس ارباط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده في حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين « ان سلمت الكرك أطلقته » فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها . وخرج البطريرك الكبير الذي للصليبيين ومعه من أموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله . وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال « لا اغدر به » ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور . وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمين البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والصليبيون أما المسلمون فكبروا وأما الصليبيون فصاحوا تفجعاً وتوجعاً فسمع الناس صيحة كادت الارض ان تميد بهم لعظمها وشدتها

فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هري ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في أبنيتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً واماماً برسم الصلوات الخمس وأمر ان يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في



ش ٦٧ : كنيسة القيامة بالقدس عند فتحها

تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس » فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول السنين . فشرعوا في عمارته ومحوا ما كان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر

للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها . وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة وجعله في مذبحها . فخاف ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وأدرّ عليهم الوظائف الكثيرة

وأما الافرنج من أهل بيت المقدس فانهم شرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بارخص الثمن . فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الصليبيين فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ ويأخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك . فاستقروا فاشتروا حينئذ من اموال الصليبيين وترك الصليبيون أيضاً اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا ايضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا

تهاني الشعراء بالفتح

وكانت ليلة المعراج وكان يوم فخر لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما أتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني . وممن انشد في هذا الشأن عبد الرحمن بن بدر النابلسي فقال قصيدة منها

هذا الذي كانت الايام تنتظر	فليوف لله اقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخبار ولا سيرُ
الان قرت جنوب في مضاجعها	ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يا بهجة القدس اذ اضحى به علم ال	اسلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهدها فما احد	سواك من قائم المهد ينتظر
ما اخضرّ هذا الطراز الساحلي ثمراً	الا لتعلو به اعلامك الصفر
اضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة	فيها لاعدائك الآيات والنذر

صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة على الورى يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
ولا اصرح باسماء البلاد فقد اسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجمال قولي عن مفصله في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

فتح سائر سوريا

وبعد فتح بيت المقدس سار صلاح الدين لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحضار آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها براً واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بحراً ثم ارسل من حاصر هونين فسلمت . اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين فاسروا منه خمس قطع وقتلوا كثيراً من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الامطار . واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال فساروا وحملوا من آلات القتال ما أمكن واحرقوا ما بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان منيعاً فاخذوه بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة أيام . ثم بلغه ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصداً اتمام فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاول سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليه رجال من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين ابن زين الدين ففتح ترسوس ثم صار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى فاخذها في يوم واحد الا قلعتيها على أنهما اضطرتا أخيراً للتسليم . ثم رحل من اللاذقية الى صهيون فنزل عليها في ٢ جمادى الاخرة فصالحه أهلها على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين . ثم سير من رجاله من استولى على عدة قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعة . ثم رحل عنها وأتى بكاس وهي قلعة حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذ الى قلعة برزنة الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصلح فصالحهم ثم توجه الى حلب في ضيافة ابنه الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيه فبات في حماه ليلة واحدة ثم سار على طريق بعلبك ودخل دمشق . وسار في أوائل رمضان يريد صفد فحاربها واستولى عليها بالامان . وفي هذا الشهر سلمت الكرك أيضاً

ثم نزل في الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيه لانه كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨ ذي الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منه ينظر في امورها فأخذها من اخيه العادل وعوضه عنها الكرك . ثم مر على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر وأقام بها الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اربون وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع أول . وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر تتواصل اليه فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسه وطلب الامان ووعد انه يسلم المكان بشرط ان يعطى له موضع يسكنه في دمشق . لانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الصليبيين واقطاع تقوم به وبأهله وشروطاً غير هذه . فأجابه الى ما طلب وفي أثناء ذلك وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد أقام عليها اناساً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفد زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فسيره مهاناً الى دمشق . ثم ظهر له ان الصليبيين قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٣ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالا ونزل فيها بغتة ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجدات من الانحاء وكان عند الصليبيين نحو الفي فارس و٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم وأحاطوا بعكا وحاصروها في آخر رجب فضاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستمر السابلة بالنجدة فتمكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينه وبين الصليبيين مناوشات في عدة ايام . ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا . وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طمان

وما زالت الحال كذلك والصليبيون يتشددون بما كان يأتيهم من المدد بحراً

الى ان قووا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليه جداً . ثم بلغه ان الصليبيين سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فاتى السلطان الرملة وتشاور وذوي شوراه في أمر عسقلان وهل الصواب اخرابها أم بقاؤها فاتفقت آراؤهم ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسه لاخرابها خوفاً من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع باخرابها بكل نشاط رغم ارادته لانه قال « لأن افقد ولدي جميعهم أحب اليَّ من ان أهدم منها حجراً ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة » وهاجر أهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرها حزانى تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواشيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الاخراب قائماً أتى من الملك العادل ان الصليبيين تحدثوا معه بأمر الصلح طالبين جميع البلاد الساحلية . فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضجر الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليه يأذنه في ذلك وفوض الامر الى رأيه وأصر على حريق عسقلان ففوض ذلك الى أحد أولاده الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد وأشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قلعة منيعة فأمر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخابرات يطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن أحب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور . وكان يوماً مشهوداً سرت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد أحوالها . وسار اخوه الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية . وكان في عزمه السفر للحج لكنه لم يستطع

ولما سار ملك الصليبيين الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها أولاده الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشمر وأولاده الصغار . وكان يحب تلك المدينة ويؤثر لاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد

الفراتية . فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام . وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمه الى مصر وعرضت له امور اخرى غير ما تقدم

وفاة صلاح الدين ومناقبه

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيته حمى صفراوية . ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلا وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و ١٩ سنة في سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان متمرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجدوا في جميع صناديقه أثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة . وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالا كثيرة جاد بها على آله وذويه

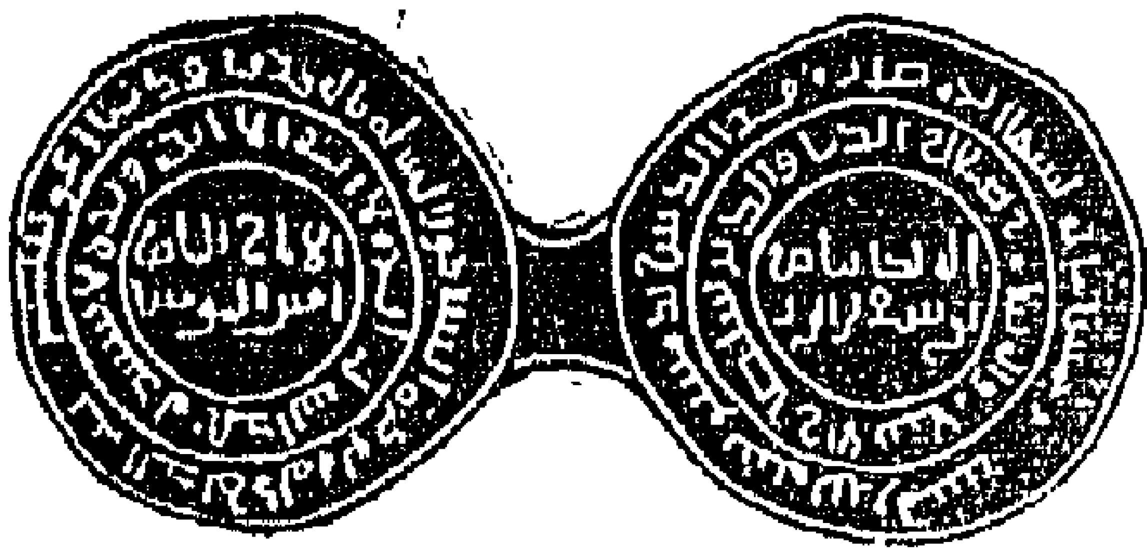
ومن آثاره في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد أعيدت الى مصر في أثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس . فلما تولى السلطان صلاح الدين أمر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تبلغ مائة الف دينار سنوياً الا انها كانت مضروبة على جميع أنواع الاطعمة والالبسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها . وعلى الحوانيت والاخشاب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقمشة الى غير ذلك . جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فسامحهم بما كان عليهم . وكان بالغاً قدراً عظيما جداً من الدنانير والغلال

وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والصليبيين اباح لهم ان يستوطنوا

مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لمبيع الادوات الافرنجية . ثم أخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو الآن

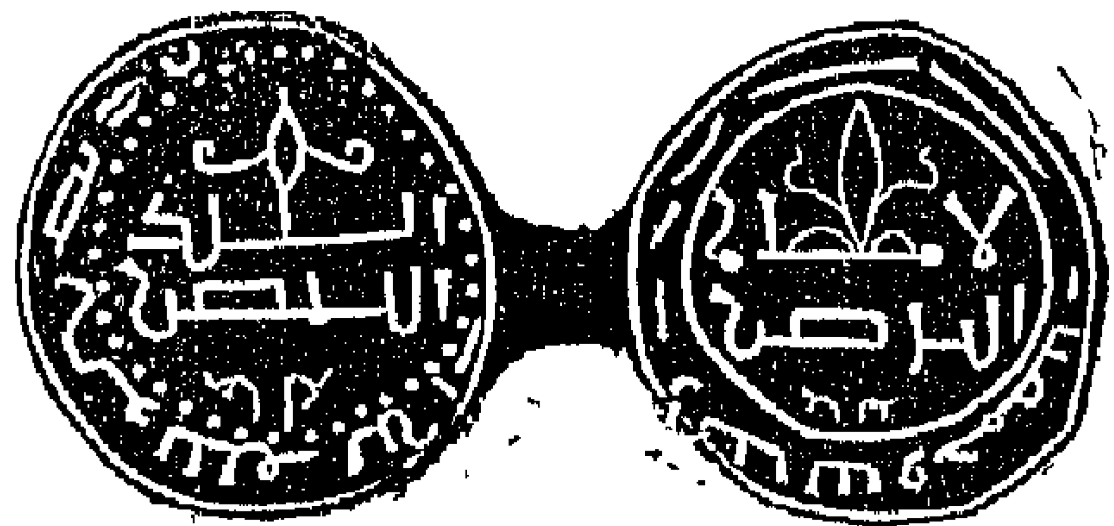
وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . وانثى واحدة اسمها مؤنسة خانون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل . فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده أخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية . أما ما بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد أقطعهم اياها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر الملقب بالملك العادل بن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكما في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر أبيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة . وكان اخوه توغتغن حاكما فيها تحت اسم الملك المعز



ش ٦٨ : نقود صلاح الدين
« ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ »

وترى في الاشكال ٦٨ و٦٩ و ٧٠ صور النقود التي ضربت في ايام السلطان صلاح الدين على احد وجهيها اسمه وعلى الوجه



ش ٦٩ : نقود صلاح الدين « ضربت سنة ٥٨٤ »

الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي لذلك العهد . فالصورة الاولى نقود ذهبية ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نقود نحاسية ضربت سنة ٥٨٤هـ . والثالثة مثل ذلك



ش ٧٠ : نقود صلاح الدين

سلطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ ـ ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة للانتقام منه لقهره اياهم . فلما لم يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاتحد الايوبيون في بادىء الرأي دفعاً لمناهضيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انقياداً للمطامع واصغاءً لذوي المفاسد فاصبحوا بما بينهم في شاغل عن دفع مهاجميهم

ففي سنة ٥٩٢ هـ رأى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلا ذلك بسهولة . ففرّ الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان كلاهما شاعراً ماجداً . فكتب الافضل الى الامام الناصر :

مولاي ان ابا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده عليهما فاستقام الامر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته والامر بينهما والنصّ فيه جلي

فاجابه الامام الناصر بقوله :

وافى كتابك يا بن يوسف معلناً بالود يخبر ان اصلك طاهرُ
غصبا عليّاً حقه اذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصرُ
فابشر فان غداً عليه حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصرُ

الا ان الملك العادل لم يلبث ان بكّته ضميره فاعاد الملك الى ابن أخيه الافضل وتنازل أيضاً عن حصته الاصلية . الا أن العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ وكان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسناً الى الناس يقرب أرباب الخير والصلاح . ولكنه كان ضعيف الرأي سهل الانقياد قليل التروي . وكان له عشراء من ذوي الخفة فاشاروا عليه يوماً أن يهدم اهرام الجيزة . فامر بهدمها حالا وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو أقلها متانة ويعرف بالهرم الاحمر . قال عبد اللطيف البغدادي وقد زار مصر على أثر ذلك « وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت لو بذل لكم ألف دينار على ان تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فاقسم بالله انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه » وقد شوّهوا وجه الهرم تشويهاً ولم يهدموا منه الا قسما صغيراً جعل في الهرم خرقاً لا يزال ظاهراً فيه

ثم ارتأى الملك العزيز مشروعاً آخر جاء بنتيجة أقبح من تلك . وذلك ان أيام الفيضان في مصر وخصوصاً في القاهرة تعدُّ من ايام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولا سيما خليج مصر فانه يجري مخترقاً المدينة . فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للنزهة في مجاري المياه ليلا ونهاراً يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العادة فلم يقدر لان الناس أبوا الا التمتع بما وهبتهم الطبيعة من أسباب السرور . فامر الملك العزيز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعاً كلياً واستخدم لتنفيذ أمره هذا طرقاً خشنة . فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان . ثم عاجلت المنية الملك العزيز فقطعت جهيزة قول كل خطيب

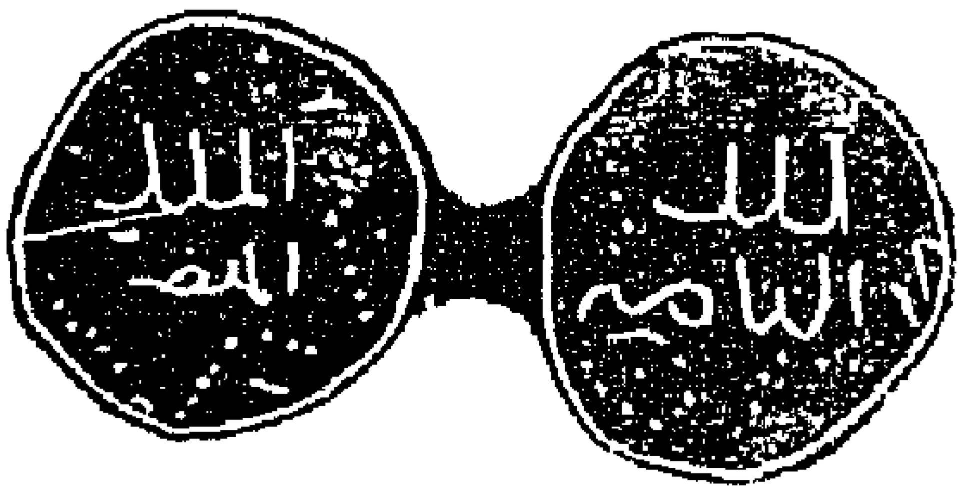
ومما أتاه الملك العزيز في سلطنته من المظالم انه أعاد اليها المكوس الظالمة التي كان قد الغاها أبوه وزاد في شناعتها وزادت في أيامه المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر وأباحه اولو الامر والنهي . وتفاحش الامر فيه الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصره . وأقيمت في حارة المحمودية مطحنة لطحن الحشيش المزر وافردت برسمه وحميت بيوت المزر واقيمت عليها الضرائب الكثيرة . فمنها ما انتهى أمره في كل يوم الى ١٦ ديناراً . وحملت أواني الخمور على رؤوس

الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الحبوب لوقوف زيادة النيل جزاء لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما يأ كلون . وكثر ضجيجهم وشكواهم فحمل الملك العزيز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتيات عائلته . وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة . الى ان جاءت المنية منصفة المظلوم من الظالم وسبب موته انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقنطر به فأصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

سلطنة الملك المنصور بن العزيز

من ٥٩٥ — ٥٩٦ هـ أو من ١١٩٨ — ١٢٠٠ م

وخلف العزيز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور . ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودي به اتابكا أي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بناء على أنه جد الصبي الحاكم وعم وصيه . فحاول الافضل مقاومته فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له



ش ٧١ : نقود المنصور بن العزيز

وترى في الشكل ٧١ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزيز.

سلطنة الملك العادل بن أيوب

من ٥٩٦ — ٦١٥ هـ أو من ١٢٠٠ — ١٢١٨ م

ولما خلا الجو للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم ابن أخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح

الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

مجاعة سنة ٥٩٧ ه

وفي السنة التالية حدثت بمصر المجاعة الشهيرة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي في رحلته فقال « وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم. فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد احضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما أبواه فامر باحراقهما

« ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم — ومثل هذا اعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح . وحين ما نشم الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون اخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لامره وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

« ولقد رأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذكر ذلك أو ينكره فعاد تعجبي منهم أشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه . ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه

« وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اغتنمت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه

نيئاً . وحكى لي عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتناص اولادهن ويحامين عنهم بجهدهن

« ورأيت مع امرأة فطيما لحيا فاستحسنته وأوصيتها بحفظه فحكت لي انها بينا تمشي على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فارس وطرده عنها وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله وان الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه المرأة والمفترس

« وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين في جميع اقطار البلاد وأزقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

« وا كثر ماكان يطلع من ذلك مع النساء وما اظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر انها أكلت جماعة فرأيت امرأة قداحضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي فضربت أ كثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جواباً بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت » اه .

عود الصليبيين الى الحرب

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك الصالح ابنه أبا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم أضيفت اليه حران وكان الاشرف رجلا محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصلت بينه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له

وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنموا الفرصة لاعادة سلطتهم فا كثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين فخارهم فعادوا على اعقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحواً من شهر فجاءه مخبر يخبره بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين . وهذه هي الزلزلة التي هدمت أسوار صور سنة ٦٠٠ هـ وكانت تهدد مصر زلزلة أخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة

احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع لملافاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين

فاجلى الصليبيون عن مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش المدافعة عن حماه فحصلت بينه وبينهم مواقع كثيرة . وبينما هم في ذلك جاء الخبر بقدوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقيم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقطع الصليبيون المخابرات مع مصر حتى جاؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعنتها الى مصر

حصار دمياط

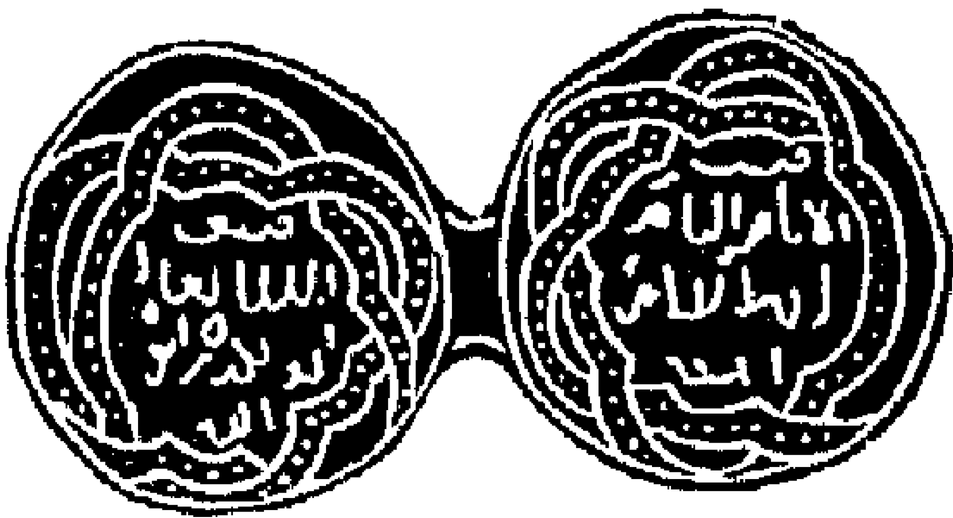
فجاؤا اليها بحراً وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ ﻫ وهم نحو ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وأنزلوا اليه اقوى رجالهم وأحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا من البرج والسور وأخذوا برمي السهام والحراب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين فلعبت

النار به فخاف الذين فيه ثم انطفأت حالا وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين وطمعوا بالاستيلاء على دمياط

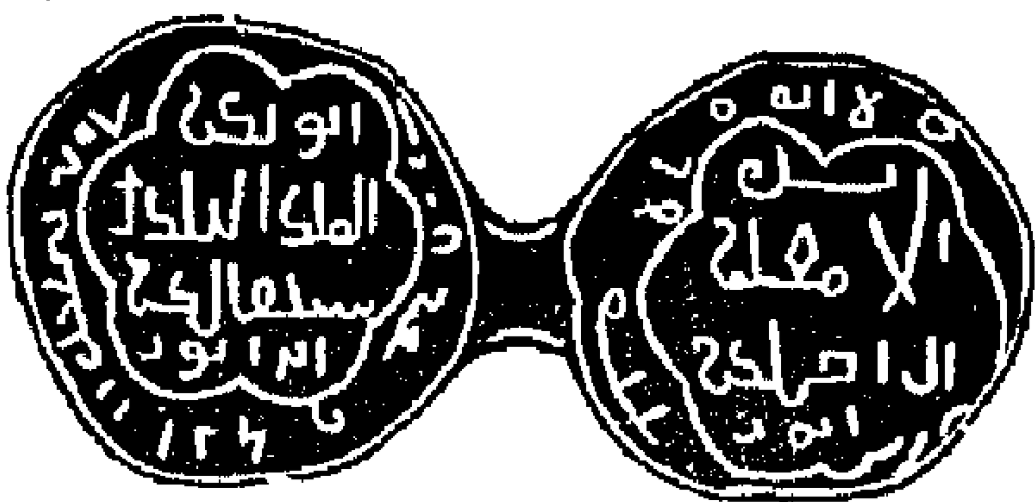


ش ٧٢ : دخول الصليبيين برج المسلمين عنوة

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الصليبيين وأمر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لتمنع الصليبيين من السور والقتال مستمر اربعة اشهر والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عنده واشتد خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل من مرج الصفر الى عالفين فنزل به المرض ومات في جمادى الاخرة فكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به الى قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات فاعلن موته



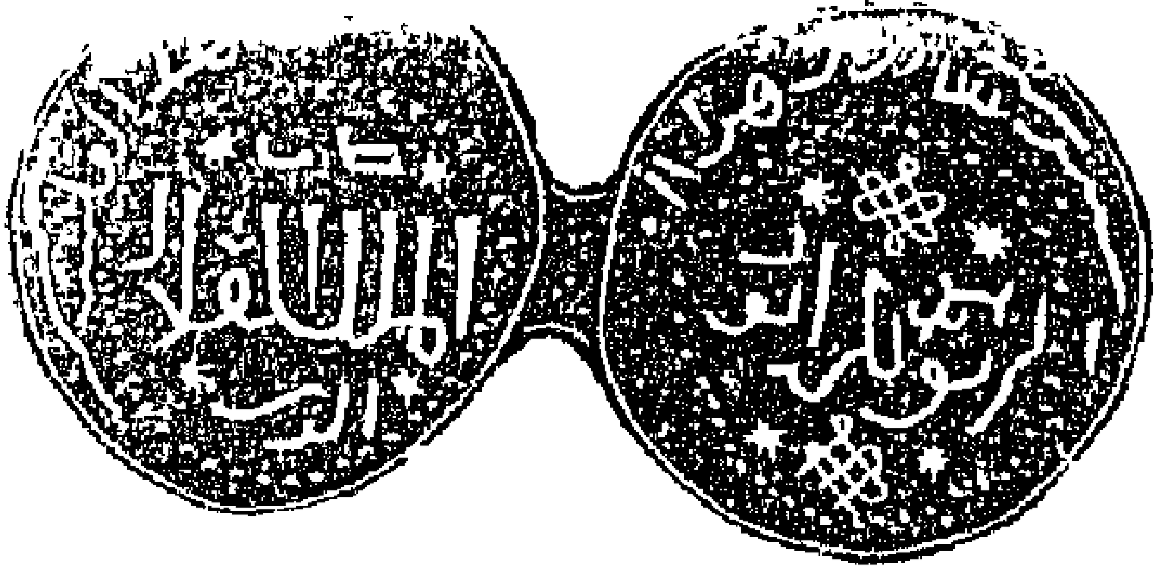
ش٧٣ : نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



ش٧٤: نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٧٣ و٧٤ و٧٥ صور النقود التي ضربت في عهد الملك العادل بن ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله من الجهة الاخرى والثالثة لا يظهر عليها الا اسم الملك العادل فقط



ش ٧٥ : نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

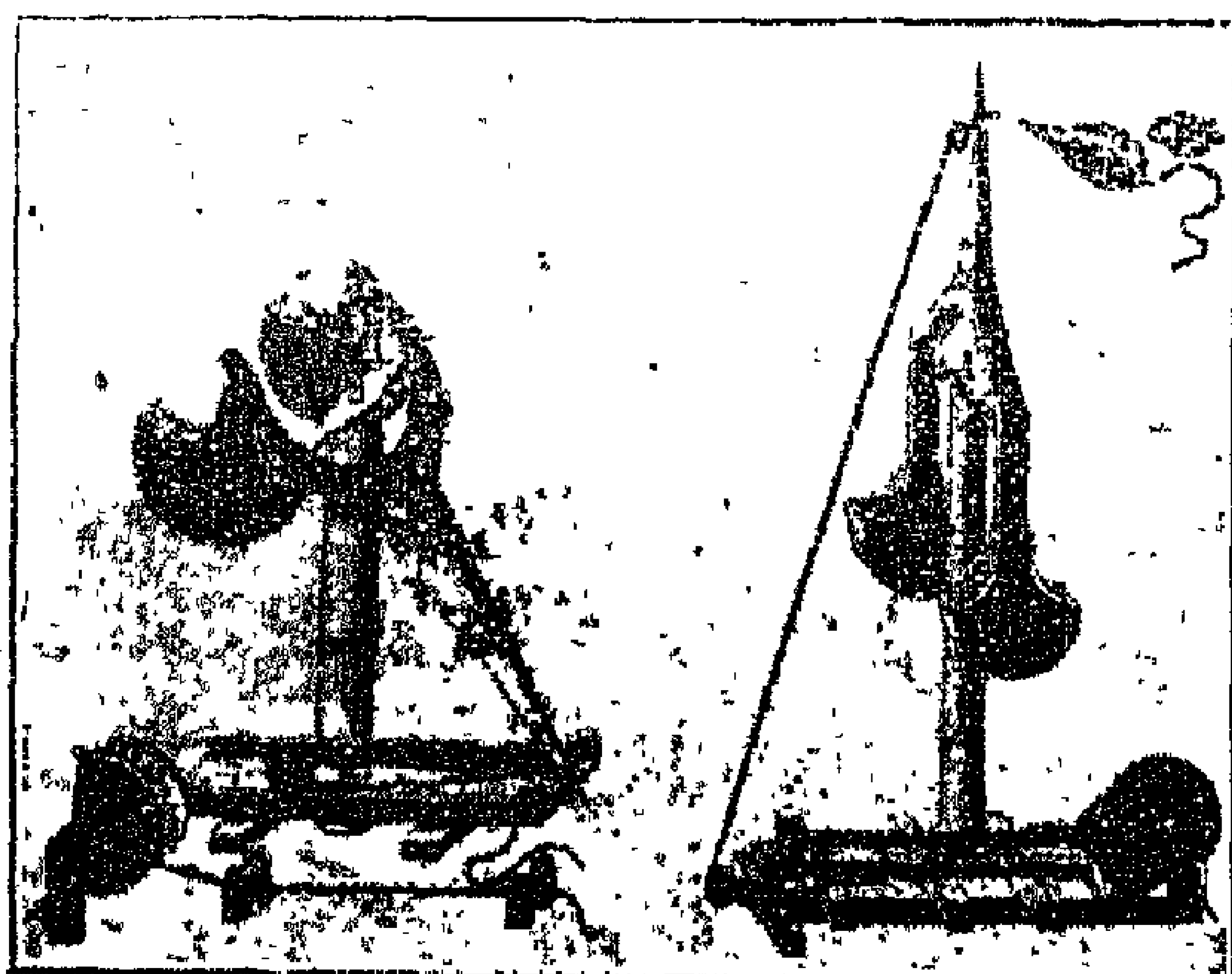
من سنة ٦١٥ – ٦٣٥ هـ او من ١٢١٨ – ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عندما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالا شديداً الى ان قطعوه وكان قد أنفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار

وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكايدة الاعداء فامر أن تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من سلوكهم فيه فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى بؤرة على ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا في البورة قاتلوه في الماء وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل . ولم يتغير على اهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر . وكانت العربان تتخطف الصليبيين في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً ويأخذون الخيم بمن فيها . فكمن لهم الصليبيون عدة كمناء وقتلوا منهم خلقاً

كثيراً فكفوا عن ذلك . ثم أدرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين وأغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم وألح الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون . كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ينادي باخوته مدداً ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من مجيب

وفي أثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجاله على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد ابيه وكان ذلك باتفاق مع اخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة واوجس خيفة على مركزه ولم يرَ من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشمون نطاح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يقفوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم



ش ٧٦ : منجنيقات لرمي الحجارة في الحرب كما ترمى القنابل بالمدافع اليوم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوه من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وحاصروا دمياط وأهلها يرمونهم عن اسوارها بالنبال وهم يرمون اسوارها بالحجارة الضخمة من المجانيق . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهمّ عظيم وكاد أن يفارق البلاد لانه لم يعد يثق بنفسه ولا بمن حوله

اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها الحصار برّاً وبحراً

وكانت سنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً . وهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل وكان قد تولى دمشق بعد ابيه العادل فلما علم بما حصل لجيوش ابيه بعد وفاته اتى في عدة من رجال الشام فاطلعه الكامل على صورة الحال سرًّا واسرَّ اليه ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب . فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له « اريد ان اتحدث معك سرًّا في خلوة » وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم « اتبعونا » ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى أبعده عن المعسكر ثم قال له « يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا » ثم أعطاه شيئاً من النفقة وقال لاولئك المجردين « تسلموه حتى تخرجوه من الرمل » فلم يسعه الا امتثال الامر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال . ثم عاد المعظم الى اخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى . ثم جهز اخاه الفائز المذكور الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاخراجه من البلاد . فلما خرج هذان الشخصان من العسكر انحلت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيته . ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان عدوا بدهم الى اورشليم فتقوى سلطتهم فامر بهدم أسوارها حتى اذا امتلكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار . هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سوراً . واهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات . والملك الكامل كان لا يزال في اشمون ينظر الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها . وخشي أخيراً ان ييأس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجاندارية المدعو شمائل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ . فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى أهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمئنهم ويعود . وبقي على ذلك مدة فحظي عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة . وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس

فهدمها المسلمون لئلا يباغت الصليبيون الاسكندرية من اجلها فيتخذونها حصناً لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة . وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري

فتح الصليبيين دمياط

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما يفوق الحد فبلغت البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحيل مختلفة مثل ان يأتوا بجمل ويشقوا جوفه ويملأوه فراخاً وفاكهة وبقلا وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدراً مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه وأخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج أحياناً يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . فدخلوها واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

مدينة المنصورة

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط ليمنع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بحراً وحيز في محلة المنزلة وأقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون وبعثوا جميع من أسروا من المسلمين الى عكا بحراً . أما الملك الكامل فأخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين « المنصورة » اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين

أما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الان وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف فارس . فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة. فاصبح المسلمون في ضيق فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اسوان الى القاهرة . ونودي بالنفير العام أيضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شار مساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر

وفي اثناء ذلك أتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى . فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الآخرة . وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر وأخذوا منهم ست شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما أصبحتا ملكا خاصاً له نالهما بالارث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري

فأصرّ الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سراً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الارضين التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فأصبحوا على مثل الجزيرة. وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فأمر السلطان بنصب الجسور عند أشمون طناح فعبرت العساكر عليها

وملكت تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضاقت عليهم الارض

السحاب الصليبيين من دمياط

واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فاتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبوا لذلك مقابلا فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ ﻫ بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً وأعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد أجهدوا أنفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الصليبيون مكانهم أرسلوا الملك الصالح ومن معه الى أبيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم

ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصره فيها وبين يديه أخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من أهله وخواصه وهم في سرور واحتفال وبين أيديهم المغنون فامر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه ... وجاء الى مصر ليفسد في الارض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا ... فاغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري . فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها وقال لجاريته غني انت . فاخذت العود وغنت :

أيا اهل دين الكفر قوموا لتنظروا ... لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه ... وموسى جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة اولها (ابى الوجد الا ان ابيت مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بجائزة

ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة . وكان من جملة الجلساء وقال :

هنيئاً فان السعد جاء مخلدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحاً لنا بدا مبيناً وانعاماً وعزاً مؤبدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه واصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الطغاة واضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلا كما سلّ الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعبّاد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن الليالي التي مرت للملك من الملوك . ثم عاد السلطان الى مقر ملكه في القاهرة . وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلا للخلفاء وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى . وكان منهم من له من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان اقلعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر أخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم يعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتنماً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه اللذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فأغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال بأخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه . فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرهما مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالا في جيش كبير ولكن بدلا من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

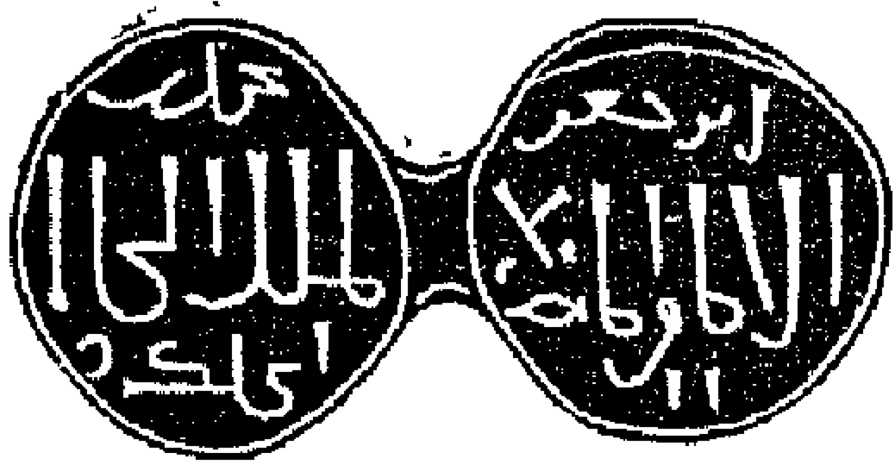
أما فريدريك فسار تواً من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح أولا صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخاصما انتهى بموت الملك الاشرف . فخلا الجو للملك الكامل وأصبح الوارث لكلا الملكين فأتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥ هـ ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة

والافتخار متمسكاً بالسنة النبوية محباً للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في اموره لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم . تولى سلطنة مصر وخفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة



ش ٧٧ : نقود الملك الكامل وعليها اسم المستنصر

ونرى في الشكلين ٧٧ و٧٨ صور النقود التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى الآخر اسم الامام المستنصر بالله الخليفة السادس والثلاثين من بني العباس . فالاولى نقود ذهبية ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ ﻫ والثانية نحاسية ضربت في حلب -



ش : ٧٨ نقود الملك الكامل

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ - ٦٣٧ ﻫ او من ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا لابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عندما سار الى سوريا . واقاموا الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه لم تطل لانه اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فاتى الملك الصالح الى سوريا وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بلبيس ليوقف سير اخيه اذا حاول المجيء الى مصر . فلما وصل بلبيس نزل فيها وما أصبح الا وهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ ﻫ وفي الحال خلعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مالئة الجو فانتهت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين

سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ او من ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فامر في السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع اخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارته وحظر عليه القدوم الى مصر فاغتاظ لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوه من اجل ثروته راجين التقرب بواسطته من اسماعيل امير دمشق . وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم . ولما تم التحالف المذكور احتل الصليبيون تلك الاماكن وأخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم أخذوا يهتمون بمحاربة مصر

وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيز خان من شرقي آسيا في أثناء فتوحه هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلا عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الصليبيين عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية فانهزم الصليبيون فتتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرها وحارب محاربات أخرى شغلته من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشفت عن خضوع دمشق . اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسه لقيادة جندها ففاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مأبضه تكوّن منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكان بهؤلاء الافرنج قد خجلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش المسلمين بعد أن جردوا اليهم اولا وثانياً وثالثاً

ورابعاً وخامساً وسادساً فاقروا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة برأسها ملك فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها انتخبوهم من أشد رجال اوربا

فلما علم الملك الصالح بقدوم الصليبيين وهو في ما تقدم من المرض لم يسعه الا الخروج من دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧ هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ما جرى في أيام أبيه . وأعدّ أسطولا من دار الصناعة بمصر وجعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد بقيادة حامية هذه المدينة الى الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك أمين الامة المحمدية . وغير خاف عليك ان عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وأدخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في أعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة اليّ . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها

المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على أناملك بالندم ولا بد ان تزل بك القدم في يوم اوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على اول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام »

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض أمراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير فخر الدين لغير داع فتبعته بنو كنانة وخرجوا من المدينة فتبعهم الاهلون في الليل على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بامان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لا تعوض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد أن رأينا الامير فخر الدين فاراً ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعش بعد ذلك كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وسنه اربعون سنة . وكان رجلا مهيباً قليل التكلم يهابه من يجلس في مجلسه . وكان عنده عدد من المماليك لم يسبقه اليه احد قبله ولم يوص قبل موته بمن يأخذ السلطان بعده ولم يكن له من البنين الا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير فخر الدين

اتابكا لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هـذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بختم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عندما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في أثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فاتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فاتته الاخبار بهجوم الصليبيين على المحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد أعيا الفريقين التعب ولم يكن أحدهما يجسر على تجديد القتال اعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي أثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركباً . فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على أن يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفذ زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم وأثخنوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفاً واسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل أن قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز المصريين شهروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم

طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالا لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده أزمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالا ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان أشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جملتهم مملوك يدعى بيبرس . ففر الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد أقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فالقى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ ﻫ أو من ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ أمرهم في السلطنة

قد تقدم الكلام عن أصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتصم عند كلامنا عن مبدأ الدولة الطولونية . أما السلاطين المماليك فلهم تاريخ آخر في منشئهم وذلك أنهم من قفجاق من شمالي اسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيزخان اخرجوا منها سكان الولايات القزوينية والقوقاسية فتشتت قبائلهم وتفرقوا في القارة . فالخوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك ، أما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقراً يقيمون فيه . فجعلوا يطوفون البلاد بأولادهم ونسائهم لا يستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتنم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من أبناء اولئك المساكين أجملهم صورة وأقواهم بنية وأنورهم عقلا ويبيعونهم بيع السلع . أما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يذبحونهم فأكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقاء البيض ودعوهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى انه لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتصم العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

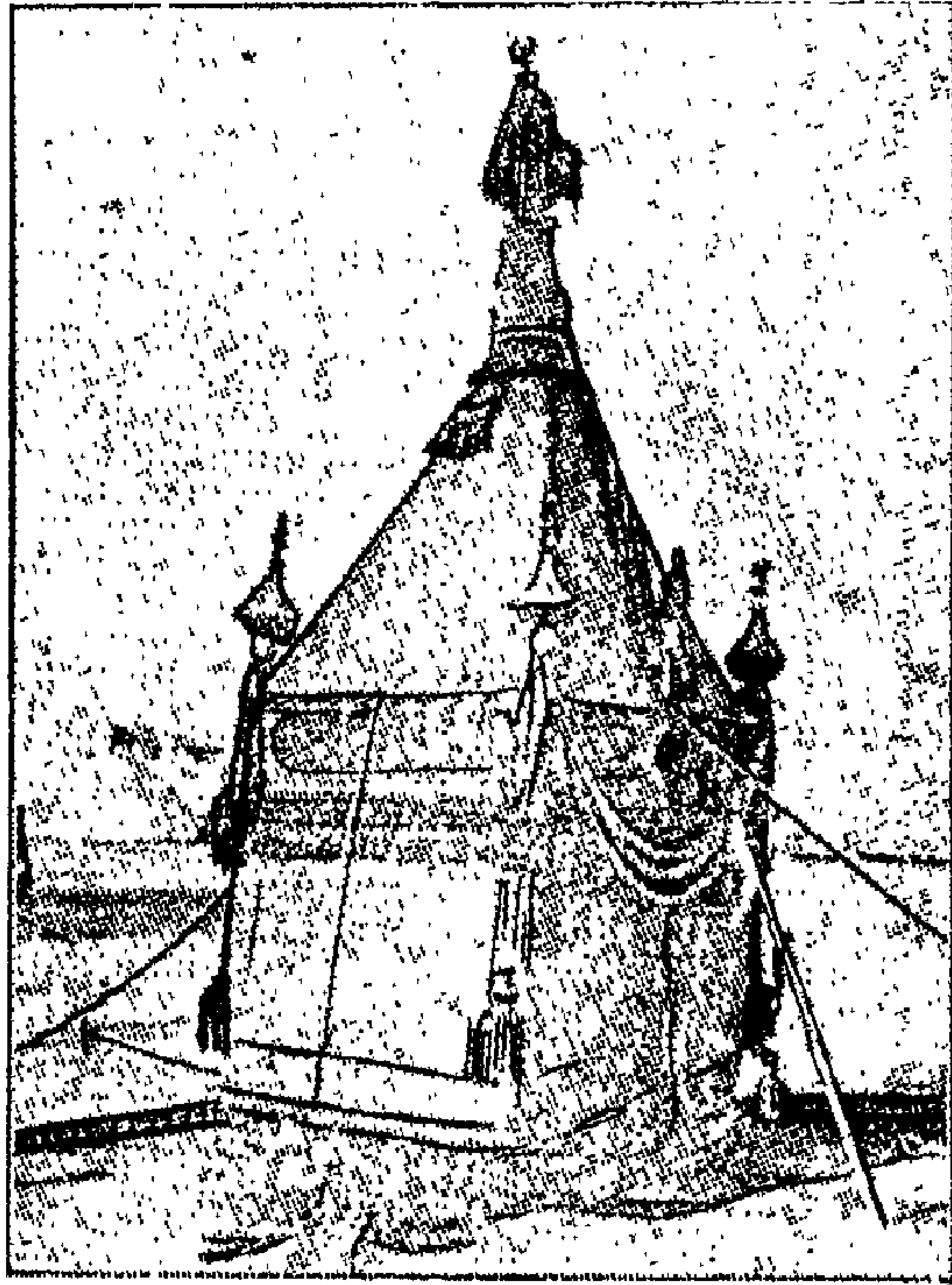
وكانت مماليك الملك الصالح صفوفاً يميز كل منهم بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم واسلحتهم . فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور . وكانوا يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنه قلاقل في سائر المملكة المصرية . وقد كانوا بالواقع ميالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعدد وكانت أهم المناصب في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقراً لهم حتى اذا ضاقت ذرعاً عن الاحاطة بهم ابتنوا بأمر الملك الصالح قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعي مناعة وجمالا لان النيل يتفرع هناك الى فرعين . وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه فسمي هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها من دولة المماليك الشراكسة

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولي الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ايوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد أنفت نفوسهم من اعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم وكان الملك لويس التاسع والذين معه لا يزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما لعبت النار بالبرج فر الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم وأقلعوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملا قلب الملك المعظم واعطاه الملك لويس وطلب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا اراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طلبوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

سلطنة شجرة الدر

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدر بعد ان رأت ماحل بالملك المعظم وتبصرت في أمر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك أعز جانباً من الجميع . ونظراً لانها من أبناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل



ش ٧٩ : المحمل المصري

في الاسلام ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ايبك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ أيام الملك الصالح . ويقال أنه من قتلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر . وكانت توقع بما مثاله « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة

الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » وعينت عز الدين اتابكا عندها لتدبير المملكة. ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفض الضرائب . الا ان جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع أول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل أهل بعلبك وشميمس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى وقائع حربية . فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقته وألجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . وهي اول من أرسل المحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الان

سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ أو من ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب هو بشعار وحملت على رأسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحيين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين

وتنازعا النفوذ . ففاز الصالحيون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من سلالة الايوبيين وقالوا « لا بد لنا من واحد من ذرية بني أيوب نسلطنه علينا » وكان المتكلم يومئذ من الامراء الامير بلباي الرشيدي والاميرفارس الدين اقطاي والامير بيبرس ركن الدين البندقداري والامير سنقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بأن يحضروا بشخص من بني أيوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جمادى الاولى وبايعه الناس.ولقبوه بالملك الاشرف وتعين عز الدين أتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسماً بلا رسم ومن الغريب تألف هذه السلطة المزدوجة من أحد سلالة الاسرة الايوبية وأحد مماليكها . وأغرب من ذلك ان يخطب لهما معاً .

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بثأر الملك المعظم فدعى اليه اقرباءه امراء الاسرة الايوبية للتعاضد على ذلك وتأكيداً لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيد له في مقابلة ذلك بيت المقدس . فأرسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ الى المماليك في مصر مندوباً يطلب اليهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطاليبه وأطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وأرفقوهم بمندوبين لتجديد المعاهدة . فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الآتي ذكرها وهي :

أولا ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد اجبروا على الاسلام

ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلا جميلا وكان هذا أول فيل ارسل الى فرنسا ووعدوه ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل امر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية

فانجدهم الفارس اقطاي فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون وعادوا بعدد كبير تحت قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسية . وتقاتلا فانكسر المصريون أولا فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرهما فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة قليلة من الجند . أما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر السلطان الى الفرار بنفسه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف أهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصياً على انهم لم ينجوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وأبطلوا مبايعة ناصر الدين . أما هذا فلما رأى أمر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقد ربح من الجهة الثانية ماكان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين .

خراب دمياط

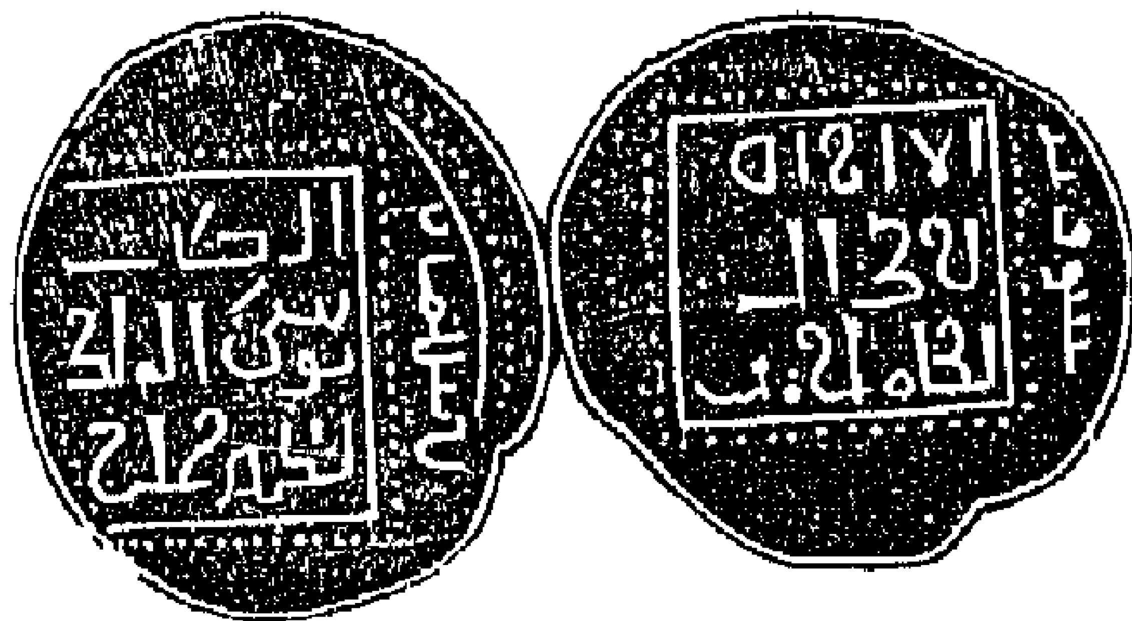
ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية أما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على أنقاض تلك فبلغت جمالا فائقاً وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي وأهميته للتجارة وقد بالغ المقريزي في وصفها لانها كانت في أيامه أزهى وأعمر مما هي الآن فنظم في مدحها قصيدة اقتطفنا منها هذه الابيات

سقى عهد دمياط وحياه من عهد ... فقد زادني ذكراه وجداً على وجد
وبشنينها الريان يحكي متيماً ... تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقاً ... يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد

وظل على الاقدام تحسب انه لطول انتظار من حبيب على وعد
كأن التقاء النيل بالبحر اذ غدا مليكان سارا في الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا ولا طعن الا بالمثقفة الملد

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه وأسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شراً من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه . وكان الفارس زعيما لحزب من المماليك الصالحيين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطز الذي صار بعد ذلك ملكا . أما الفارس اقطاي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشي الوقوع في شر أعماله فامر باقفال القلعة وأبواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحيون تحت رئاسة بيبرس وتجمهروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاي وهم يحسبونه مأسوراً فرمى اليهم برأسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم واودعوا السجن

فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاه في سجن مظلم فمات فيه تعساً بعد ان حكم سنة وشهراً


ش ٨٠ : نقود الملك الاشرف

وترى في الشكل الثمانين صورة النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن يوسف وعليها اسمه واسم الامام المستعصم بالله العباسي . والاشرف آخر من ملك مصر من الايوبيين . وحكم بعض أفراد هذه العائلة في دمشق وحلب وحمص وميافرقين . الا ان هؤلاء لم تمض عليهم عشر سنين حتى انقرضوا ولم يبق منهم الا فرع واحد في حماه بقي حاكما فيها قرناً بعد انقراض جميع الدولة وكانت سلطته ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسله أبو الفدا المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثيرون منا ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها العظيمة ولكننا لم ننس أبا الفدا لانه ترك لنا ذكراً لا يمحى بتآليفه المشهور

واستوزر ايبك شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اسلم من أيام الملك الكامل وترقى في الكتابة وكان طبيباً للسلطان الايوبي الخامس مشهوراً بالطب والسياسة . فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالا ورتب مكوساً وضمانات سموها حقوقاً ومعاملات

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك حسب الجو قد خلا له وما درى ان شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمه باستقالتها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده وهي تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكايدة النساء أشد وطأة من ملاقاة الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو منها نسلا فاقتنى عليها سراري أخريات فولدت له احداهن ولداً دعاه نور الدين علي ثم بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد أمسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت أن تحل محلها من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمرة العجب فلما ضايقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبان فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فأغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال لها « ان تركناه فلا يبق عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقاً وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما حملوه واخرجوه من الحمام أشاعوا انه قد أغمي عليه في الحمام فوضعوه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعاً . وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكا للدماء

ولم تجسر شجرة الدر على تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت

بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وطلبت اليهما امام جثة زوجها أن يستلما زمام الاحكام فابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلا ولم يشع الخبر في القاهرة الى الصباح التالي . فلما علم أصحابه من المماليك بما حل به اضمروا الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ — ٦٥٧ ﻫ أو من ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة أبيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة

فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدر وايبك كما رأيت فجوزي كل منهما بما فعل لانهما قتلا الملك المعظم . أما نور الدين علي فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره

وكان نور الدين قد استقر بالامير سيف الدين قطز المعزي نائب السلطنة بمصر واتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله وصادره واخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير واستقر به وزيراً عوضاً عن هبة الله

وفي أيام هذا السلطان بمصر هجم هولاكو التتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد . ووصل الخبر الى مصر انه حامل على بلاد الشام ومصر فخافوا وعقد قطز مجلساً من العلماء والقواد أقروا فيه ان الحالة تقتضي ان يتولى السلطنة رجل حازم . فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ ﻫ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطز وكان نور الدين طائش العقل يلعب بالحمام مع الغلمان

سلطنة المظفر سيف الدين قطز

من ٦٥٧ — ٦٥٨ هـ أو من ١٢٥٩ — ١٢٦٠ م

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلاده فتشتتت اسرته ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وأمر بقتله فحاول وصيه شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة

ثم لاح له ان دمياط بعد ان دكت اسوارها لم يبق ما يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فأمر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوها فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على ألسنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل أو رمل متجمع هناك

محاربة التتر

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تتري ناقلا منشوراً من هولاكو ملك المغول حفيد جنكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية الشرقية. وكان هولاكو قد غزا العراقين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وقتل الخليفة المستعصم بالله كما تقدم. ونزل هولاكو على سوريا ففتح دمشق والسواحل البحرية حتى قصد مصر فبعث اليها منشوراً مضمونه: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الاعظم ونعت فيه نفسه بألفاظ معظمة وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على أهلها منه الى ان قال « يا اهل مصر انتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ولا تقاتلوني أبداً فتندموا »

فلما قرأ قطز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوح هذا التتري وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة. غير انَّ جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم تزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشه نحواً من ستماية

الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها وأحدث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠٠ دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ ﻫ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة . فعاد تاركاً في سوريا نحواً من عشرة آلاف من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيبه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما واقعة كبيرة شفت عن هلاك كتبغا وكل رجاله والقبض على ابنه . وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثمن ما نهبه هولاكو من اغنى المدن في اثناء فتوحاته . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافراً ولم تتم سعادته لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتله بعض رجاله الذين كانوا يترقبون فرصة لقتله فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ ﻫ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً

وتفصيل ذلك انه بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة مرّ من امامه أرنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار على أثره في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحده ولا صيد معه فتقدم لملاقاته احد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منه همّ بيده كأنه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالاخرى في قلبه فسقط صريعاً يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحاهم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس « انا هو » فقال له « فاحكم مكانه »

فبويع بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدله بالملك الظاهر واضاف اليه ابا الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبندقداري نسبة الى سيده الذي كان يدعى علاء الدين بندقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

من سنة ٦٥٨ - ٦٧٦ ه او من ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

ولما تمّ لبيبرس أمر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ بلباي (بيلي بك) الخازندار وهو من أعز أصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمنهم وضمهم اليه وأطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء وا كثر من العطايا لرجاله وأبطل كثيراً من الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويتها وأخذ زكاة عنها في كل سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . وأعلن أمره هذا على لسان الخطباء في المنابر

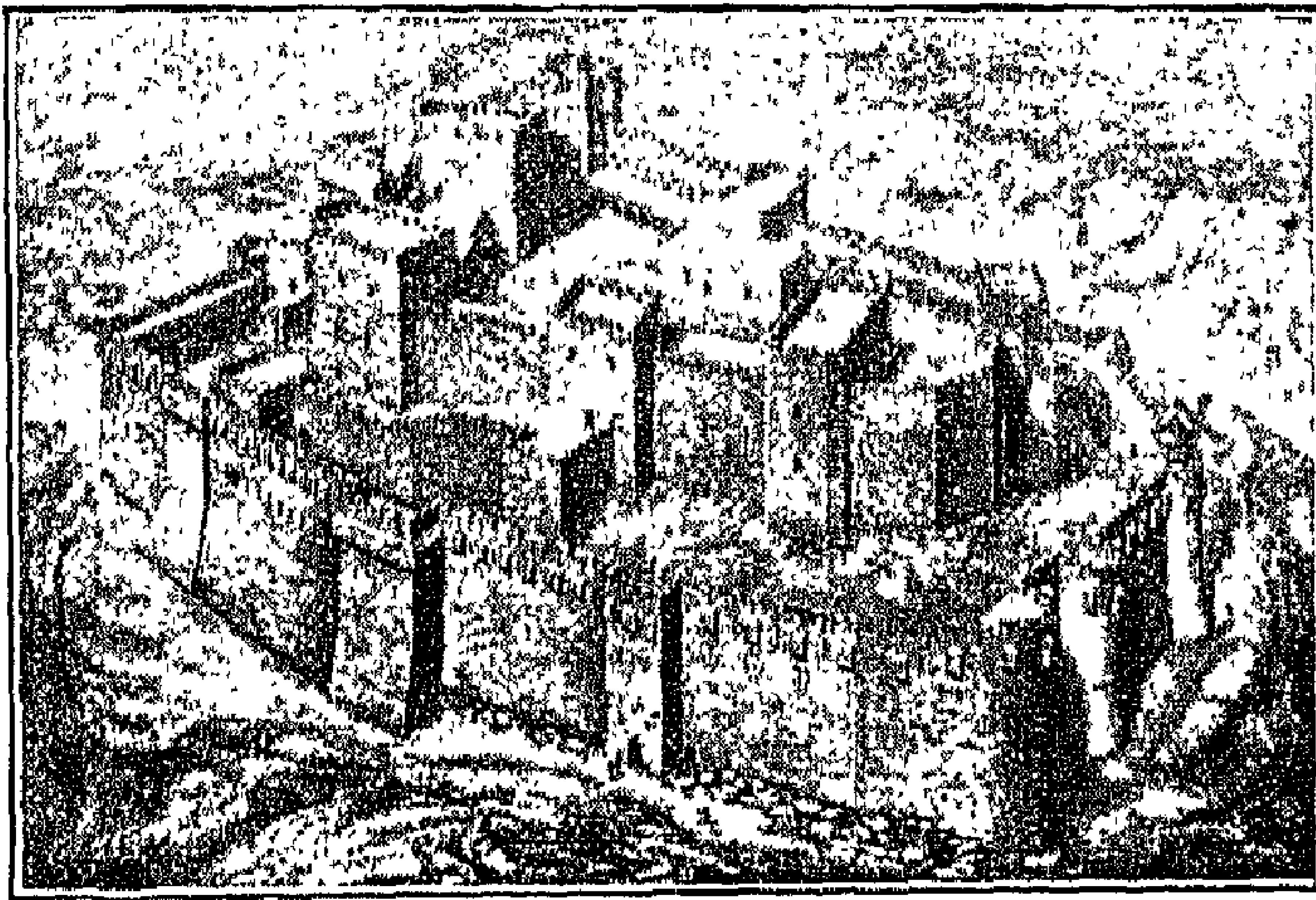
على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعيـة . فاهل الشام شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر صاحب حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر أصحاب هولاكو . فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاخماد الثورة فحارب التتر وتغلب عليهم في ٣ وقائع متوالية . فقنط الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها شر الانتقام وما زال حتى أخضع بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة أخذ في اصلاح الداخلية

الخلفاء العباسيون بمصر

وفي سنة ٦٥٩ ه قدم القاهرة رجل من بغداد قال انه من ذرية بني العباس واسمه الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله بن الناصر بن المستنصر . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى لقائه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام احمد المذكور وكان الامام احمد هذا اسمر اللون وامه ام ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام احمد عن فرسه أيضاً وتعانقا ثم ركبا ومرّا في القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام احمد مع السلطان الى القلعة فانزله السلطان في قاعة الاعمدة فاقام بها أياماً . ثم أن الملك الظاهر أراد أن يثبت نسب الامام احمد بانه من ذرية بني العباس لان الخلافة كانت خالية من حين قتل الخليفة المستعصم فعقد مجلساً من القضاة والعلماء والمشائخ

واثبتوا نسبه فاقامه خليفة في القاهرة ولقبه بالمستنصر بالله . فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين وقد ذهب نفوذهم الا من الوجه الديني وهو الذي كان الظاهر في حاجة اليه لتأييد سلطانه . فلما بويع المستنصر ثبت الملك الظاهر في منصبه . ورافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عم سائر القطر فتشاءم الناس بحلولهم . أما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب الاقوات من جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانقذ بلاده من ضيق عظيم

ثم أراد بيبرس أن يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً كبيراً لاخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر فلاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا



ش ٨١ : قلعة الكرك لما فتحها بيبرس

خمسة أشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله . ثم الجئ بيبرس الى تجريدة أخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليه سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق . فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولى أمور مصر فثار فيه حب الانتقام . فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته على مثل ما قتلت

عليه شجرة الدر . فامست الكرك بغير رئيس . فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في أماكن كثيرة من فلسطين فدارت الحرب بينهما سجالا مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و ٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية. وهو محاصر عكا الجئ الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة أهل ارمينيا وهددوا سائر سوريا . فاغفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدواً لان هولاكو كان قد مات وتشتتت جيوشه فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال له هيثون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحه الى الاناضول فهاجمه ريكا خان بن هولاكو وولي عهده فاعاده على أعقابه فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح أهلها . ثم رجع الى عاصمته بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

الآداب العمومية

وقضى بيبرس سنة ٦٦٥ ه في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم داخليته فابطل ضمان الحشيش وجهاته وأمر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الحانات والخواطئ بجميع أقطار مملكة مصر والشام . فطهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد . فقال أحد الشعراء المعاصرين :

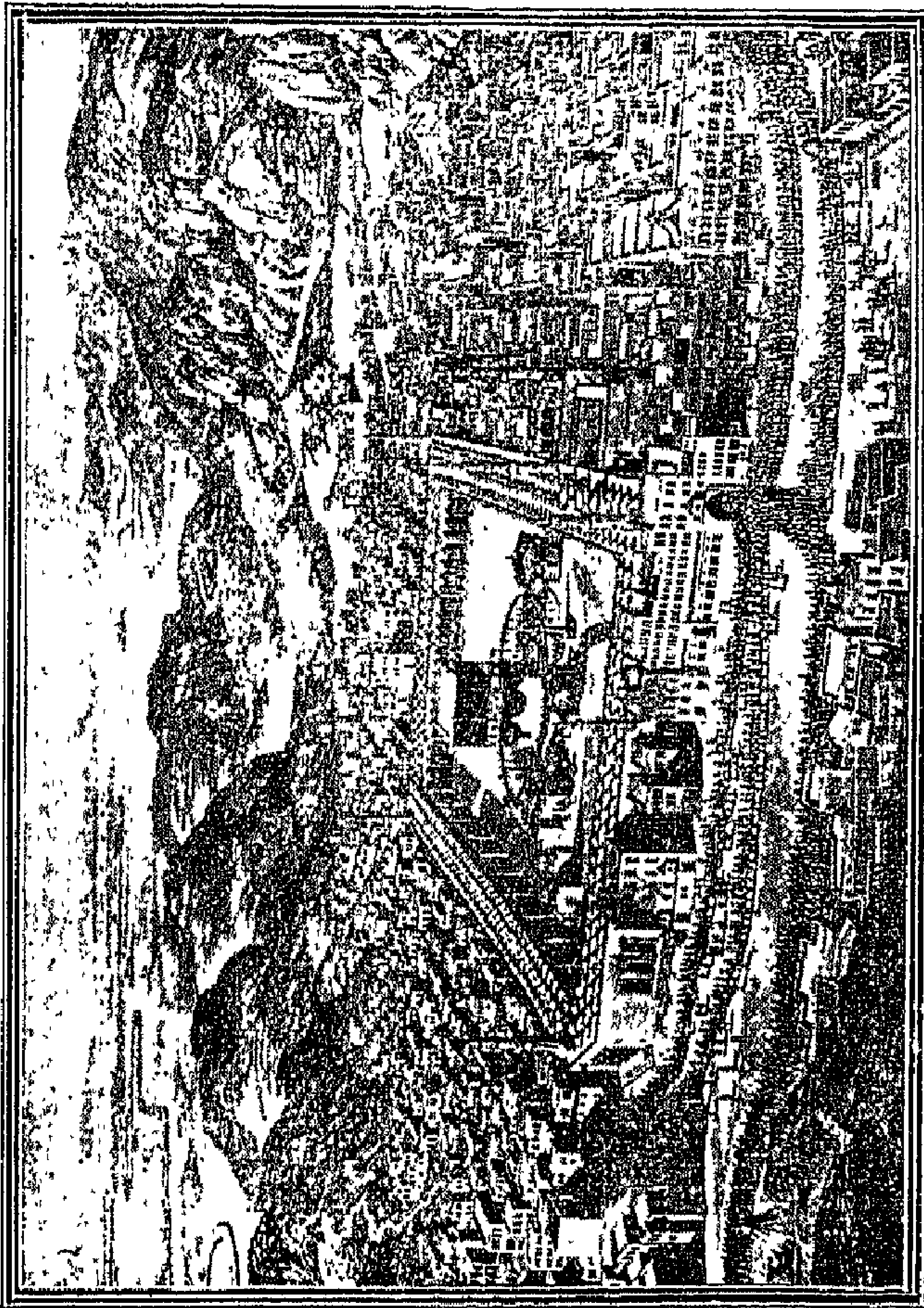
ليس لابليس عندنا أرب غير بلاد الامير مأواه
حرمته الخمر والحشيش معاً حرمتا ماؤه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ماكانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ماكان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن. وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرئ في المنابر . وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل . ولا شك أن الملك الظاهر لم يشدد في ابطال هذه المنكرات الا لعلمه يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي سنة ٦٦٢ ه بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل اثنين وخميس . وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه

فاذا كان لاحد مظلمة يأتي رأساً ويشكوها للسلطان وهو يأمر بصرفها

وفي سنة ٦٦٦ ه استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وصافيتا ومرقية وايباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم أحب بطريقه الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنه بركة خان فمر بحلب فطرد التتر منها ثم زار قبر ابراهيم الخليل في حبرون . وسار لزيارة بيت المقدس . ثم عاد الى مصر وقد أتم سياحته الجهادية والدينية معاً

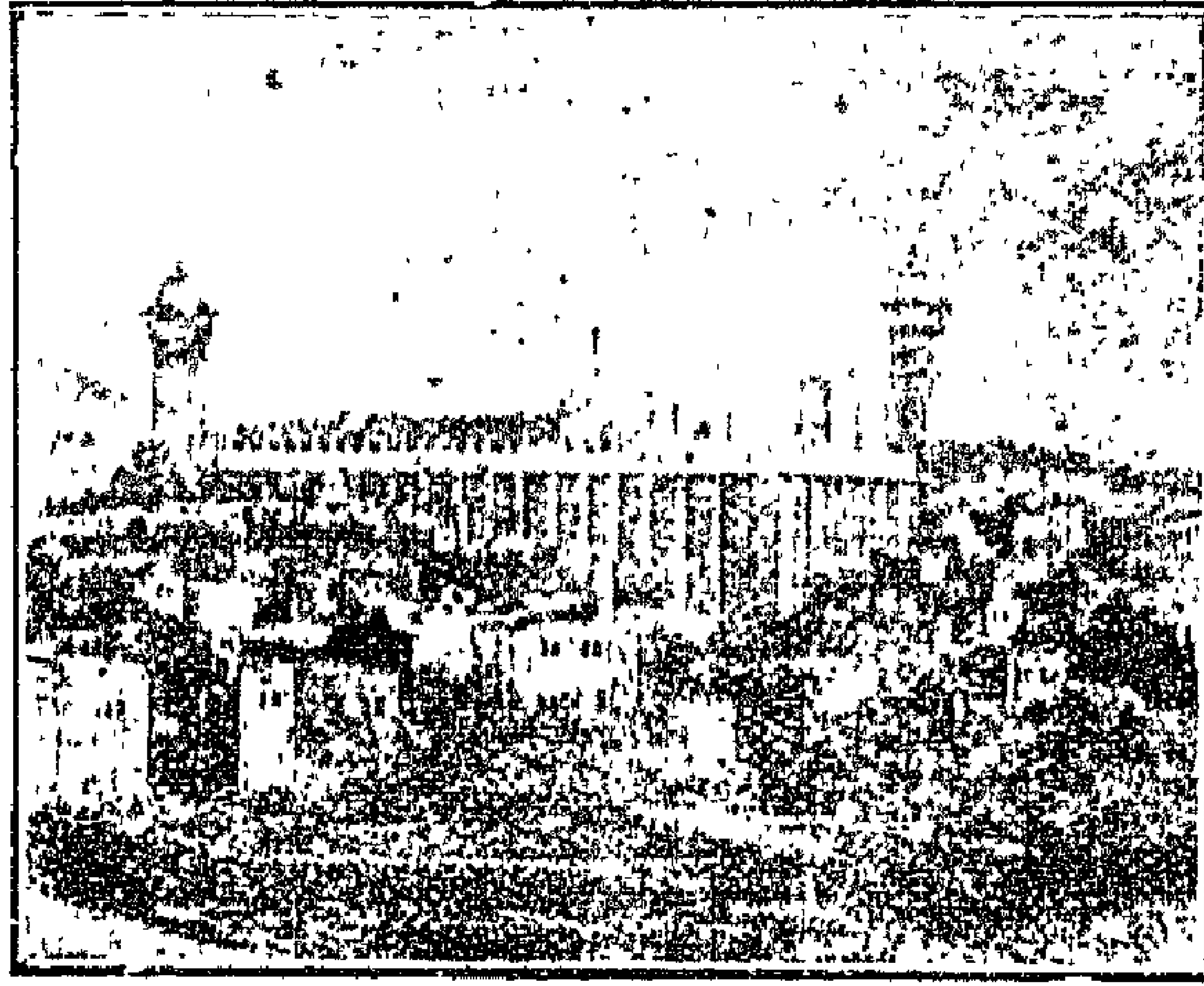


ش ٨٢ : مكة

وأصبح أمر الشام يهمه فاشتغل في تسهيل المواصلة بينها وبين مصر فرتب خيل البريد فكانت أخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين وقيل انه انفق على ذلك مالاً كثيراً حتى تم له ترتيبه وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولا يقدر أحد يركب خيل البريد الا بمرسوم سلطاني وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه

المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك

وكان طريق الحج من مصر الى مكة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون الى جدة ساحل مكة وهكذا بعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق أيضاً وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان أمينة المسالك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك



ش ٨٣ : مسجد الخليل في حبرون

الظاهر مكة وكساها وعمل لها مفتاحاً فصارت طريق الحج براً من ذلك الحين . أما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ هـ ومن ذلك الحين قلت أهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد أن كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ هـ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين . وكان هولاكو قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق . فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم

وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا البيرة فتجند اليهم بيبرس وسارت معه فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفي فالتقى الجيشان عند البيرة واشتدت الحروب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على البيرة . ثم ساروا الى ارمينيا فافتتحوها واغتنموا منها غنائم كثيرة . ثم عاد بيبرس الى مصر

ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالا بعوده ظافراً وحملت القبة والطير على رأسه وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

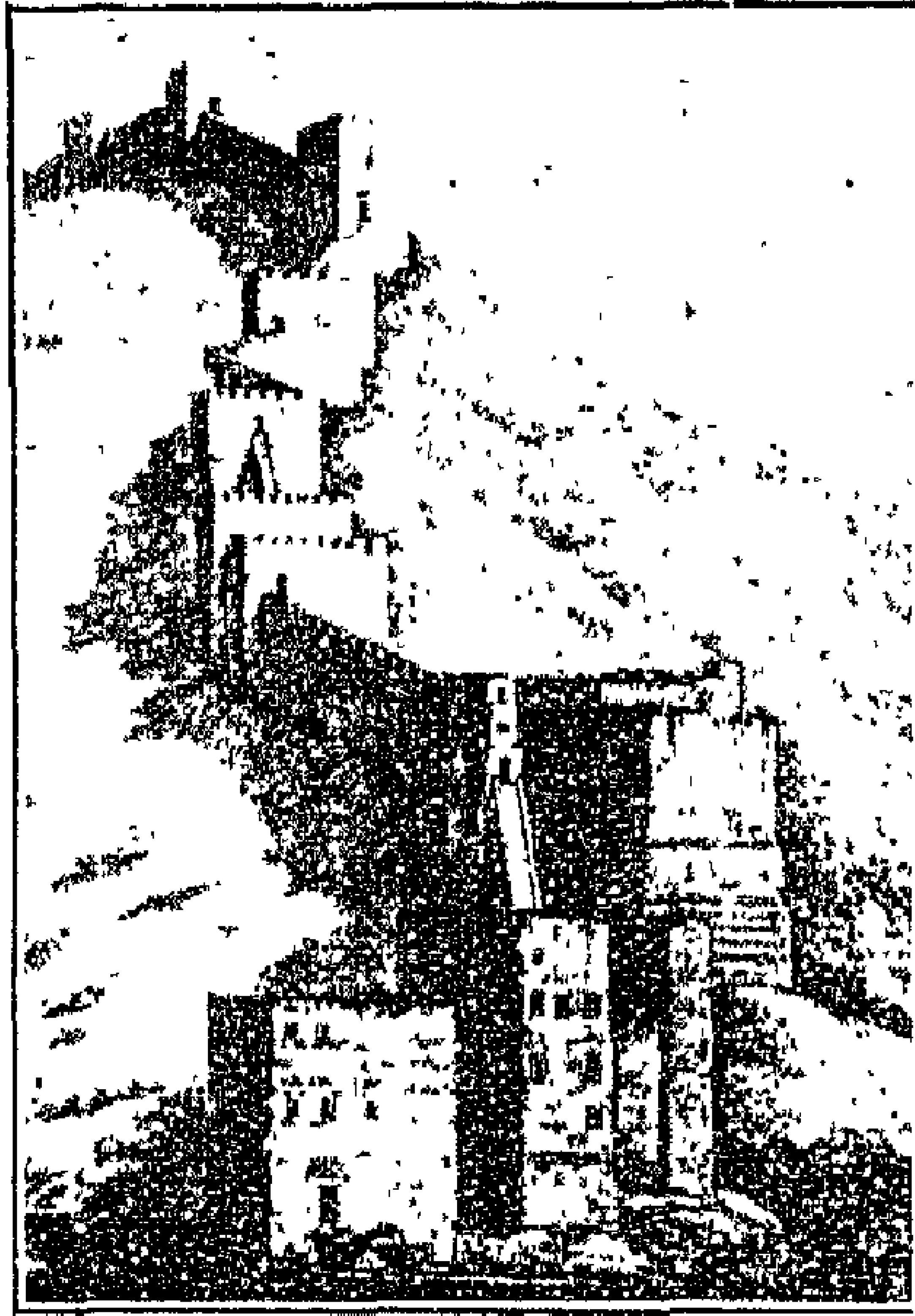
ثم ان ابغاخان بن هولاكو خان قدم سوريا وحاصر البيرة ثانية فلاقاه الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وأرجعه على اعقابه . فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته زوجة لابنه ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حمى حميه . فامنت سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغتيالا فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ ﻫ لافتتاح بلاد النوبة فافتتح اسوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا

موت الملك الظاهر ومناقبه واعماله

وفي سنة ٦٧٥ ﻫ اتت الاخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسرهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتر ابغاخان لما انكسر هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ابغا وهرب فتبعه السلطان نحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير بيسري فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس وأقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٦٧٦ ﻫ فتوعك واخذته الحمى فسقاه الحكماء مسهلا فافرط في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في محفة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ٦٧٦ ﻫ ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكا عظيما جليلا مهيباً كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف وكان مشهوراً بالفروسية في الحرب وله اقدام وعزم في القتال وله ثبات عند التقاء الجيوش وكان يلقب بابي الفتوحات لكثرة الفتوح في أيامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام وكان شعاره الاسد اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريماً سخياً على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوح على الرعية ترغيباً لهم في القتال وقت الحرب وكان محباً لجمع الاموال كثير المصادرات لاجل الغزوات والتجاريد وينفق ذلك على العسكر . وكان حسن الوجه طويل

القامة مستدير اللحية الغالب في لحيته البياض . وكان مبجلا في موكبه كفؤاً للسلطنة منقاداً للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله برٌّ ومعروف وآثار أهمها رده الخلافة لبني العباس بعد ان كادت تنقطع عنهم

وخلف من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعاً . ومما إستولى عليه من أيدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية



ش ٨٤ : أسوار انطاكية

وبقراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب . وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول . وصار الى يده مما كان في يد المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والسلط وحمص وتدمر والرحبة وتل ناشر وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرصافة ومصياف والقلعة والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة وبرقة

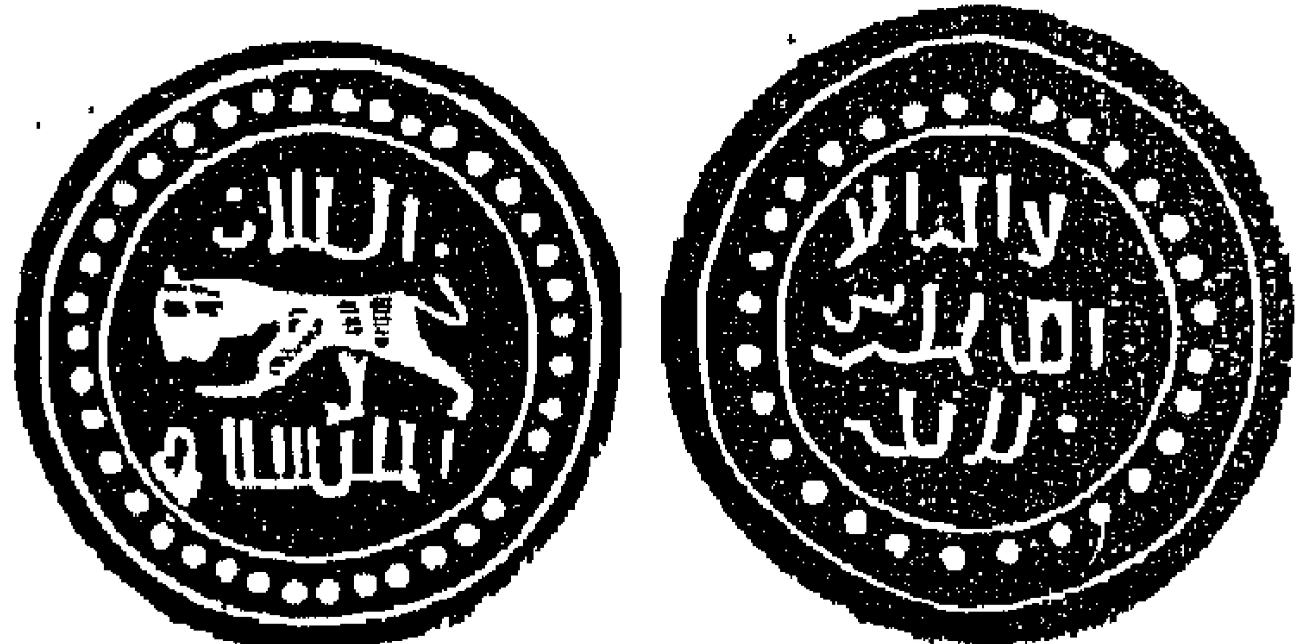
ومن اعماله المأثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة

وبعلبك والسلط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص . وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعله الفرنساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة . وهو البناء القديم في شارع الظاهر جعلته الحكومة مخازن للاقوات ويعرف بجامع الظاهر . وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره بنفسه وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثاره في القاهرة ايضاً قناطر السباع قرب ميدان الجبل والبرج الكبير في القلعة

وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له ايضاً الميدان الاسود وميدان العبد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلا بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر.







ش ٨٥ : نقود الملك الظاهر بيبرس

وبنى فيه مصطبة سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك . فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي امير ولا مملوك الا وهذا شغله . ومابرح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال وقلما يسلب الاهالي من المال فوق ما اعتادوا دفعه من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعده كثيراً في النفقات

هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت له اثراً يبقى ذكره دهوراً طوالا وترى في الشكل الخامس والثمانين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها صورة اسد

سلطنة بركة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ – ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ – ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس أقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان. ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلا على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع فيهم العدو فارسلوا جثته سراً الى دمشق واشاعوا هناك انه مريض فنقلوه الى القاهرة في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد. واقاموا الامير بلباي اتابكاً وكان بلباي في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم. ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة. وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انه القى اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في بادىء الرأي لكنها ما لبثت ان تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم. ولم يكن الملك السعيد يثق باحد من امرائه ليعهد اليه مهام الامة. وكان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اق سنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد يسير خنقه في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءاً لكنهم شغلوا عنه بثورة الدمشقيين. وذلك ان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر كان والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فبايعه اهلها ولقبوه بالملك الكامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذي كان قد بناه ابوه وبعد التحري عن أسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه. فلما علم هؤلاء بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروه فيها وشددوا عليه الحصار فسلم فانحط قدره عندهم وهموا بقتله فمنعهم الخليفة

الحاكم بامر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعه فخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة أشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وحبسوه فيها ثم عادوا الى قتله فانفذوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ - ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٩ - ١٢٧٩ م

فبايعوا أخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصياً عليه ولم يكن همّ هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م

وهو من مماليك اق سنقر الكاملي وقدمه الى الملك الصالح فاعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلما تولى السلطنة قرب انصاره وانعم عليهم واستوزر فخر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وبعث الامير طرنطاي الى دمشق لاخماد ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه الجئ في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة واودعوه سجناً مظلماً وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ هـ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة ابغا خان. والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة أخيه منجوتيمور (منكوتمر) فحاربهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجو تيمور وفر ابغا خان الى حمدان فسمه اخوه الثالث تيكودار اوغلان وتولى الحكم بعده ثم اعتنق الاسلام ولقب باحمد خان . وكان اسلامه وسيلة لحقن الدماء لانه خابر قلاون مخابرة سلمية وتعاهدا على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعياً الى ما بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانه . فكانت مصر في خلال ذلك مطمئنة في خارجيتها فنشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد بعض العامة . فغضب السلطان غضباً اعمى بصره وامر مماليكه ان يضعوا

السيف فيهم ولم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعصاً واحدة وأعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متوالية حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالا ونساءً واولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظه ويبينون له وجه عسفه . فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم ندماً لا مزيد عليه وتكفيراً لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام . ومن اجل ذلك ايضاً بنى المستشفى الشهير بالبيمارستان المنصوري بخط بين القصرين (في شارع النحاسين) وكان في الاصل قاعة لست الملك بنت العزيز بالله ولها تاريخ ذكره المقريزي في صفحة ٤٠٦ ج ٢

ملابس المماليك

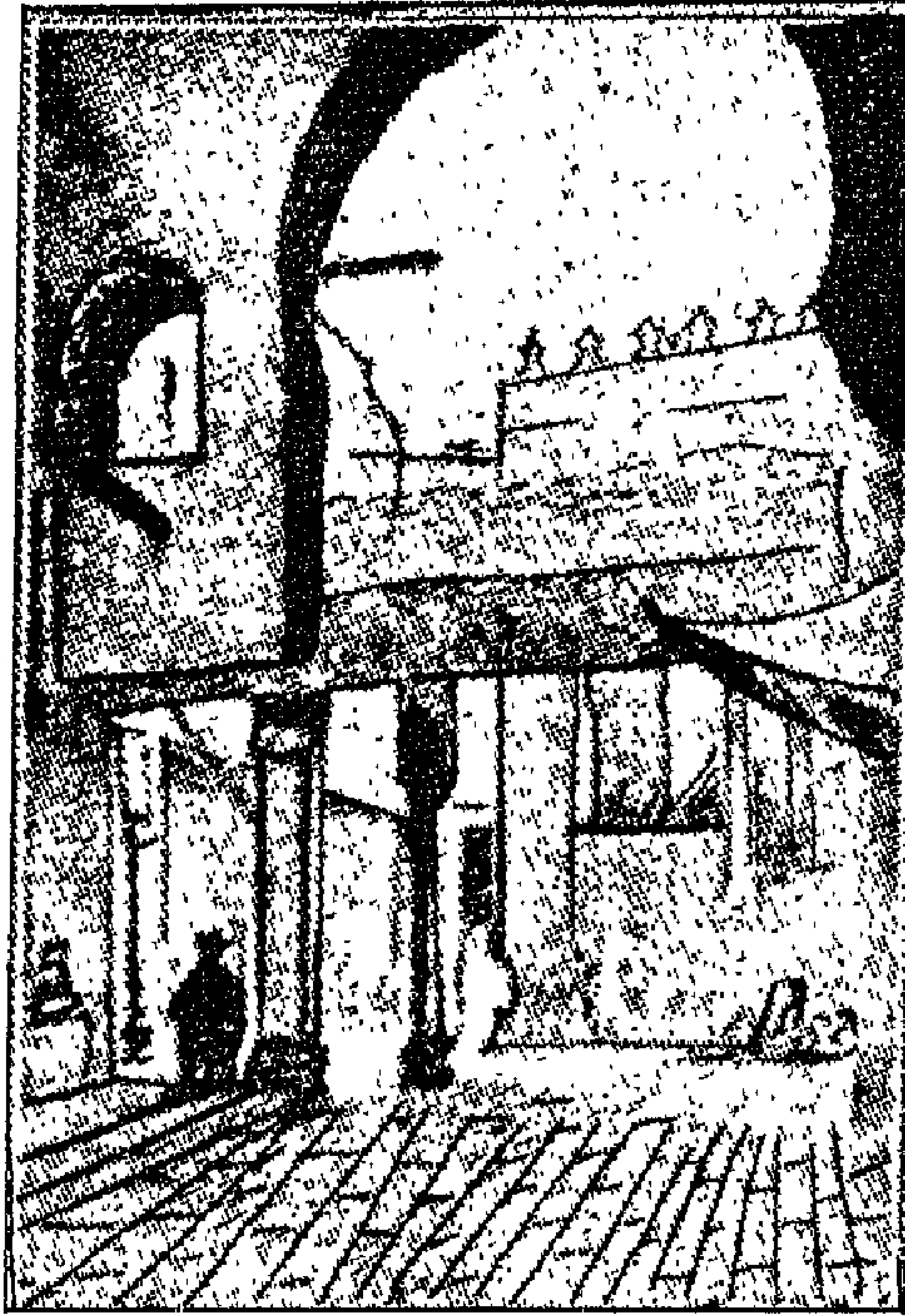
وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم كانت كلوتاتهم (للرأس) من الصوف الازرق الغميض وهي مضربة عريضة بغير شاش . وكانوا يربون ذوائب من الشعر خلفهم يجعلونها في اكياس حرير احمر او اصفر وكانوا يشدون في اوساطهم بنوداً بعلبكية عوضاً عن الحوائص . وكانت خفافهم برغالي اسود . وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس . وفي ذلك الابزيم ملعقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة . وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح ايديهم . فلما تولى الملك المنصور قلاون امر العسكر ان يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا في الهيئة المطبوعة . وكانت خلع المقدمين من العتابي فامر لهم بالخلع المخمل الاحمر والاخضر بالفرو والسمور . ثم سار الى حصن مرقد فحاصره ٣٣ يوماً فسلم . وفي سنة ٦٨٤ هـ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر فقاده الى القاهرة واودعه سجناً مظلماً مكث فيه الى ما بعد وفاة قلاون

موت قلاون وآثاره

ولما اطمأن باله في داخليته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقرّ على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمناً طويلا . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذاك الحين في تدريبه على الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً اصيب بحمى شديدة ذهبت بحياته سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاون حزناً شديداً وكثرت هواجسه حتى كره

الاحكام . ثم رأى ان يجرد حملة لافتتاح طرابلس الشام تسلية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها واخربها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية

ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن ليشغله عن احزانه وما زال كئيباً حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازه احتفالا حضره جمع غفير من جهادية وملكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و٦ ايام



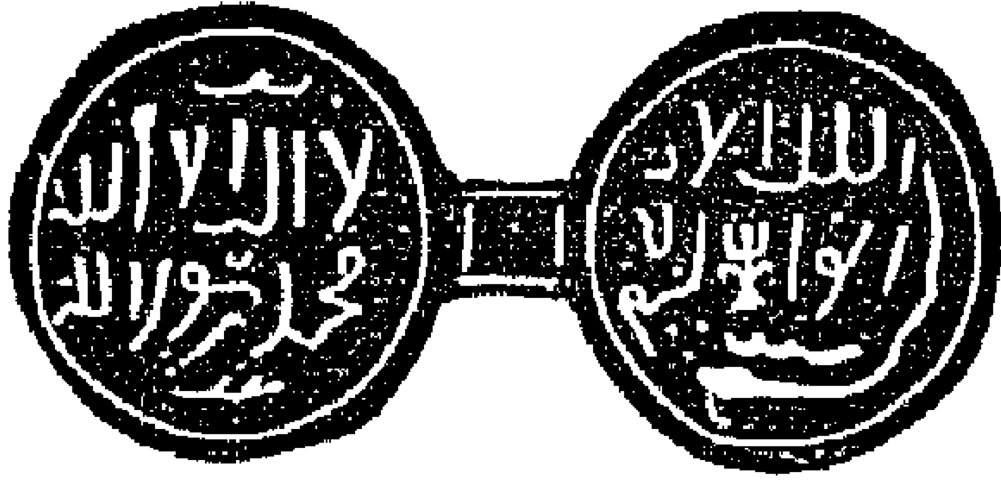
ش ٨٦ : بقايا البيمارستان المنصوري

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامعه الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين شمالا بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا تزال هذه الابنية قويمة العماد تتجلى فيها العظمة والقوة الا البيمارستان فانه اصبح اقرب الى الاثر من العين . وقد زرت مقام هذا السلطان فرأيت فيه كما رأيت في غيره من امثاله جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤوا يطلبون الشفاء وهم يأتون غالباً في أيام السبت ولهم في ذلك

أساليب مختلفة . فرأيت بعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً متضرعاً وآخر يأتي بقطعة من الليمون الحامض يمرح بها جدار المحراب أو ما يقاربه ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء . ورأيت آخرين يفعلون غير ذلك

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ربع القامة دري اللون . وكان قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعاً بطلا مقداماً في الحرب مغرماً بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر الف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان المذكور

وقد كان قلاون سبباً لاخراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثاره من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي أي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك



ش ٨٧ : نقود الملك المنصور قلاون

وترى في شكل ٨٧ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حلب

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩ - ٦٩٣ ه أو من ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر علم الدين سنجر وجرد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ ه حتى أتى عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فحصنوه تحصين اليأس لكنه لم يمتنع على جيوش المسلمين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلا ونهباً . وفي سنة ٦٩١ ه عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفياً الى القسطنطينية لانه كان سبباً للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فذاع صيته حتى ارهب اعداءه فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار ففاجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نسائه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣ ه بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . والى جهاركس الخليلي احد المنسوبين اليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة . وكان في مكانه قبل بنائه مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها . واضاف الغوري الى بنائه في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخله .

وفي الخان تباع الآن جميع أنواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات وأوان نحاسية وغيرها

ومن آثاره البنائية قاعة الاشرفية التي بقلعة الجبل والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة

وبويع بعده بيدرا ولقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك أخذاً بثار سلطانهم السابق . وبايعوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره ٩ سنوات ولقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ - ٦٩٤ ه او من ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائه لكثرة ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فما استتبت له الوصاية حتى تاقت نفسه الى السلطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحدثه نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفا وتخاصما وانتهت المخاصمة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر فخلعه وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبغا

من سنة ٦٩٤ ـ ٦٩٦ه او من ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ ه بويع كتبغا ولقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر فخر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من أهلها ثم جاءت الحرب تتمة لهذه الضربات

وذلك أن قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو أصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ايغاني فتخوفت

منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداذ . فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنونه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينـة بهنا فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوفة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء في ما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام أكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من أكابرهم الى القاهرة وفرق الباقون بالبقاع العزيزية وببلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقائهم واجتمع الناس من كل إمكان حتى امتـلا الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانة واجرى عليهم الرتب وأنزلهم بالحسينية . وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانسلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سـنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تقربهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية إستجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثر نسلهم في القاهرة . واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين أهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ هـ

سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ـ ٦٩٨ هـ او من ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبغا ان يخرج الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي مقدم الاويراتية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرّق جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن. وما برحوا أيضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان . وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة .

اقطاعات القاهرة

وكانت أرض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها بأربعة والاجناد بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيراً من أقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء . وكان يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لأعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك الاقطاعات على أربابها وأخرجها بأسرها من دواوين الامراء وجعل للامراء والاجناد احد عشر قيراطاً وأفرد تسعة قراريط ليخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب اوراقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط واقتصد قيراطاً لزيادة ما عساه يطلب زيادة لقلة متحصل أقطاعه . وأفرد لبطانته عدة أعمال جليلة . فتنكرت قلوب الامراء وحقدوا عليه وما أنفكوا حتى قتلوه في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقي كرسي السلطنة خالياً ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طقجي من دعوة الناس الى حزبه فالتف عليه جماعة كبيرة فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر كما لقب بيدرا قبله وكان حظه من الملك كحظ سميه فلم يحكم الا يوماً واحداً ثم ذبحه المماليك

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (ثانية)

من سنة ٦٩٨— ٧٠٨ ھ أو من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م

ففكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استقدام الملك الناصر ابن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر ليبايعوه . فبعثوا اليه وفداً يبلغه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك . وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلا يكون تحت اقوالهم مقاصد خطرة . فألحوا عليها وأكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبايعوه فتأكدت اخلاصهم فاذنت بسيره معهم فساروا حتى أتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبايعوه

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانية الى افتتاح سوريا فجرد اليه الملك الناصر سنة ٧٠٠ ھ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى به في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله وأمدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب . وكان التتر قد حسبوا ان الفوز تقرر لهم فوضعوا ايديهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب وأخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر بجيشه الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فغلب المصريون في بادىء الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم أشد من الجبال ففرقوا جموعهم واثخنوا فيهم ضرباً بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يبق ما يشغله في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا له واغتنم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقر والجاموس وعدداً وافراً من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ ھ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسماً عظيماً من سوريا ومصر وأخرجت المياه من الآبار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي أثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون

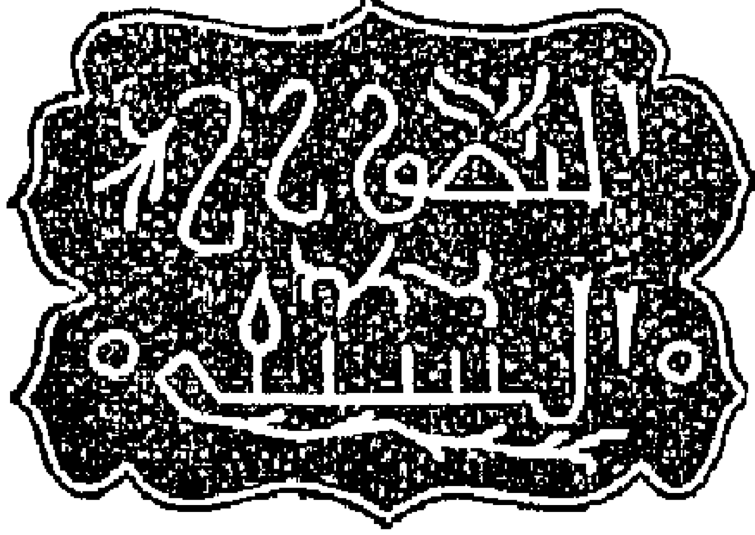
وسبعمائة الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من أرادوا

سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ أو من ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من مماليك الملك المنصور قلاوون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفاً منقوشاً عليه اسمه مع لقب «المنصوري والسيفي» كما ترى في الشكل الثامن والثمانين





ش ٨٨ اسم بيبرس على سيفه

وفي اواخر هذه السنة قدم الصليبيون بموافقة صاحب قبرس لغزو دمياط بحراً فاتفق الامراء في القاهرة على انشاء جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين بحراً في أيام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى العمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع ستمائة رأس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل وأتموه في شهر واحد . فكان طوله من دمياط الى قليوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وست قصبات من اسفله تمشي عليه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً . ومن آثاره في القاهرة جامعه المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن مقاليد الاعمال لاحد مماليكه فجعل يترقب فرصة لتسلق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون أحد مماليكه المقربين وجاء دمشق فبايعه امراؤها فجند الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برلك أحد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . أما بيبرس فخاف ولم ير سبيلا لنجاته الا بالتنازل فاستقال وأخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من الجمال والخيل وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها

فلاقاه خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوه شتما ورجماً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء أخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (ثالثةً)

من سنة ٧٠٩ – ٧٤١ هـ او من ١٣٠٩ – ١٣٤١ م

وفي غد خروج بيبرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطة ولبس خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على سرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان الاشرفي . ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار . وخلع على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف ثم تتبع الهاربين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الامير سلار النائب وضبط امواله سنة ٧١٠ هـ فكان في جملتها صناديق افرنجية مصفحة بنحاس فيها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرد بابي عشرون رطلا وفصوص الماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا الف دينار . ومن الفضة اربعمائة الف درهم وواحد وسبعون الف درهم . وفي يوم الاثنين سابع عشر وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون الف دينار ومن الفضة مليون درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان . ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخل واساور وزن اربعة قناطير مصرية . ووجد عنده طاسات فضة واطباق واهوان ذهب وطشوت فضة ستة قناطير . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر وجد له من الذهب العين خمسة واربعون الف دينار ومن الفضة ثلثمائة الف وثلاثون الف درهم ووجد عنده طلعات فضة للصناجق وقطاريات فضة ثلاثة قناطير – وغير ذلك شيء كثير ذكره ابن اياس في تاريخه مفصلا مما يدهش لكثرته

وكان سن الملك الناصر لما تولى المرة الثالثة ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك

فكان ذلك بمثابة الامثولة له فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة

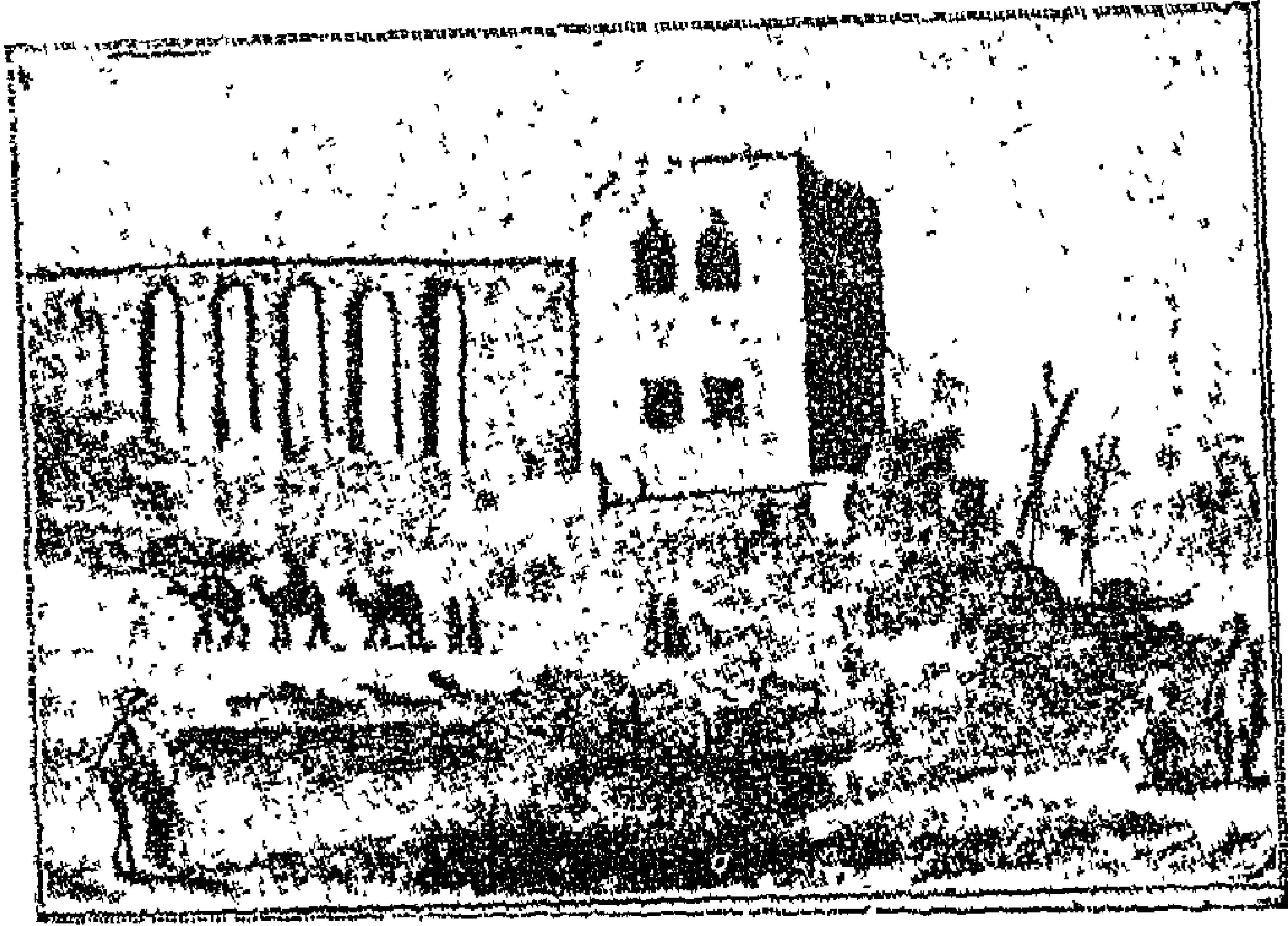
وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالا سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي القاهرة يسمونه احتفال عيد الشهيد زعماً منهم ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع آبائهم المائتين . فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجاً على اختلاف الدرجات والنزعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر . فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل . وكان فلاحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في ذلك العيد . فامر الملك الناصر بابطال هذه العادة . وابطل كثيراً من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ماكان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبداً ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته . وابطل ماكان يجبى من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر مبشر بفتح حصن او نحوه فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته . وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبى من اهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة ديناراً من كل واحد قياماً باحتفال كانوا يقيمونه عند المقياس يكثرون فيه من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اعماله

أما اعماله فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ ﻫ جسراً بين بولاق وميت شيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (تمن الازبكية) فلما بنى الجسر كف الماء الا يسيراً فتكوّن هناك جزيرة دعوها جزيرة بولاق فاقيمت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءاً منه فاتخذوها مرسى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى اليوم وهذا ما يعبر عنه الآن بثمن بولاق

ومن آثاره البنائية جامعه المسمى الجامع الجديد عند موردة الخلفاء . ويقال انه نقل حجارته من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة الكبار وعمر القصر الابلق بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٧١٨ ﻫ في

مجراة على قناطر مبنية بالحجر وركز المياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي الباقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر تفصل بين القاهرة ومصر القديمة . وعمر الحوش الكبير في القلعة زرع فيه بستاناً نقل اليه الاشجار من الشام وغيرها . وبنى قناطر عديدة في اماكن مختلفة والبركة الناصرية . وكان في القلعة ايوان يسمى الايوان الاشرفي فهدمه وبناه وعقد فوقه قبة عظيمة وكان يعمل فيه المواكب العظيمة والقصر الكبير عند البركة الناصرية . وعمل باب الكعبة من الخشب السنط الاحمر المصفح بالفضة



ش ٨٩ : مجراة الماء والسبع سقايات

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكينة وسلاماً خارجاً وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخابر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوجه بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان معتكفاً بكليته الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزح الخليج المدعو باسمه (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ . وقد انشأ سنة ٧٢٨هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصداً في الميدان وشاد قصراً على انقاض قصر الاشرف فانتهى منه في سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شبين سنة ٧٣٥ هـ وابتنى عدا الجامع الناصري المتقدم ذكره جامعاً آخر بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين يشاهد فيه عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكاراً للظفر . وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان

محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحي سنة ٦٩٨ هـ والمقريزي يقول ان بناءه تم سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبغا هو الذي وضع أساسه ايام السلطنة . وشاد الناصر داراً كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيوناً كثيرة ومدارس عالية متعددة

ومن أعماله الحميدة انه ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على ما يباع ويشترى من حيوانات ونبات وعقار فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته . فاستتبت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الا تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاه حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٤٠ هـ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تنصيبهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدات حكمهم قصيرة جداً

وتزايدت فخامة ملك ابن قلاون في آخر حكمه وكثرت مماليكه حتى صار راتبه وراتب مماليكه كل يوم من اللحم الضاني ستة وثلاثين الف رطل . وبالغ في مشترى المماليك حتى قيل بلغت مماليكه اثني عشر الف مملوك . وهو اول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والاقبية القاقم . ورتب المواكب في القصر ترتيباً حسناً . ورتب شرب السكر بعد السماط في القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك ارباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت ايامه في السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار اكثر الامراء والنواب مماليكه أو مماليك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه حتى قيل قد تزايدت في ايامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمائر والانشاء

وترى في الشكل ٩٠ صورة نقود الملك الناصر بن قلاون النحاسية



ش ٩٠ : نقود الملك الناصر بن قلاون

سلطنة أولاد الناصر وهم أبو بكر وكجك واحمد واسماعيل وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

من سنة ٧٤١ — ٧٦٢ هـ أو من ١٣٤١ — ١٣٦٠ م

فأول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين أبو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه وأهانوهن ونهبوا متاعهن فبويع اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف

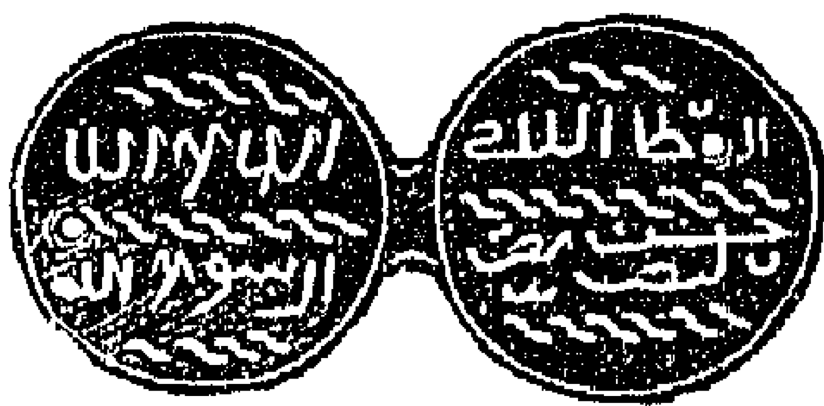
وبعد خمسة اشهر أي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويع أخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في الكرك فاستقدم وبويع ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ اعيد الى الكرك منفاه الاول . فبويع أخوه عماد الدين اسماعيل واقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة أكثر قليلا من اخوته السابقين أي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . وأهم ما حصل في ايامه انه أعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ هـ وكان قد الغاه أبوه كما رأيت . وانه قتل أخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ هـ وكان منفياً في الكرك ثم انتهت سلطنته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ هـ . فبويع أخوه الخامس زين الدين شعبان واقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاه الشعراء . ومكث حاكما سنة وبضعة أشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ هـ عزل . فبويع اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ فبويع أخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في الملك ما كان لابيه فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويع أخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون أو شيخو في السايبة غربي الرميلة ويقابله خانقاه . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر و ١٤ يوماً

وفي سنة ٧٥٤ ﻫ دهم القطر طاعون وانتشر حتى عمّ البلاد واختطف الامام الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمه المعتضد بالله

وفي أوائل سنة ٧٥٥ﻫ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى من الاملاك الموقوفة للاديرة فاحيلت هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان للنصارى أوقافاً تبلغ ٢٥ الف فدان من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة . فعرضت على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس وفي أواخر رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني وكان والياً على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى وأخذ منها أصبع الشهيد في صندوق وأحضره الى الملك الصالح فاحرق بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ. وكان من المترشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها وانضم الى كل منهما أحزاب فانتهى الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ ﻫ وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من أخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين وكان الناصر مسجوناً ففاز بمراده وخلع أخاه فأخرج من السجن وبويع وبقي الملك الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة أيام بمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمسعاه . وفي ٩ جمادي الاولى سنة ٧٦٢ ﻫ قتل بمكيدة من كبار امرائه

ومن آثاره الباقية الى هذا العهد جامعه في الرميلة مقابل قلعة الجبل في القاهرة وهو المعروف بجامع السلطان حسن أو بجامع الحسنية وهو من أجمل جوامع القاهرة وأتقنها اقتضي لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها ما يساوي ستمائة جنيه كل يوم وقد جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية فزادته رونقاً وجمالا وقد أصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة ولكنها لم تزده الا عظمة ووقاراً

وترى في الشكل ٩١ صورة النقود الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن



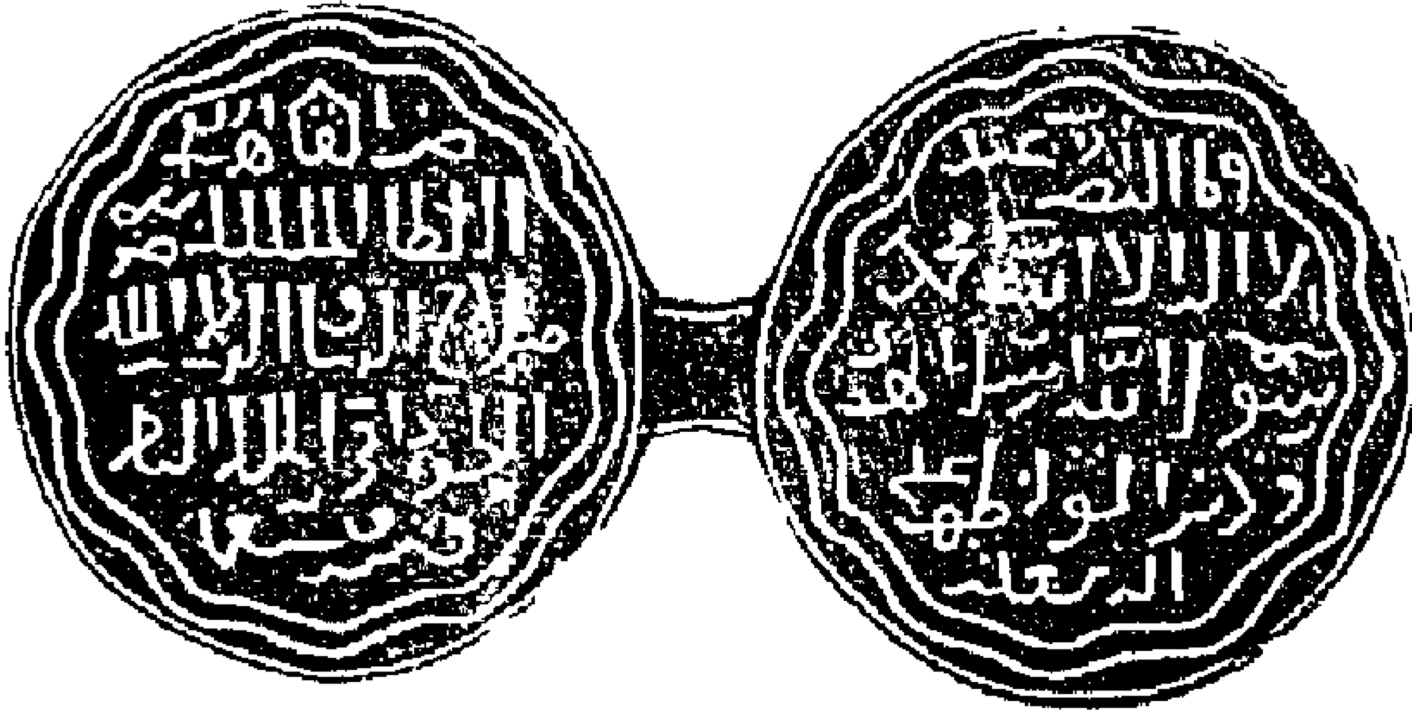
ش ٩١ : نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من سنة ٧٦٢ ـ ٧٦٤ ﻫ او من ١٣٦٠ ـ ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويع ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ ﻫ اضطر الى التنازل عن الملك لابن عمه شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث)

وترى في الشكل الثاني والتسعين صورة النقود الذهبية للملك المنصور محمد ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ﻫ



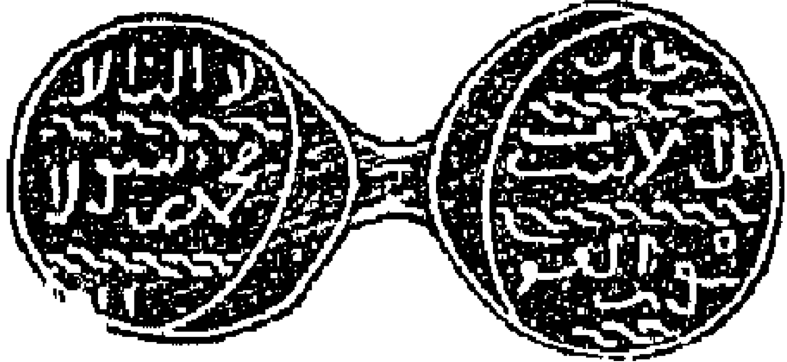
ش ٩٢ : نقود الملك المنصور محمد

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ ـ ٧٧٨ ﻫ او من ١٣٦٢ ـ ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة أيام معظمها سكينة وسلام وفي السنة الثالثة من حكمه اصيبت مصر وسوريا بقحط ضيق على الناس حتى أكلوا الكلاب والقطط وأكل بعضهم أولاده من شدة الجوع . واستمر الامر كذلك في بعض الاماكن ٣ سنوات ولما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية أشد وطأة من الجوع . وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً الملك . ففي سنة ٧٧٦ ﻫ سطت عليه عصبة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك من السلطان نفسه فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولى على النيابة الجاي اليوسفي وكان طماعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم رجاله حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكد يطمئن من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اضداد يريدون قتله فتربصوا ينتظرون

فرصة حتى اذا كان عائداً من زيارة الحرمين كمنوا له في مضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على أثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ ه ان يبايع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حياً مختبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ ه



ش ٩٣ نقود الملك الاشرف شعبان

وترى في الشكل ٩٣ نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ ـ ٧٨٣ ه أو من ١٣٧٦ ـ ١٣٨١ م

وبايعوا ابنه علاء الدين علي وسنه سبع سنوات فسر بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم أنه مدفن ابيه ولا يلبث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) وأقاموا له الامير لاين بك وصياً . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم أبدل هـذا بالامير برقوق . وهو الذي أتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منذ ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع أول سنة ٧٨٣ ه وكانت مدة حكمه أربع سنوات وأربعة أشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ ـ ٧٨٤ ه أو من ١٣٨١ ـ ١٣٨٢ م

فبويع أخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات واقب بالملك الصالح ولم تمض على مبايعته سنة ونصف حتى ملّ برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ ه واستلم مقاليد الملك . وكان الملك الصالح هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية أو التركمانية فانقرضت دولتهم بعد أن حكمت نحواً من مائة وست وثلاثين سنة أولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية أو الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ او من ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضاً كركس أو جركس او كرغز . وهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيقال منذ القرن السادس للميلاد . ثم هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلا عن المماليك البحرية اقتداء باسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية . وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونه ارثاً لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي بن شعبان وبايعوا برقوق

أما برقوق فهو ابن مرتد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراه رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلبغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترقيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعثماني واليلبغاوي . وما زال في خدمته الى ان قضى الله على يلبغا بما قضى وتشتتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلا في خدمة منجك صاحب دمشق . ثم عادا الى مصر بطلب الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش . وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي . فتمكن برقوق بمساعدة احزابه أن يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رأيت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ ـ ٨٠١ هـ او من ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨ م

فاقرّ الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه أسلافه انه أبطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليه وأبطل ماكان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية انه كان يجتمع السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على ابواب الاكابر من اعيان الدولة فيكتتب امير النيروز وصولا بالجمل الثقال وكل من امتنع عن الاعطاء من الاكابر سبوه سباً قبيحاً ولا يزالون قاعين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه امير النيروز . فيأخذون منه ذلك غصباً ويمضون . وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون في الطرق ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجمون بالبيض النيء في وجوههم ويتصافعون بالانطاع والاخفاف ويقطعون الطريق حتى يمتنع الناس من الخروج الى الاسواق وتغلق في ذلك اليوم ايضاً اسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به في الطرق سبوهُ

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاته حتى سمع دويّها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فاوقفه عند حده لكنه لم يكد يتخلص منه حتى ظهر له عدوٌّ في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتف حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة فخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ هـ ونصب عمراً اخا ابراهيم ولقبه بالواثق بالله . ثم توفي الواثق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب ابا يحيي زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلا لانه اساء السلطان برقوق فخلعه في جمادى الاولى سنة ٧٩١ هـ وأعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيله ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمى منطاش على خلعه ووافقهما سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوه بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وأرسلوه منفياً الى قلعة الكرك منفى السلاطين في تلك الايام واستقدموا

السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك البحرية وهو الذي خلعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الاخرى سنة ٧٩١هـ . وكان يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لـكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعيا في توليته ندما فانزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ فتعلم برقوق هـذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالا الى المنصور حاجي واماته وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحائها ولم يكن يثق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم يتحد تارة مع هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه



ش ٩٤ : تيمورلنك القائد التتري

وفي سنة ٧٩٤ هـ أهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق خلعة وفوّض اليه ان يفتتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لـكنه ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيه احمد بن اويس فارين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأا الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب من امره مع دولة اخرى قارب صبحها الانفجار ـ وهي الدولة

العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه الاسرة الظافرة . وكان قد غزا معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم) واعظمها حتى هدد القسطنطينية فجاءه التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فاوقفوه عن مقصده وأصبحت قارة آسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دونهما

وطمحت أنظار هذين الفاتحين الى مصر فبعث كلٌّ منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة أن يقر بيازيد رسمياً على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ما طلبوه . اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في أقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس اللذين قد التجأا اليه . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجوراً فامر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وعمره ستون سنة فاسف عليه الناس اسفاً شديداً لما كان من عدله ويقظته ورفقه برعيته

اعماله

ومن أدلة ذلك انه خفف ضرائب الحبوب وأبطل الضرائب التي كانت تؤخذ على الأثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق . وكان كثير التصدق على الفقراء محباً للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليه . وابتنى جامعاً لا يزال معروفاً باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول والجياد والاستكثار من المماليك والشراكسة فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وقد رتب مراتب الدولة في ايامه على هذه الصورة :

١ اتابك العساكر
٢ رأس نوبة الامراء
٣ امير السلاح
٤ امير المجلس
٥ أمير الياخور
٦ دوادار
٧ راس النوبة الثاني
٨ حاجب الحجاب
٩ النائب

وكانت مقاليد الحل والعقد بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على أمر انفذوه ولا مرد لقضائهم

ومما أنشأه في أيامه من العمائر جسر الشريعة بالغوريه وجدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية وجدد عمارة زريبة البرزخ بثغر دمياط بعد ان ظهر منها عظام الشهداء وبنى سوراً على مدينة دمنهور وعمر قناة العروب بالقدس وجدد عمارة الجراة التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل

سلطنة فرج بن برقوق (أولا)

من سنة ٨٠١ – ٨٠٨ هـ أو من ١٣٩٨ – ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر أبنائه فرج زين الدين الملقب بأبي السعادات وسنه ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر . وفي أول حكمه ثار الاتابك ايتمش وتنم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمي حاكم حلب فاستولي على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يتحقق فأخذت منه المضايق وضويق عليه حتى قيد أسيراً وقتل هو وكل دعاته . ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة أشد وطأة وأصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد أن أتم حروبه في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ هـ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحمص بعد حروب شديدة . وفر فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بيازيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءته الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسره سنة ٨٠٤ هـ في وقعة انقرة فخارت قواه ويئس من الفرج فبعث اليه تيمورلنك فيلا هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه بأحمد وقرا يوسف حالا . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فأجابه الى طلبه صاغراً

وأهداه زرافة حبشية وبايعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة عنهم . أما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمهما فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يسجنهما عنده فاستقرت سيادة تيمور على مصر

وفي سنة ٨٠٦ ﻫ شرقت مصر بقصور النيل فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لايوصف حتى انه مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفاً ونحو ذلك في مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التاليةأدرك تيمور القضاء المبرم في أوترار وتخاصم ابناؤه على الملك فتخلصت مصر من سلطة التتر وذهب الحذر عن احمد وقرا يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم أخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضويق عليه في قصره . لان المصريين لما رأوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه. فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة اخيه في قصره في ١٦ ربيع أول سنة ٨٠٨ ﻫ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفظاً لحياته . وقد حكم ست سنوات وخمسة أشهر و ١١ يوماً

وكانت ايامه كثيرة الفتن والشرور فقد طرق الشام فيها تيمورلنك كما رأيت فأخربها وأحرقها وعمها بالقتل والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتفرق أهلها في جميع أقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من أهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الارض الا قليلا وعظم الغلاء والفناء فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع وصاروا ارقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة ارض مصر وبلاد الشام من مصب النيل عند الجنادل الى حيث مجرى الفرات

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ — ٨٠٩ ﻫ أو من ١٤٠٥ — ١٤٠٥ م

ثم خرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس أنه قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاه ولقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على

توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فملوا من طاعته ومالوا بكليتهم الى سلفه فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جمادى الآخرة ونفى اخاه عزالدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج ابن برقوق (ثانية)

من سنة ٨٠٩ - ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فخيّم الامن وسكنت القلوب. فاذا كانت سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياته. وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري نسبة الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق. وكان الملك الظاهر قد اعتقه ووعده بالمناصب الحربية فطمحت ابصاره الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وكان قد ولي الخلافة بعد المتوكل على الله منذ خمس سنوات. وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقالهم الى القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالأئمة. فاسرّ الشيخ المحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له « ان الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتكم وتنفيذ اوامركم » . فتنبه في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ المحمودي. وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامه فانفذا اليه اولا ان يتنازل عن الملك فاجاب ان لا جواب عنده غير السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ المحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر امراً بتوقيعه فجاء بما لا يجيء به السيف ونصه «من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر. اعلموا اننا قد خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدهما الحقيقي انما هو الخليفة خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالفه »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم ينج فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة ـ وهو انه

كان قد اضطر لكثرة ما انفقه في محاربة التتر ان يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه عرائض التشكي الى مجلس الأئمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرب البلاد وانه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ – ٨١٥ هـ او من ١٤١٢ – ١٤١٢ م

فاجتمعت السلطتان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند ولقبوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العساكر ومدبر المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصة المعتدين واظهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبه الناس . اما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه الثورة خدمة لاغراضه وليس للخليفة فرأى انه اصبح آلة بيده فاضمر له شراً ونوى على خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفاً من الوقوع في شر اعماله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين امراء المماليك والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئاً من ضعف الرأي والخمول فضلا عن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربه وما زال ساعياً الى مطامح انظاره حتى كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر الخليفة على مشاركته في السلطة فاجاب ولقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة اخرى لخلع الخليفة وحبسه في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ – ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ – ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله مقاومته لكنه كتب سراً الى نوروز احد اصدقائه القدماء وكان قد ولاه سوريا يستنجده فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه يقصر عن مناوأة المحمودي فأوعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر

منشوراً بخلعه فاغتنم المشايخ والامراء فرصة غيابه وجاهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة نخافه المشايخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع وألحوا على معاقبته لانه تمرد على سلطانهم نخلعوه من السلطنة والخلافة وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ ﻫ واقاموا اخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ المحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسعى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فامنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر . وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ ﻫ توفي السلطان الشيخ المحمودي . وكان محباً للعلماء يكرم مثواهم . وله بنايات جميلة من جملتها الجامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناءه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ليوان القبلة . وبعد وفاته عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الا مدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر

من سنة ٨٢٤ ــ ٨٢٥ ﻫ او من ١٤٢١ ــ ١٤٢٢ م

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى عن الملك لوصيه وحميه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويع ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقي حياته في الشقاء

سلطنة الملك الاشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ ــ ٨٤١ ﻫ او من ١٤٢٢ ــ ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلف الامراء في من يخلفه فتنحى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتقم السلطنة غنيمة باردة . فبويع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ ﻫ ولقب بالملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكاً احبه سيده الملك الظاهر ططر فاعتقه ورقاه حتى جعله وصياً على ابنه . وفي اول حكمه فاض النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الحبوب وشبع الفقراء . وكان برس باي

كالشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد رمم عدة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايات منها الجامع المعروف بجامع الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتدأ في بنائه سنة ٨٢٦ هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطة بيده مدة طويلة والبلاد في سكينة الا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير بنيق النجاشي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال له عبد الرحمن فولاه برس باي على سوريا بدلا من النجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة داخلا وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لانه كان اعلاهم همة واشدهم عزيمة واكثرهم تدرباً في الاحكام . ومما يمتدح عليه انه ابدل جميع التذللات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقبيل اليد فقط . لكنه اصيب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصيب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى بر الجيزة . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف فضة من صيرفي باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنفوها الى بر الجيزة . ثم انه امر بان لاتخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت الغاسلة اذا أرادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في رأسها وتمشي في السوق . ثم أنه نادى في القاهرة بأن لا يلبس الفلاحون زمطاً مطلقاً فامتثل الناس أمره . ثم أنه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف واستمر على أمثال ذلك الى أن مات بعد أن حكم ١٧ سنة و ٨ أشهر و ٦ أيام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ ـ ٨٤٢ هـ أو من ١٤٣٧ ـ ١٤٣٨ م

فبويع ابنه جمال الدين يوسف الملقب بأبي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة

أشهر من مبايعته تخاصم مماليكه وسيف الدين جقمق اتابك جيشه خصاماً انتهى بعزله ومبايعة جقمق في ١٩ ربيع أول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ أو من ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه أصيبت مصر بطاعون تفشى في أنحائها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً وأوصى بالخلافة بعده لاخيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاخيه تقى وبراً حتى تخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبويع اخوه ولقب بالقائم بأمر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فأبغضه السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز الثمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطة لابنه فخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ ـ ٨٥٧ هـ أو من ١٤٥٣ ـ ١٤٥٣ م

وبويع فخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور أما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على أمل أن ينال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة ربيع آخر من تلك السنة بعد أن حكم شهراً ويوماً . أما الخليفة فخاب انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وبايعوا مملوكا مسناً اسمه أبو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف اينال

من سنة ٨٥٧ ـ ٨٦٥ هـ أو من ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته انه لا يلبث أن يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فاتصل ذلك بالوزير

بالمجيوني فأعلم السلطان بأمره فاستحضر الخليفة وقرّعه ثم أمر بخلعه عن الخلافة فقال الخليفة « من أين لك أن تخلع الخلفاء ولهم وحدهم أن يولوا ويعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف أخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيما معتدلا وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين ولى وعزل في أثنائها كثيراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادى الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد أن حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن اينال

من سنة ٨٦٥ - ٨٦٥ هـ أو من ١٤٦٠ - ١٤٦١ م

فتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بأبي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في آخر أيام أبيه . وترى في شكل ٩٥ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة أبيه . فلما بويع لقب بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا أربعة أشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبويع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر



ش ٩٥ : نقود أبي الفتح والاشرف

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ أو من ١٤٦١ - ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل وبالناصري لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان محباً للآداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيما باراً حليما محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فأحبته الرعية وأجمعوا على طاعته والاخلاص له . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من أفضل سلاطين مصر وقد اقتدى به رجال دولته . أما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع أول سنة ٨٧٢ هـ وسنه ستون سنة فأسف عليه الناس كثيراً

وكان حسن الشكل معتدل القامة مترك الوجه احمر اللون مستدير اللحية ضخم

الجسم شائب اللحية فصيح اللسان بالعربية وكان ماشياً على النظام القديم تابعاً لطريقة الملوك السالفين في اقامة المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة . وكان سائراً على خطة استاذه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ولبس الصوف في المطعم وكان كثير الرمايات في كل سنة ويشق في القاهرة المواكب الجليلة . وكان يطيف المحمل في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة أربعين يوماً ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ويخرج الناس في ذلك عن الحد بالقصف والخلاعة وكانت أيامه كلها لهواً ولم يجيء في أيامه الطاعون بمصر ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية . وكان متأنقاً في ملبسه فصنع ركباً ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمور الاسود بلون الحبر وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ويبطنه بالمخمل الاحمر الكفوي

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمربغا

من ٨٧٢ - ٨٧٢ ﻫ أو من ١٤٦٧ - ١٤٦٧ م

فبايعوا أبا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سمياً لسابقه بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات أكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبداً عاتياً لا يغادر كبيراً ولا صغيراً فكرهته الناس ولم يمض ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الاولى من تلك السنة وبايعوا الامير أبا سعيد تمربغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الظاهر أيضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لانه خلع بعد شهرين من توليته وبايعوا الامير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ - ٩٠١ ﻫ أو من ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ ﻫ أربعة سلاطين . أما السلطان الاخير فمكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ما كانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكا محرراً من مماليك جقمق وكان لعلو همته وحسن سياسته قابضاً على أزمة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة ألا انها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على أوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف

فتنبأ قايت باي أن ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فأرسل حامية كبيرة الى الحدود فأجل العثمانيون عزمهم لاشتغالهم بحروبهم في أوربا . أما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم ير سبيلا لرفع التبعة عنه الا بالتنازل عن الملك فأدرك الامراء شدة احتياجهم اليه في مثل تلك الاحوال فأجبروه على قبول السلطنة. ولم يكد يعلوها حتى جاءته الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمه على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ هـ لكنه لم يخرج من بر الاناطول حتى داهمته المنية في مدينة طيقور جاير . وتخاصم ابناه بيازيد وجم (أوزيزم) على الملك فشغلا عن الفتح فاغتنم قايت باي تلك الفرصة وانسحب بجيشه الى مصر

وما زال الخصام يتعاظم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة يكي شهر فانهزم جم حتى أتى مصر فالتجأ الى قايت باى فأكرم وفادته ثم علم أن ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسه « اذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين » فجعل يناوىء الاتراك ويقطع السبيل على قوافلهم الناقلة الحجاج الى الحرمين حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى بيازيد واستولى على ادنة وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين. أما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الاجراءات طينة على عجينة الا أنه رأى أن يأتيهم من باب الحزم فأنفذ اليهم رسلا في طلب التعويض عما سببوه من الخسائر والاضرار . فأرجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومته أشد مقاومة وأرجعت جيشه الى ملاطية فأنجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضايق الجبال فهجموا عليهم بغتة وذبحوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون وتحصنوا في ترسوس وادنة . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاخراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على بيازيد وآلى على نفسه الا أن يسترجع ترسوس وادنة فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهره احمد وهو ابن امير البوسنه — ولد في البانيا ثم أسلم وأخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقه حتى تمكن مع صغر سنه وكونه غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ففازت الجيوش المصرية وأسر احمد بعد أن جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي باسيره الى مصر ظافراً فبنى جامعه المشهور المعروف

بجامع الازبكية وكانت في أيامه بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليه الآن

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشه استشاط غضباً وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان . فاتصل خبرها بقايت باي فاوجس خيفة فعمد الى المصالحة فانفذ الى بيازيد صهره احمد واسطة لعقد شروط المصالحة . فرفض بيازيد ذلك رفضاً كلياً وسار حتى التقى بالمصريين في ادنه وترسوس فحاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد أن أهرق دماء غزيرة . ثم سار الى ارمينيا وأخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد أن دافعت دفاعاً قوياً وأسر حاكمها وأرسله بعد ذلك الى مصر بدلا من الامير أحمد . فبعث قايت باي الازبكي ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوه اولا ثم عاد اليهم وفاز بهم وأعادهم القهقرى وعاد الى القاهرة ظافراً فخلع عليه قايت باي . ثم رأى أن يغتنم كونه ظافراً لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابه مهدداً وطلب اليه أن يتنازل له عن ترسوس وادنه وانه اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائه كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتتحها فتحاً مبيناً . فخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين اكتفاء باهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ

وعاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانيـة خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد أن حكم ٢٩ سنة وأربعة اشهر وعشرين يوماً فبكاه الناس . ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيه مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبنى قايت باي جامعاً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطنة محمد بن قايت باي ثم قنسو خمسمئة ثم قنسو ابي سعيد ثم قنسو جانبلاط ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ ـ ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ ـ ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر ولم يجلس على

سلطنة مصر رجل أقل لياقة لها منه فانه كان أحمق جبيصاً وحشياً لا ديدن له الا الانغماس في الملذات الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثام . وقد زادت قحته حتى سلخ جلد أحد مماليكه حياً فثار عليه المماليك وخلعوه بعد أن حكم ستة أشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمئة لانه ابتيع بالاصل بخمسمائة دينار ولقبوه بالملك الاشرف . وبعد خمسة أشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الخطر الا بالرغم عنه . وبعد عشرين شهراً وبضعة أيام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة أشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخر سنة ٩٠٦ هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافقهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة أشهر أضمر له المماليك مكيدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طلباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه ملجأً حصيناً مكث فيه أربعين يوماً ثم اكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك والاعيان وأرباب الدولة وتداولوا فيمن يجب أن يختاروا ليحكم فيهم من أهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضاً من مماليك قايت باي وكان رجلا تقياً مخلصاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه أمر مبايعته انذهل ورفض قائلا للذين انتخبوه « لا أخالف لكم أمراً انما أراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم أعتد معاناة الاحكام والامر والنهي » . فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب . فلم ير بداً من القبول لكنه قال لهم « أكون في غاية السرور اذا جئتموني يوماً تنبئوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف أيضاً .

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ أو من ١٥٠١ — ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام وأخلص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حالها

فأخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويليها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند أثقلوا على العلاقات التجارية بينها و بين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود أخو السلطان سليم بن بيازيد « سليم الاول » الى مصر ملتجئاً اليها بعد أن تخاصم مع أخيه على الملك كما حصل بجم وبيازيد المتقدم ذكرهما فرحب به قنسو الغوري ترحيباً عظيما وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة لمراكب أورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز اليها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية وارسل الى مصر رسائل التهديد . فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الا أن الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشتتت الجيشين وأي تشتيت فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بأمر الصلح على أي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى أتوا السلطان سليم فخروا ساجدين وخاطبوه بأمر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها أنا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان له أهلاً . » فعادوا وأخبروا بما كان فجمع اليه رجاله وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وأظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى أوشكت رجاله أن تستظهر فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحراب والسيوف فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمة جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلا تحت أرجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد أن حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و ٢٥ يوماً

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ او من ١٥١٦ ـ ١٥١٧ م

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن أخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه أيضاً بالملك الاشرف وكان حازماً باسلا . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة أمر باعداد حملة أخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي أن الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا أن الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكد يتم اعداداته حتى أتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

«من السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باى الشركسي

« الحمد لله . أما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . أما قنسو الكافر الذى حملته القحة على مناوأة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا أن نتخلص منك فانك جار معاد والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا أردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعالَ الى أعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا . . . . . . »

فلما قرأ طومان باى الكتاب وما في ذيله من التهديد المستتر استشاط غيظاً وأصر على المقاتلة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما أمكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى أتى الصالحية فعسكر هناك . أما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بعقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فعرج بجيشه تاركا الصالحية عن يمينه وسار حتى أتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من الوراء فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة

وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد أن أرضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل في هذه المرة غير ما نال في المرات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزادفي حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيما وأقام في كل شارع وفي كل بيت طابية الدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله المدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وما اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه أمراؤه لم تنج القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وأمعنوا فيها قتلا ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

أما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان الرحل وباعوه للعثمانيين . فاستحضره السلطان سليم مغلولا ونظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فأمر بأن تحل قيوده وأن يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في أمر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة أيام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم أنه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فأمر بشنقه في ١٩ ربيع أول سنة ٩٢٣ ﻫ فعلقوه تحت رواق باب زويلة بكلاب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة أو البرجية بعد أن تسلطوا نحو ١٣٩ سنة وأصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

تم الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث

فهرس الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث

صفحة

صفحة

دولة المماليك الثانية



Bibliotheca Alexadrina
0234008